رواية

جهينة

الجزء

2



إسلام عبد الله

شبح المدينة

دار نهضة مصر



رواية

إسلام عبد اللَّه

جهينة
(توقع ألا تتوقع)

تأليف:

إسلام عبد اللّه

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 978-977-14-5547-9

رقم الإيـداع: 16361 / 2017

طبـعـة: أغسـطـس 2017

تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -

المهندسين - الجيزة

وما الدنيا إلا متسع عقلك.. وما العالم إلا ما تصنعه أنت

❊ ❊ ❊

إذا عاد أحد أحبابك من الموت.. فهل ستكون سعيدًا؟

❊ ❊ ❊

ما الذي يجعل البشر.. بشرًا؟

❊ ❊ ❊

جهينة اسـم لقبيلة من قبائل العرب المعروفة قديمًا،
وفي المثل: وعندَ جهينةَ الخبرُ اليقينُ.

تحت جنح الليل وفي وسط ظلامه الدامس.. وقف شابان يتجادلان للحظات.. وفي وسط انهماكهما في الحديث وقف أحدهما وهو يشعر بالتوتر الشديد يجتاحه.. فأغلق عينيه للحظات ثم تنفس بقوة وفتح عينيه وأخرج من ملابسه سكينًا متوسط الحجم وتقدم به بسرعة شديدة، وبدون تردد غرسه بعنف في قلب غريمه.. الذي شعر بالطعنة تخترق قلبه لتمتص الحياة منه.. حاول أن يفهم ما حدث.. ولكن سرعة الموقف وغرابته جعلتاه يشعر بالبلاهة.. جسده هو الذي تحرك بمفرده.. يداه أطبقتا على يد زميله التي تحمل السكين تحاولان أن تمنعاه من النفاذ في جسده أكثر وأكثر.. وهو يصرخ غير مصدق.

«ماذا فعلت أيها اللعين؟!.. ماذا فعلت؟!».

ظل زميله يغرس السكين أكثر في قلبه وهو يحدثه بحنق: «إني أفعل ما أخبرتني به منذ قليل.. أقتل الشيطان لكي أخلص العالم من شروره».

كهف الوحوش

على بُعد ملايين الأمتار عن كوكب الأرض وهناك بغياهب الظلام كان يسير مع أقرانه في مدار ثابت بين آلاف القطع الأخرى في حزام الكويكبات ما بين مداري المريخ والمشتري، ولكنه انحرف قليلًا بسبب تعارض مجاله مع إحدى القطع الطائشة الهائمة في الفضاء.. تلك الانحرافات الصغيرة جعلته يصبو في طريقه إلى كوكبنا الأزرق الصغير؛ كوكب الأرض.. وظل يقترب ويقترب وهو يقطع آلاف الأمتار، وتمر مئات السنين وهو يستمر بطريقه إلينا.. لقد اخترق غلافنا الجوي فاحترق، كان حجمه يقارب حجم قارب صغير، ومعدل سرعته كان 20 ألفًا من الكيلومترات بالثانية الواحدة؛ أي ما يكفي لإيصال مسافر إلى القمر بأقل من 20 ثانية؛ لذلك دبت فيه حرارة هائلة معدلها 2000 درجة مئوية نتجت من احتكاكه بالغلاف الجوي، فجعلته جمرة متوهجة من النيران فوق سماء مصر.. توهج مبهر وصوت فرقعة ضخم صاحب هذا الكويكب في رحلة هبوطه السريعة إلى الأراضي المصرية.

كان في ذلك الوقت يسكن بالأراضي المصرية بشر قديمًا.. أقدم من بناء الأهرامات والحضارة المصرية نفسها.. عاينوا سقوط هذا

اللهب من السماء في منطقة بعيدة عنهم نسبيًّا، ولكن مشهد ارتطام هذا اللهب بالأرض وسماع صوته الضخم قد خيل إليهم أنها نهاية العالم الذي لم يبدأ بعد.. تجمع بعض سكان الوادي مِمَّن تملكتهم الشجاعة وحب المغامرة مع بعضهم، وكونوا عصبة سريعة من عشرين فردًا، معظمهم من الشباب والرجال شديدي البنيان، وشدوا رحالهم لمعرفة ما الذي سقط من السماء، وليعاينوه لأول مرة في تاريخهم.. استمرت رحلتهم على الأقدام ما يقارب الثلاثين يومًا.. لم يكن يهديهم أي شيء في طريقهم سوى آثار النيران التي مازالت مشتعلة ولم تخمد بعد، ودخانها ينبعث منها، ويشاهدونه على بعد كيلومترات.. فلقد كانت مصر في تلك الحقبة عبارة عن أراضٍ ممتلئة بالسهول العشبية والغابات، وكانت جنة خضراء لم يصبها التصحر إلا بعد ذلك بسنوات طويلة.. وكان المغامرون يقتاتون في سفرهم على الفواكه وبعض الحبوب التي كانوا يزرعونها، وحملوها معهم، وكانوا يصطادون الوعول الكبيرة والماشية التي كانت تقابلهم في طريقهم.. اقتربوا من مقصدهم أخيرًا، ولحسن حظهم كانت النيران هدأت قليلًا، وهدأ معها الدخان المصاحب من اشتعال النيران في هذا الجزء من الغابة أو ما كان يسمى غابة، فلقد دلف المغامرون إلى المنطقة التي سقط بها النيزك، ويا لهول ما شاهدوه! فلقد أذهلهم منظر الدمار الشاسع الذي أمامهم، إذ كانت الأشجار المتفحمة ملقاة في صفوف على امتداد الأفق مدمرة تمامًا، وبحر من الأراضي السوداء على بعد كيلومترات حولهم، فلقد أدى انفجار النيزك واحتكاكه بالأرض إلى خلق نيران

تصـل إلى 2000 درجـة مئوية تقريبًا، حرقت ودمـرت جميع من حولها، وأصبـح نصـف الأرض مغطى بطلاء أسـود مـن مادة مصهـورة من اختلاط الصخور والأشـجار والتربة، وبعضها تبلور، وتحول لونه إلى الأخضر والأصفر.. درجة الحرارة كانت مرتفعة على الرغم من مرور ثلاثين يومًا على سـقوط النيزك بالفعل، ووسـط هذا الدمار والأرض الصخريـة السـوداء المتفحمـة تلك شـاهدوا حفـرة عملاقـة على بعد 300 مـتر تقريبًا قطرها يصل لأربعين مـترًا، وعمقها وصل إلى 13 مترًا تحـت الأرض.. تـردد المغامـرون كثـيرًا في الاقتراب من تلـك الحفرة التـي صنعها هذا اللهب السـاقط من السـماء، وهمـوا بالتراجع حينها، ولكـن بعضهم أراد أن يكمل مغامرته حتى النهاية، فتطوع ثلاثة أفراد ليتقدموا إلى تلك الفوهة الضخمة التي كان يراها أي شخص في الحال فيعتقد أنها بالتأكيد الطريق إلى باب الجحيم.. اقترب المغامرون الثلاثة من الفوهة بحرص شـديد، ومن خلفهم كانت عبارات الحذر تزفهم، وعيـون متابعيهم تحرسـهم من بعيد.. اقترب المغامرون على اسـتحياء لـيروا ما بداخل تلـك الحفرة الضخمة وهم مسـلحون ببعض العصي الخشـبية الغليظة التي كانت تقوم بدور جيد في صيد فرائسهم.. كانت الأرض مازالت سـاخنة أسـفل أقدامهم العارية عـلى الرغم من ثخن طبقات جلدهم لتحركهم الدائم وهم حفاة، لكن كانت درجة حرارة الأرض السوداء أسفل منهم مرتفعة بحق.. فجعلتهم يتحركون بخفة وسرعة، ولكن بحذر شـديد، وكانوا يختارون مواطئ أقدامهم بعناية، وعلى الرغم من سطوع الشمس أعلاهم فإنه كانت هناك ظلمة شديدة

بداخـل تلـك الحفرة التـي صنعها هبـوط النيزك.. حـاول أحدهم أن يتحقـق مما بداخل تلك الظلمة من بعيد، فلم يسـتطع، فاقترب غريزيًّا قليـلًا من الفوهـة بدافع الفضول، فتهاوت تحـت أقدامه الأرض التي كان يقف عليها.. ولم يشعر بنفسه إلا وهو يسقط بداخل الفوهة، انتابه الذعـر وهو يوقن بأن تلك نهايته.. صريخه الحاد وسـقوط الأرض من تحتـه عوامـل بثت الرعـب بزملائه عندما شـاهدوه يسـقط فهربوا من المـكان عـلى الفور، وأطلقوا سـيقانهم للريح وتركوه لمصـيره وحيدًا.. سقط الشـاب بداخل الحفرة بسرعة شـديدة، وظل يصرخ وهو يهوى ويهـوى إلى الأسـفل، اجتاحتـه الآلام فجأة عندما لامس جسـده قاع الحفرة التي كانت سـاخنة للغاية.. لدرجة جعلته ينسـى أنه سـقط من الأعـلى، فلـم يتدارك نفسـه إلا وهو يقفـز بمكانه ويمسـك قدميه من سـخونه الأرض أسـفله، ظل يقفز سريعًا كالأرنب البري لا يسـتطيع ملامسـة الأرض إلا ويجد نفسه يقفز من جديد لجهة أخرى.. ظل على هـذا الحـال لعدة لحظات حتى شـعر بقدمه تقف فوق مـكان بارد عن باقي الأرض أسـفل منه.. شـعر بالاندهاش الشديد واقترب أكثر لهذا المكان البارد ليجد نفسه أمام شيء غريب للغاية.. المكان بأكمله أسود بفعـل النيران والأرض والصخـور المنصهرة حوله، ولكن في منتصف تلك الحفرة بالضبط كان يقبع شيء مثير داخل الظلام.. صخرة بيضاء ناصعة لا شـية فيها برزت وسط كل ذلك السواد الذي يحيطه، وكانت تخـرج دخانًا أبيـض.. منظر تلك الصخـرة البيضاء أثار انتباه الشـاب وفضولـه؛ فحاول أن يمد يده ليلمـس تلك الصخرة التي أمامه ولكنه

سحب يده إلى جسده سريعًا وهو متخوف ومتردد.. لكن صدور الدخان الأبيض من تلك الصخرة البيضاء أثار فضوله الشديد فتخلى عن خوفه ومد يده ببطء يحاول أن يتلمس تلك الصخرة وهو على أشد حذر؛ لأن صدور ذلك الدخان الأبيض يدل على السخونة الشديدة لتلك الصخرة.. مد يده وتلمس الحجر بسرعة فائقة وهو يتوقع أن تعود محترقة، ولكنه كان مندهشًا عندما شاهدها سليمة ولم تحترق.. مد يده مرة أخرى بصورة أبطأ قليلًا تلك المرة، وتلمس الصخرة البيضاء، وياللعجب! حيث لم يجد أي حرارة تصدر من الصخرة؛ بل على النقيض من ذلك وجد أن الصخرة باردة للغاية، وأن الدخان الذي حول الحجر ليس دخانًا؛ بل بخار ناتج عن التباين في درجة برودة الصخرة والجو الساخن المحيط بها.. انتاب الشاب الفضول الشديد وأخذ ينظر إلى الصخرة أمامه التي كانت في حجم متوسط على شكل هرمي غير مستوٍ، وقاعدتها عريضة أكثر من ارتفاعها، ولونها أبيض ناصع، وملمسها أقرب إلى ملمس المعدن عن الملمس الصخري.. شعر الشاب بالانبهار وهو يحرك يديه ببطء على الحجر ويضعها بعد ذلك فوق أنفه يحاول أن يتشمم رائحتها.. وهنا لم يجد أي رائحة غريبة تذكر.. تلمس الصخرة مرة أخرى ثم وضع أطراف أصابعه على لسانه يحاول أن يتذوق طعم هذه الصخرة، وهنا سمع صوت صراخ فشعر بالخوف الشديد، وتحرك من مكانه فألهبت الأرض قدمه بسخونتها مرة أخرى فعاد مسرعًا ومرغمًا إلى جهة الصخرة البيضاء من جديد، ثم نظر إلى أعلى ليبحث عن مصدر الصوت الذي سمعه ليسمع مرة

أخـرى أصواتًـا تناديه.. إنهـم رفقاؤه ينادونـه قلقين.. أجابهم مبتسـمًا وهـو يطمئنهم.. فعاودوا الصيـاح عليه وهم فرحون.. ظلوا يصنعون أدوات لإخراجه من تلك الحفرة باقي اليوم، وعندما شارف اليوم على الانتهـاء أخرجـوه من الحفرة وأخذ يتحدث معهـم عن تلك الصخرة البيضـاء الغريبـة التي وجدها بالأسـفل وأنها باردة وملمسـها مختلف عـن بقيـة الصخور، وأخذ يـسرد ويسرد حتـى أقنع الجميـع بجدوى إخراج تلك الصخرة والعـودة بها لقبيلتهم.. وبالفعل تم الاتفاق على ذلـك، وفي بداية اليوم التالي لهم هبط أكثر من شـخص ليحضروا تلك الصخرة، وكم كانت دهشتهم من ملمسها ومنظرها الأبيض الناصع! ولكَم دهشوا أكثر عندما وجدوا أن تلك الصخرة ليست ثقيلة للغاية! فيسـتطيع أي شـاب منهـم أن يحملهـا بمفـرده وبدون مشـقة كبيرة.. اسـتطاع المغامرون إخراج الصخـرة، وحاولوا أن يُجـروا عليها بعض التجارب والاختبارات باقي يومهم ليجدوها صخرة قوية ولا تتحطم بسـهولة على الرغـم من وزنها الخفيف نسـبيًّا، وهنا قام الشـاب الذي وجدهـا أول مرة بإخبارهم بأن هذه الصخرة مقدسـة؛ لأنها سـقطت من السماء ويجب أن يبجلوها ويظهروا لها الاحترام المناسب، وبالفعل شـعر الجميـع بأهمية ذلـك، وبدءوا بتبجيـل تلك الصخـرة وإحاطتها بمشـاعر الاحـترام والتقديس، وفي اليـوم التالي صـادف بعضَهم عند رحيلهـم غزال شـارد كبـير.. فقام بعضهـم بالتهيؤ لصيد هـذا الصيد الثمـين، وأخذوا يتتبعون ذلك الغزال بتربـص وبخفة ليجدوا أن هذا الغـزال قـد تجمع مـع قطيع كبـير من الحيوانـات حول عين مـاء عذبة

وحولها الكثير من الأشـجار والنخيل والكثير من السـهول الخضراء، فأخذ المغامرون يتجولون في ذلك المكان الرائع ليجدوا كهفًا متوسـط الحجـم ولـه مدخل صغير تسـتطيع الدلـوف إليه عن طريـق الزحف فقـط؛ ولذلك هو آمن ويتسـع لأعـداد كبيرة للعيش بداخله، فرشـح الجميع ذلك المكان وذلك الكهـف للعيش به والانتقال بقبيلتهم إليه، وارجعوا نجاحهم في العثور على هذا المكان إلى بركة عثورهم على تلك الصخرة البيضاء.. انتقل الشـاب ومعه عشرة أشـخاص من المغامرين للسـكن في هذا الكهف وإعداده لاستقبال القبيلة، ووضعوا الصخرة البيضـاء بداخل الكهف، وأخـذوا يتبركون بها ويتقربـون إليها.. بعد مرور عدة أيام انتقل باقي أفراد القبيلة إلى الكهف وسـكنوه، وعاشـوا في ذلـك المكان لفترة طويلة.. تلك الحكاية حدثت منذ وقت ضئيل في عمر الكون عظيم في عمر الإنسان.. لقد حدث هذا الأمر منذ عشرين ألف عام قبل الميلاد..



(صديق قديم)

عام 1987

تكبدت الشمسُ السماءَ، وطغت على الأرض بأشعتها، وغمرتها بدفئها وهي تعانق وسط الصحراء بحرارة شديدة، فلم يكن يتحمل ذلك العناق أي كائن حي حينها إلا شخص واحد فقط ظل واقفًا متحديًا الشمس وأشعتها بمظلته الصغيرة التي فوق رأسه.. كان يدعى (مدحت فراج)، هذا الفنان الذي أخذ ينقش بفرشاته على لوح أبيض أمامه جزءًا من الحياة حوله يطبعها بكل دقة وحرفية على لوحاته التي كانت تنبض بالحياة على الرغم من عدم اكتمال الرسم بداخلها.. واقفًا ثابتًا يغزو العرقُ شعر رأسه المكتسي بالشيب الوليد، ويزحف على لحيته الشعثه ليتساقط بالنهاية على ملابسه البيضاء المكتنزة على جسده الذي أكل عليه الزمان وشرب وهو لم يكمل عامه الخامس والأربعين بعد.. انعزل عن كل ما يحيط به وأخذ يصب تركيزه على مشاهد الصحراء البيضاء أمامه.. تلك الصحراء التي حباها الله جمالًا ورونقًا خاصًّا يجعلها قبلة الباحثين عن المتعة والمغامرة في صحارى العالم.. فرمال هذه الصحراء تكاد تكون بيضاء كالثلج، وممتلئة

بالصخـور الضخمة الطباشـيرية، والعديد من التشـكيلات الصخرية التـي تم تكوينها نتيجـة للعواصف الرملية في المنطقـة؛ مما حبا الطبيعة منحوتـات طبيعية تتحدى أعتى نحاتي أثينا قديمًا.. فتجد صخورًا على هيئـة جِمال وعلى هيئة أبي الهـول، وبعضها كان أشـبه براقصات الباليه (الباليرينا) وبعضها اتخذ شكل حصان الشطرنج، والعديد العديد من المنحوتـات الطبيعية التي صنعتها الرياح فجعلـت جمالها متاحًا لجميع راغبي السـكون والراحة وجمال الطبيعة، وتقع هذه الصحراء في مصر عـلى بعد 45 كيلومترًا إلى الشـمال من واحة الفرافـرة بمحافظة الوادي الجديد، وعلى مسافة 500 كيلومتر تقريبًا من القاهرة.. مسافة كبيرة على أي شخص من سكان العاصمة أن يأتي إلى هنا لكي يمكث بالصحراء، ولكن كان الأمر مختلفًا مع مدحت؛ فهو يذهب إلى الصحاري والمناطق المنسـية في مـصر لالتقاط واقتبـاس بعض مظاهر الحياة هنـاك، وبعثها مـن جديـد عـلى أوراقه لنفسـه أولًا ولجمهـوره الذي أصبـح يتهافت عـلى معارضه ويقتني لوحاته.. لم يكـن يعكر هدوءه وتركيزه ذلك أي شيء.. فهو اعتاد على مشـاهد العقارب والثعابـين وهوام الصحراء.. فالواضـح أن الإنسـان يخاف ممـا يجهله فقط، أمـا إذا اعتدت على شيء فسـيفقد رهبتـه في نفسـك حتى ولـو كان مصاحبة الجـن واللعب مع الشـياطين.. كان لا يترك فرشاته من يده قَطُّ إلا في حال أن يجف حلقه عطشًـا فيذهب مسرعًا إلى سـيارته ذات الدفع الرباعي ليلتقط زجاجة الميـاه الملفوفـة بالخيش المبلـل لتحافظ على نسـبة صغيرة مـن برودتها الخافتـة.. يدفـع المياه إلى حلقه دفعًا وينطلـق سريعًا إلى لوحته ليغوص

في أعـماق الصحراء البيضاء من جديد.. كان الأمر بالنسـبة إليه كمتعة تنـاول الطعـام لا تمل منها أبـدًا، وعندما تتركه لعدة سـاعات يضربك الجوع لتذهـب وتتناوله من جديد حتى ولو لم يصبك الجوع وأصابك الإحباط أو الحزن أو حتى الفرح، فالطعام هو رفيقك الحنون؛ وكذلك الرسم لمدحت فراج.. فهو كان متذوقًا للفن عاشقًا للمغامرات وروح التحـدي؛ تلك الأمور التي لم يجدها في وظائف القاهرة أو بزواجه من ابنـة خالتـه وإنجابه ثلاثة أطفـال.. كل تلـك الأمـور الروتينية كانت تقتلـه قبـل أن تقتل شـغفه.. فترك هـذا كله وانطلـق وراء شرارة الفن وروح التحـدي.. كان يقتات ويتعايش من بيع رسـوماته، ولكن –كما تعلـم– الفن لدينا غير مرغوب، ولا يصل بـك أبدًا إلى حد الكفاف.. ولكن حينما تطارد حلمك سـتجدك سعيدًا بما لديك ولو أقل القليل.. ظل مدحت على حاله هذا وقتًا طويلًا حتى انتصف النهار وهو مازال منهمـكًا في رسـمته التي أمامه لا تقاطعه أي هامـة أو لامة.. ولكن في ظل انشـغاله ذاك ترامى إلى سـمعه صوت محرك سيارة يزأر من بعيد.. التفت إلى مصدر صوت السيارة القادمة من خلفه فوجد سيارة بيضاء تقطـع الصحـراء بسرعـة ثابتـة. ترقَّبهـا وهو حائـر؛ مَـن الذي حضر ليقطـع خلوته مـع الطبيعة الآن؟! توقفت السـيارة بالقرب منه وهبط منها شـخصان تقدما في اهتمام جهته، أحدهما أجنبي من ملامح وجهه الغربيـة، والآخر شـعر بأنه يعرفـه ولكنه لم يتذكـره.. اقترب الرجلان منه وبادر أحدهما بتحيته وعلى وجهه ابتسـامة عريضة، وهو يرفع يديه بالترحـاب وينـادي عليه بلهجة غير مصريـة.. دقق مدحت في ملامح

الرجـل غـير مصدق: هـل يكون هـذا الرجل هـو «يونـس المهدي»؟ لم يتأكـد من أنه هو إلا عندما احتضنـه بحميمية وهو يحييه بلهجة أهل المغرب العربي؛ هنا قطع الشك باليقين وتأكد أنه صديقه يونس المهدي فأخذ يبادله الترحاب الشـديد وهو غير مصدق لرؤيته بعد السـنوات الخمس السابقة.. أخذ يونس بيده وهو قابض عليها تحت ذراعه متأبطًا إياها وهو يحدثه مبتسـمًا وتطرقا إلى حديـث ودي سريع دام لدقائق ثم قطع حديثهما تقدم الرجل الأجنبي جهة مدحت وهو يصافحه، فأخذ يونس يعرِّفه إلى صاحبه وهو مبتسم:

«صديقـي مدحـت.. أعرفك بالدكتـور هانزل جرلي عـالم فيزيائي في جامعة سـتانفورد، وهو نرويجي الجنسـية».. تبادلا المصافحة سريعًا وأخذا يتحدثان معًا بحميمية ولكن أشعة الشمس المرهقة أجبرتهم على اتخاذ مخبأ مؤقت داخل سـيارة مدحت الذي رحب بهما وقام بإعطائهما بعض زجاجات المياه التي معه فشربا في عجالة وهما مستمتعان، وأخذ مدحـت يراقبهـما مندهشًـا من زيـارة يونـس المفاجئة تلـك.. هل هي مصادفـة مـن ترتيب القدر أم هـي مقصودة؟ فبالطبـع لا يكون القدر كريـمًا هكذا بإعطائه التفاصيل الكاملة لمكانه وهو في وسـط الصحراء البيضـاء في أقـصى مكان في مـصر.. فضوله القوي لم يمنعه من سـؤال يونس في الحال عن بعض ما يدور بخلده:

«أخـبرني يـا يونس هـل أتيت مـن المغـرب إلى مصر لكـي تقابلني خصيصًا أم أن الأمر محض مصادفة؟..»

«بالطبـع يا صديقي لقد أتيت إلى مصر خصيصًا لرؤيتك، ولكن في نفـس الوقت أتابع بعض الأعـمال».. وأخذ يضحـك ببلاهة.. وهانز بجواره لا يفهم من حديثهما شيئًا ولكن يضحك على ضحكهما.. تابع مدحت أسئلته الفضولية:

«كيف علمت مكاني هنا؟.».

«..أنـا ذهبت لمنزلك بالقاهـرة فأخبروني أنك في واحـة الفرافرة.. فسـافرت إلى هناك وبحثت عن منصور البدوي الذي كان يصاحبنا في الماضي، ولكني وجدته توفي -رحمة الله عليه- ولكن لحسن حظي كان ولده يعلم بوجودك بهذا المكان وهو الذي اصطحبنا إلى هنا»..

..أطل مدحت برأسه إلى خارج النافذة ليرى السائق بالسيارة الثانية فأشار إليه بيده، وبادله السائق تحيته.. ثم عاد إلى يونس وأخذ يحدثه..

«أخـبرني.. ماذا تريد مني يا صديقي؟ مـا الذي جعلك تقطع تلك المسـافة الكبيرة للغاية وتحضر هذا الأجنبي معك؟ بالتأكيد هناك شيء مهم خلف ذلك..»

«أنـت شـخص ذكي ولماح كـما عهدتك يا مدحـت.. بالفعل هناك شيء مهم أريد أن أخبرك به.. ولكن لا أفضل أن نتحدث الآن وبطني يزقزق شـنبوره أو كـما تقولون عصافيره.. لنـأكل أولًا، لقد أحضرت بعـض الطعام معي من الواحة لكي نأكل في الهواء النقي هذا والطبيعة الخلابة تلك»..

نظر مدحت في سـاعة يده وتحدث إليهما.. حسـنًا لقد اقترب الليل مـن الهبوط.. لنُقِـمْ مخيمًا هنا الليلة ونتحدث معًـا حتى الصباح.. فلقد

أوحشتني جلساتك وتندراتك.. أريدك أن تخبرني عن أخبار منتخب المغرب وماذا فعل في كأس العالم في المكسيك.. أنا لم أتابع الأخبار للأسف».. رفع يونس يده فرحًا: «أووه.. لقد حققنا إنجازًا تاريخيًّا يا صديقي بتصدرنا المجموعة السادسة على حساب منتخبات قوية مثل المنتخب الإنجليزي والمنتخب البرتغالي، وبلغنا دور ثمن النهائي كأول منتخب عربي وإفريقي يصل إلى هذا الدور، وواجهنا منتخب ألمانيا الغربية».. أومأ يونس برأسه عابسًا: «ولكننا انهزمنا بصعوبة شديدة بهدف من ركلة حرة غير مباشرة نفذها لوثر ماتيوس بطريقة مباشرة، وخرج المنتخب المغربي مرفوع الرأس.. سوف أسرد لك كل شيء، ولكن بعد أن نتناول الطعام أولًا».. وأشار إلى الأجنبي بجواره: «هانز أكيد يسب أبوينا الآن لعدم تناوله الغداء حتى الآن!!».. أخذا يضحكان وهانز يضحك معهما وهو لا يفهم شيئًا.. ثم ترجلا من السيارة وأخرج مدحت معدات التخييم من صندوق سيارته وبدأ في تجهيز مخيمهم الليلي، وانضم إليهم البدوي سائق سيارة يونس في إعداد المخيم.. مرت عدة ساعات وهبط الليل فوق رءوسهم وتجمعوا على نيران مخيمهم وهم يصنعون الشاي بالطريقة البدوية، وأخذا يتناولان الحديث مرة أخرى ولكن بالإنجليزية حتى يشاركهما هانز في حديثهما ولا يفهم السائق البدوي ماذا يقولون.. أخذ الجميع يرتشف من أكواب الشاي الساخنة وفوق رءوسهم تلمع حبات النجوم المتناثرة على أركان الأثير.. أخذ الجميع متكأه على سجيته بأوضاع أكثر أريحية عدا هانز الذي كان يجلس بوضع أكثر لياقة من الجميع.. أخذ مدحت يتطلع إلى السماء وهو يكاد ينشغل عن العالم بهذا المشهد البديع في

وسـط الصحراء والسـكون البديع الذي جعل الارتخاء يسري بجميع أنحاء جسـده وكاد يستسلم للطبيعة وقوتها وينغمس في أحشائها لولا فضوله الشديد الذي كان يبعث برسائل كثيرة لعقله كل بضع لحظات أهمهـا: ما الذي أحضر يونس من المغرب بعد خمس سـنوات لكي يراه هنـا في الصحراء البيضاء؟! لم يتمالك نفسـه وهـو يرى يونس يضحك ويقهقـه معه هانز وهمـا يتجاذبان أطراف الحديث وبجوارهما السـائق البـدوي يضحك على ضحكهـما فقط دون أن يفهم شـيئًا من حديثهما الإنجليزي.. فأطلق لجام لسانه في الحال موجهًا سؤاله المباشر القاطع:

«ما الذي أحضرك من المغرب لكي تقابلني هنا الآن يا يونس؟..»

نظر إليه يونس مبتسـمًا»: جيد لقد كدت أن أنسـى.. سوف أخبرك يا صديقـي.. ولكـن يجب أن أذكرك بصداقتنـا القديمـة التي امتدت لأكثر من 15 عامًا وأحلفك بها على أن ما سـوف أخبرك به الآن سوف يكون طي الكتمان بيننا نحن الثلاثة.. أنا وأنت وصديقي هانز..»

شـعر مدحـت بالقلق من حديـث يونس: «ماذا هنالـك يا يونس؟ ماذا حدث؟ هل هناك شيء خطير؟»..

«لا تقلـق يـا مدحت.. الأمر ليس بالشيء الخطـير ولكنه أمر سري للغاية.. أنت تعلم أني أعمل بتجارة قطع غيار السيارات»..

أومـأ مدحت بالإيجـاب: «نعم أعلـم ذلك.. ولقـد تعرفت عليك بمصر عندما كنت تمارس تجارتك هنا وصرنا صديقين بعد ذلك.»..

«نعـم، ولكني أخبرتـك أيضًا بأني أمارس مجالًا آخـر مربحًا للغاية ولكنه نادر وليس دائمًا.»

أخـذ مدحـت يخبـط جبهته بيـده وهـو يحـاول أن يتذكـر: «نعم.. اممـم.. تلـك الــ.. مـاذا كان اسـمها؟ لا أتذكـر ولكنها كانت شـيئًا عن الصخور..»

أخذ يونس يقهقه بشدة.» .صخور.. هههههه.. هل هناك من يتاجر بالصخور؟! اسمها تجارة النيازك.. نعم إنها صخور..» وظل يضحك وهو يتابع حديثه مشيرًا إلى السماء: «لكنها قادمة من الفضاء»..

لوَّح مدحت بيده وهـو يدافع عن رأيه: «إذًا بالنهاية هي صخور.. أنت أخبرتني عن هذا الأمر من قبل ولكني لم أكن مهتمًّا كما تعلم.»

«إذًا أنصـت إليَّ جيـدًا.. النيـازك تلـك علـم كبير ومنتـشر في جميع أنحـاء العـالم، ولكـن باختصـار هي صخـور من معـادن مختلفـة مثل الحديـد والنيـكل وغـيره.. تكون على حجـم كبير في الفضـاء، وتمر في طريقهـا جهـة الأرض فتسـحبها جاذبيـة الأرض إلى داخـل الغـلاف الجـوي فيحـترق معظمهـا ويكوِّن الشـهب التـي نراها دائـمًا بوضوح بالليـل لكـن في بعـض الأحيان يكـون حجمها أكبر قليـلًا ولا تحترق بالكامـل وتسـقط في الصحراء على الأرض، وهنـا تكون تلك النيازك كنوزًا بالنسـبة لنا أنا ومن يعملـون بهذا المجال غيري؛ لأن بعض تلك النيـازك تحمـل بين طياتهـا معادن نـادرة الوجود عـلى كوكب الأرض فتبـاع بالجـرام وتكون أثمـن من جرام الذهـب.. وتتحـدد قيمة تلك النيازك تبعًا لعاملين دائمًا.. الأول مدى ندرة وجود المعدن على كوكب الأرض.. والثاني -وهو الأهم- متى سـقط على كوكب الأرض؛ لأنه عند مرور سـنوات كثيرة يبدأ النيزك بفقدان عوامله الفضائية النادرة،

ويصبـح صخرًا أرضيًّا عاديًّا ليسـت له قيمـة؛ ولذلك نبحث دائمًا عن النيازك التي هبطت منذ زمن قريب على كوكب الأرض؛ لأن سماسرة النيازك وتجارها قد يشترون الأونصة الواحدة منه بسعر يزيد 10 مرات على سعر الذهب.. وأنا أعمل بذلك المجال منذ زمن بعيد، وأصبحت الآن خبيرًا بأنواع تلك النيازك والصخور، وعلى معرفة بجميع العلماء والتجـار الباحثين عنها بكل أنحاء العالم وأصبحت مدينتي الرشـيدية قبلة لجميع الباحثين عن النيازك في أنحاء العالم أجمع»..

أخـذ مدحت يحرك كفيه مسـتفسرًا..» لقد أخبرتني بذلك أكثر من مـرة وأخـذت تتفاخر بأنـك خبير يا سـيدي الخبير.. أنـا أعلم ذلك.. أخبرني بالإفادة.. لماذا أتيت إلى مصر؟ ولماذا تبحث عني؟.».

«أعتقـد أن الموضـوع أصبـح معلومًـا لديك.. لقد وجـد أحد بدو الصحـراء هنـا في مـصر عـدة صخـور نيزكية وقـام بإرسـالها إلى أحد السماسرة الذي أرسلها بدوره إلي.. وحينها لمحت بعيوني الخبيرة قطعة حجر صغيرة لا يتعدي وزنها 6 جرامات لونها أبيض ناصع وملمسـها بارد ومختلف وصلبة للغاية.. شيء لم أرَ مثله من قبل.. لهذا قمت بعزل تلـك الصخرة عن قريناتها، وقمـت بمحاولة بيعها منفردة، وعرضتها عـلى أكثـر من عـالم وتمنعـت ببيعهـا إلى أن حصلـت على عـرض مُغرٍ بالنهايـة 200 دولار لتلك الصخرة.. وتعتـبر تلك الصخرة أغلى شيء قمت ببيعه في حياتي كلها نظرًا لحجمها الصغير..»

أخـذ مدحـت يصفـر متعجبًـا: 200 دولار بقطعـة صخـر!! هـذا شيء عجيـب.. أقولهـا لـك وبكل فخـر.. إنـك اسـتطعت أن تبيع له العتبة الخضراء..»

ضحـك يونـس: «العتبة الخـضراء؟! هل تراني إسـماعيل يس رحمه الله؟! «وأخذ الجميع يضحك، وأخذ البدوي يضحك معهم هو وهانز دون أن يفهما شيئًا مما يقولانه.. ثم أخذ يونس يحدثه بجدية:

«انتظـر يا صديقي لكي أخبرك الأغـرب؛ فقصتي لم تنتهِ بعد.. لقد عاد إلي أحد التجار ليطلب مني أن أحضر له أي حجر مشـابه للحجر الـذي قمت ببيعه في مقابل 500 دولار في الجـرام الواحد.. هل تتخيل 500 دولار في حجـر مثل الذي كان معي كان سيكسـبني 3000 دولار بصفقة واحدة.»

ظـل مدحـت ينظـر إليـه مندهشًـا: «3000 دولار!! مـا كل تلـك الأمـوال؟! الـدولار بــ2 جنيـه الآن.. يعنـي هـذا الحجـر الصغـير يسـاوي 6000 آلاف جنيـه.. أنا لم أبع لوحه بحيـاتي كلها أكثر من ربع هذا المبلغ!!»..

ضحك يونس: «لا لم تنتهِ الحكاية بعد.. فمازالت في بدايتها.. عندما وجدت هذا الرجل يريد أن يحصل على مثل هذا الحجر بيأس أومضت عيـون التاجـر بداخـلي، وقـررت أن أماطلـه وأبحث أنـا بنفسي عمَّن يشتري هذا الحجر، وبالفعل بعد مجهود شاق وعدة أسابيع وصلت إلى السيد هانز جرلي وأصدقائه «.. وأخذ يشير بيده إلى هانز بجواره الذي ابتسم إليه وهو يومئ برأسه مصدقًا على حديثه..

سأله مدحت في الحال: «هل مستر هانز تاجر نيازك أيضًا؟»..

يونس ساخرًا وهو يومئ برأسه نافيًا: «لا.. مستر هانز جرلي عالم فيزياء ولا يعلم أي شيء عن علم النيازك أو يفقه شيئًا به»..

مندهشًا: «وما علاقة عالم فيزيائي بتلك الصخرة إذًا؟»..

أشار يونس بسبابته اليمنى وهو جالس جهة هانز: «هنا سأدع السيد هانز يشرح الأمر بنفسه لك؛ فأنا لن أستطيع أن أُفهمك؛ لأني أفهم بالكاد ما قاله»..

أخذ هانز نفَسًا عميقًا وعيون الجميع ترقبه.. مدحت متحفز ويونس متابع والبدوي يشعر بالجدية بحديثهم ولكنه لم يفهم أي شيء فأخذ يصب لهم أكواب الشاي مرة أخرى.. فتابع هانز حديثه وهو ينظر إلى مدحت: «هل سمعت عن مختبر سيرن سيدي؟».

أخذ مدحت يهز رأسه نافيًا: «لا لم أسمع عنه في حياتي.. أنا آسف»..

أشاح هانز إليه بيده مداعبًا: «لا تقلق فجميع من لا يهتم بالفيزياء لم يسمع عنه.. سيرن CERN هو اختصار لـ المنظمة الأوروبية للأبحاث النووية، وهو يقع على الحدود بين سويسرا وفرنسا، وهو مختبر مختص بعلوم الفيزياء والطاقة النووية وما يشابهها.. وأنا أعمل باحثًا هناك منذ سبعة أعوام.. بدأت أنا وزملاء لي في العمل على مشروع جديد تمامًا ويطرح بشكل علمي للمرة الأولى ولكن قبل أن أخوض به هل عندك خلفية عن شيء يدعى المادة المضادة؟. «

مندهشًا: «مادة ماذا؟» .. أجابه سريعًا: «المادة المضادة antimatter»..

«لا لم أسمع عنها من قبل في حياتي..»..

«حسنًا سوف أضطر أن أشرح لك الأمر من بدايته، ولكن أتمنى أن تركز بشدة معي؛ لأن هذا الأمر مهم للغاية..»..

اعتدل مدحت في جلسته وأصغى باهتمام، بينما البدوي ينظر إليهم باهتمام أيضًا على الرغم من عدم فهمه شيئًا ممَّا يدور حوله، وأخذ يونس يبتسم وهو يلاحظ علامات تصنع الاهتمام على وجه البدوي الشاب.. شبك هانز كفيه أمامه وأخذ يشرح لمدحت باهتمام: «المادة هي -طبعًا- المكونة لكل شيء حولنا، ولنفترض أن المادة تمثل كف يدي اليمنى.. تلك المادة هي مكونة من ذرات، وتلك الذرات تحتوي على بروتونات وهي ذات شحنة موجبة، وإلكترونات ذات شحنة سالبة تدور حول البروتونات.. وتلك هي المادة التي خلق منها كل شيء في كوننا.. أما المادة المضادة فهي عكس المادة العادية؛ أي إنها تتكون من ذرات أيضًا ولكن يحدث العكس بداخلها بحيث تحتوي على بروتونات سالبة وإلكترونات موجبة.. وهي تشكل كونًا بأكمله مثل كوننا ولكن عكسنا؛ أي إننا أنا وأنت ويونس وهذا الشاب معنا متواجدون ومتماثلون بالضبط في المادة المضادة لكننا لا نراهم لأننا بالنسبة لهم أيضًا مادة مضادة.. هنا سوف يُطرح سؤالان في عقولنا الآن وهما: ما أهمية تلك المادة المضادة لنا كبشر؟ والثاني: ما الدليل على وجودها من الأصل؟.»

أخذ مدحت يومئ برأسه مصدقًا على قوله.. فتابع هانز حديثه.. بعد أن التقط حجرين من الأرض أسفل منهم وأمسك في كل يد

بحجر «أترى هذين الحجرين عندما أجعلهما يلامسان بعضهما البعض ماذا سيحدث؟ لن يحدث أي شيء؛ لأن الحجرين مصنوعان من المادة الطبيعية التي تكون ذراتها موجبة الشحنة وأنت تعلم أن الشحنات الموجبة أو السالبة المتشابهة تتنافر مثل المغناطيس.. لكن وليكن أحد الحجرين من المادة العادية والثاني من المادة المضادة عندما يتلامسان سوف يتجاذبان لأن أحدهما بشحنة موجبة والآخر بشحنة سالبة فيتجاذبان مثل المغناطيس، وهنا سوف يندمجان وينتج عن هذين الحجرين الصغيرين طاقة ضخمة للغاية أكثر 20 مرة من الطاقة التي يتم إنتاجها للذهاب بمركبة فضائية للفضاء.. فقط بحجرين صغيرين مثل هذين».. اندهش مدحت عند سماعه لحديث هانز الذي أخذ يكمل بعد أن ألقى الحجرين من يده: «أترى ماذا سيحدث من استخدام المادة المضادة؟ سوف تحدث ثورة تكنولوجية ضخمة، وسيتغير العالم الذي نعيش به إلى الأبد.. ولكن المشكلة هنا أن المادة المضادة هذه كانت نظرية علمية فقط ولم نجد أي صور لها في أي شكل من أشكال الطبيعة؛ ولهذا نحاول أن نصنعها في مختبرات سيرن، وبالفعل نجحنا في صنع مادة مضادة لمادة الهيدروجين بنسبة 0000000.2٪ ولكن بتكلفة خرافية تعدت ملايين الدولارات؛ ولهذا تعتبر المادة المضادة تلك أغلى مادة على وجه الأرض وفي تاريخ البشرية بأكمله..» أخذ مدحت يداعب ذقنه وهو يفكر بعمق: «هذا شيء عجيب للغاية.. العلم رائع ويتطور كل يوم.. لقد أثارت تلك المادة المضادة اهتمامي ولكن لم تخبرني ما علاقة يونس بذلك الأمر»..

أجابـه يونـس سريعًـا وهـو يعتدل بجلسـته: «هنـا نعـود إلى تلك الصخرة التي أخبرتك عنها سابقًا، فلقد تم تحليل مكوناتها في مختبرات سيرن وهنا وجدوا شيئًا عجيبًا»..

أخذ هانز يتحدث بفرح شـديد وهو مثـار ومتحمس: «لن تصدق مـا حـدث؛ فلقد وجدنا في تلك الصخرة الصغـيرة 0.3 جرام من مادة الهيدروجـين المضـاد.. نعـم الهيدروجـين المضـاد الذي تكلـف صنع 0.0000002٪ منـه ملايـين الدولارات ولم نجـده في الطبيعة أبدًا.. لقد وجدنـاه في تلك الصخرة الصغيرة وبكمية لم نكن نحلم بتصنيعها أبدًا ولكننا صرفنا ميزانيات ضخمـة.. أرأيت ما نحن بصدده؟ هذا أعظم اكتشاف علمي على وجه الأرض، سوف يغير مجرى التاريخ للأبد»..

أخـذ يونس يتابع حديثه وهو ينظر إلى مدحت: «وهنا ابتسـم الحظ لي مـرة أخرى؛ فبعد أن علمت بأهمية تلك الصخرة اتفقت مع السـيد هانز على أني سأبحث عن أي مواد مثلها مرة أخرى، وسوف أبيعها له بمبلغ جيد للغاية.. أنا أحب العلم بالفعل.. لكني أعشق النقود.».

أخـذ مدحـت يضحـك مـن حديثـه.» .ومـن الـذي لا يعشـقها يا صديقـي؟! فهي لغة العصر الآن.. ولكن كيف سـتحصل على مثل تلـك الصخـرة؟ فأنت أبلغتنـي بأن تلك الأشـياء نادره لا نها تسـقط من الفضاء»..

« نعم هذا شيء نادر للغاية ولكني اندهشت من شيء أبلغني به مستر هانـز وزمـلاؤه، وهو أن ذلك الحجر ليس مـن الفضاء؛ بل إنه أرضي؛ لأن خصائصه أرضيه وليست فضائية مثل النيازك التي تسقط عادة من

الفضاء، وكان لهذا شـيئًا عجيبًا؛ لأننا بالفعـل لم نجد أي صخرة بمثل تلـك الخصائص من قبـل فهي نادرة للغاية.. وهنا أثـار الأمر اهتمامي أكثر وأخذت أبحث عن وسـطائي وعملائي حتى استطعت الوصول إلى الشخص الذي وجد تلك الصخرة واسمه سلمان الجهني، وعلمت أنه من قبيلة مشـهورة تسـمى جهينة، وذهبت إليه وطلبت منه دون أن أبـدي اهتمامـي بالصخـرة البيضـاء بعض الصخـور ومنهـا الصخرة البيضـاء، وأخـبرني أن الصخرة البيضاء موجـود مثلها صخرة بحجم كبـير إذا رغبت لكنها بداخل كهف ناءٍ، وله فتحة صغيرة، وأنه حاول أن يخرج الصخرة فلم يسـتطع، وحاول أن يقسمها إلى قطع أصغر فلم يسـتطع؛ لأنها صلبة للغاية، وكل ما وجده هي تلك الشـظية الصغيرة التـي اسـتطاع أن يجدهـا بجوارهـا.. هنا لم أسـتطع أن أخفـي فرحتي ولعبـت الأموال برأسي فطلبـت منه أن يبيعها لي وأن يرشـدني لها وأنا سوف أعطيه مبلغ 5000 دولار.. رقص الرجل طربًا واتفقنا أن نتقابل بعد أسـبوعين ذهبت خلالهما للاتفاق مع مختبر سيرن على مبلغ أتعابي، وطلب السيد هانز أن يحضر معي لكي يتأكد من أن تلك الصخرة هي المطابقـة للصخرة السـابقة.. ونظرًا لأن هذا الأمـر كله في مصر أردت أن أحـضرك معي لأنك صديقي المغامـر الرائع وأدعوك للذهاب معنا لكي نعيد مغامراتنا السابقة التي كنا نقوم بها في جبال الطور وفي ربوع سيناء، وفي نفس الوقت تحصل على مبلغ مالي جيد.. ولهذا أنا هنا الآن يا صديقي.. أخبرني ما قولك؟..»

أخـذ مدحـت يفكر قليلًا ثم ابتسـم: «مـاذا تنتظر منـي أن أقول.. لم تعلـم كـم كانت حياتي رتيبة منذ أن سـافرتَ إلى المغـرب يا يونس.. هـل تعتقـد بأن مدحت فراج سـوف يرفض عرضًا لمغامرة شـيقة مثل ما قلته لي الآن؟! أنا معك بكل تأكيد».

«كنـت أعلم بأنك لن تتردد في خوض تلك المغامرة معي.. سـوف نستعيد أيامنا القديمة مرة أخرى يا صديقي.. حسنًا غدًا صباحًا سنعود إلى الفرافرة ونحضر طعامًا ومسـتلزمات سـفرنا ثـم نذهب إلى كهف السباحين يوم الخميس لنقابل سلمان الجهني ليصطحبنا إلى مكان تلك الصخرة.. ولكن حذارِ أن يتفلت لسـانك بأي شيء عن ذلك الأمر.. فلا يوجد مخلوق يعلم عن تلك الرحلة كاملة إلا أنا وأنت ومستر هانز وسلمان فقط»..

ابتسـم مدحت وهو سـعيد ومتحمـس للغاية ممَّا سـمعه منذ قليل وكيـف بعـث القـدر لـه مغامـرة شـيقة في طريقه مـن جديـد، وأخذا يتسـامران طـوال الليل ويتحدثان عـن كأس العالم ومـا حققه المغرب مـن إنجاز، وعن الاسـتفتاء الرئاسي المصري وفوز مبارك بنسـبة 97٪ من عدد الأصوات واسـتمراره في الحكم لفترة ثانية على الرغم من أنه أعلـن من قبل أنه لن يترشـح لفترة ثانية.. وأخـذا يضحكان ويتندران لفترة طويلة..

❋ ❋ ❋

(تحت الركام)

عـاد الجميـع معًا إلى واحـة الفرافـرة وأخذوا يسـتعدون لمغامرتهم القادمة في كتمان شـديد؛ فقاموا بجمـع الكثير من المياه العذبة والطعام ومسـتلزماتهم وتوجهـوا إلى جهـة الكهـف لمقابلة مرشـدهم البدوي سـلمان الجهني.. انطلقوا إلى كهف السـباحين الذي اشتهر بهذا الاسم نظرًا لوجود رسـومات لأشخاص يسبحون نقشت على الصخور منذ أكثر من 10.000 سنة مضت.

وكهـف السـباحين هـو كهـف يقـع في هضبـة الجلـف الكبـير في الصحـراء الغربيـة بداخل محافظـة الوادي الجديـد جنوب غرب مصر بالقرب من الحدود مع ليبيا، وقد تم اكتشـاف الكهف في أكتوبر 1933 من قِبل المستكشـف المجري لازلو ألماسي.. انطلق الجميع بسـيارة دفع رباعـي بيضـاء ومحمل فـوق شـبكتها الكثير مـن الحقائـب والمعدات التـي يحتاجونهـا، ووقفوا على بعد 100 متر تقريبًا من كهف السـباحين الـذي كان بداخلـه بعض الأجانب يشـاهدون محتوياته بانبهار شـديد ويتهامسـون مندهشـين مـن روعتـه.. وقـف هانز ومدحـت ويونس بداخـل الكهف الـذي كان عبارة عن تجويف بصخـرة ضخمة للغاية ومرسـوم على حوائطه باللون الأحمر رسـومات لأشـخاص يسبحون ويطاردون أسماكًا أو حيتانًا؛ ولذلك أطلق عليه اسم كهف السباحين.

وقف الجميع يشـاهد بانبهار تلك الرسومات البدائية الرائعة التي تعـدى عمرهـا ما لا يقـل عـن 10000 عـام وكان أكثرهم انبهـارًا هو مدحـت فراج بالطبع؛ لأنه فنان قلبًا وقالبًـا، وانبهر من درجة الألوان التـي ما زالت متماسـكة متحدية عوامل الزمان والمكان، وأخذ يسـبح مـع السـباحين على الحوائط وهو يرسـم في مخيلته مـا كان يفعله هؤلاء المصريون منذ آلاف السـنين وما جعلهم يرسمون بحارًا وأسماكًا وهم في قلب الصحراء الغربية.. إذًا كان هذا المكان بالقرب من بحار أو مجارٍ مائيـة في ذلك الوقت.. وراح يأخذه خياله ليغوص ويغوص ويغوص في أعماق الكهف وحوائطه.. ولم يخرج من حالة انبهاره تلك إلا عندما نكزه يونس بكتفه وهو يشـير إليه ويعرفـه برجل بجواره علم مدحت على الفور أنه سليم الجهني من ملابسه وملامحه البدوية المعتادة.. فقام مدحـت بتحيتـه سريعًا وبادله سـليم تحية باردة، وفعـل ذلك مع هانز أيضًـا، وأخبرهم بلهجة آمرة بأن يتبعـوه.. فخرج الجميع خلفه سريعًا وسـألهم عن سـيارتهم فأشـاروا له إلى مكانهـا فذهب إليهـا في الحال، وأخبرهـم بأنه سـوف يقود السـيارة لأنه هو الذي يعـرف وجهتهم.. ترجم يونس حديث سـليم إلى هانز ثم دلفوا جميعًا إلى داخل السـيارة، وقبـل أن ينطلقـوا نظر سـليم خلفه وهو يضع يده على مقود السـيارة: «هـل أحضرتم النقود؟» ابتسـم يونس وتوجه بحديثـه إلى هانز الذي كان يجلـس بجـوار سـليم بالمقعـد الأمامـي بالإنجليزية:» سـيد هانز سليم بجوارك يخبرني بأن هناك رائحة كريهة تنبعث منك ويسألك هل اسـتحممت من قبل؟» نظر هانز بغضب شديد إلى سليم بجواره وهو يصرخ به غاضبًا ويصب عليه جام غضبه بالنرويجية.. وسليم ينظر إليه

مندهشًا من رد فعل هانز الغريب بجواره فتحدث إلى يونس متسائلًا «لماذا يصرخ هذا الأجنبي الأحمق هكذا؟»..

فلم يستطع يونس أن يكتم ضحكه الشديد ومدحت ينظر له مندهشًا ممَّا فعله.. أخذ يونس يخبر سليم وهو يمنع ضحكاته بصعوبة: «إنه يخبرك بأن مبلغ 5000 دولار كثير للغاية وأنك لا تستحق كل ذلك المبلغ»..

نظر سليم غاضبًا إلى هانز وهو يصرخ به: «هكذا.. أترون ما أطلبه كثيرًا؟ إذًا فلتذهبوا للبحث أنتم في الصحراء بمفردكم أيها الملاعين».. وقفز إلى خارج السيارة غاضبًا وأغلق الباب بقوة وعنف، فتحدث هانز إلى يونس غاضبًا: «إلى أين يذهب ذلك البدوي اللعين؟..» أجابه يونس ضاحكًا: «يقول إنه لن يستطيع القيادة وأنت بجواره نظرًا لرائحتك الكريهة».. هبط هانز من السيارة في الحال وهو غاضب بشدة ويصرخ بالإنجليزية المختلطة بالنرويجية على سليم الذي نظر إليه غاضبًا هو أيضًا وأخذ يصرخ عليه بالعربية وكلاهما لا يفقه حديث الآخر.. أخذ يونس يضحك بشدة وهو يشاهدهما يتبادلان الصراخ.. سأله مدحت مندهشًا: «لماذا فعلت ذلك يا يونس؛ هل جننت؟ لقد جعلت الاثنين غاضبين للغاية».. ابتسم له يونس في ثقة: «لا لم أجن بل لقد فعلت الشيء الصحيح.. هكذا لن يكون هانز وسليم على وفاق، ولن يحاول هانز أن يتفاوض مع سليم من خلف ظهرنا.. وسليم أيضًا عندما يجد أن المبلغ الذي طلبه قد يصنع مشاكل معنا.. لن يقوم بابتزازنا لكي يأخذ مبلغًا أكثر ممَّا اتفقنا عليه معه لكي

يرشـدنا إلى مكان الصخرة».. نظر إليه مدحت مندهشًـا باسمًا: «يا لك مـن داهيـة! إن ما فعلته لا يقدر على صنعه الشـيطان».. ابتسـم يونس ساخرًا: «بالطبع.. فالشيطان لم يعمل بالتجارة يا صديقي.»

وهبط يونس من السيارة سريعًا وأخذ يتحدث إلى هانز بالإنجليزية: «مستر هانز لا تأخذ على حديثه فإنه بدوي لا يفقه معنى رائحة العطور الفاخرة التي تضعها.. فلتجلس أنت بجوار مدحت في السيارة بالخلف وسـوف اجلس أنا بجواره ..»اعترض هانز غاضبًا على إهانته.. فتابع يونـس حديثـه إليه: «مسـتر هانـز هذا شيء قليل بالنسـبة للاكتشـاف العظيـم الـذي سـتجده.. ألم تخبرني أنه سـيغير العـالم؟ ألا تضحي من أجـل تغيير العالم؟ اجلـس في الخلف ولا تتعامل معـه مطلقًا واتركني أنـا أتعامل معه».. أخذ هانز نفَسًـا عميقًا وهو يحاول اسـتعادة هدوئه واتجه إلى مدحت الذي كان يشاهد يونس وهو يتجه سريعًا جهة سليم ويحدثه مبتسـمًا: «لا تقلق يا حاج سـليم.. لقد اتفقت مع هذا الأجنبي البخيـل على الأمـر وسـوف يعطيـك 5000 دولار كما اتفقنـا.. ولكن لا تنـسَ أن هذا المبلغ ضخم للغاية وأنـت تعلم ذلك».. ثم وضع يده في جيبه وأخرج رزمة من النقود وأعطاها لسليم: «أمسكْ 2000 دولار بـين يديـك الآن.. والثلاثة الباقية بعد أن نعـود معًا ومعنا الصخرة.». ابتسـم سليم وأخذ يعد النقود بفرح شـديد، وعندما انتهى عاد سريعًا إلى مقعد السـيارة وانتظر جلوس يونس بجواره الذي نظر إلى مدحت وهو يرفع إبهاميه الاثنتين بعلامة أوكيه مبتسمًا، ثم جلس بجوار سليم الذي انطلق في الحال إلى جهة غير معلومة للجميع سواه..

انطلـق الجميـع في السـاعة الواحـدة ظهـرًا تقريبًـا.. انتابهـم الحر الشـديد، والهواء الساخن يلفح أجسـادهم، وأخذ مدحت يخرج علبة سجائر جيتان التي اكتسبت شهرة كبيرة في مصر حينما أعلن عنها عمر الشريـف منذ خمس سـنوات مضـت، وأخذ يوزع بعضهـا على يونس وسـليم وهانز فقبلها الجميـع ولكن اعتذر هانز وأخرج سـجائره من علبتـه، وأخذ الجميع ينفث قلقه وتوتره مع أنفاس السـيجارة.. مرت 4 سـاعات كاملـة وهـم بطريقهـم لا يشـاهدون إلا الكثبـان الرمليـة والصخـور في كل مـكان وينتظـرون أن يصلـوا إلى وجهتهم، ولكنهم لم يكونوا على علم بنية سـليم ألا يذهب بهم إلى ذلك المكان هذا اليوم؛ فلقـد أخذ يـدور بهم بأنحـاء الصحراء التـي يحفظها عـن ظهر قلب؛ لكي يجعلهم يشـعرون بأن المكان بعيـد للغاية عنهم، ولكي لا يحاولوا معرفـة الطريـق إلى كنزه المخفي.. وظل يدور ويـدور بالصحراء حتى حـل الليـل عليهم فأخبرهم بـأن يتوقفوا في مكان قريـب لكي يخيموا لأنه لا يحبذ السـفر في أنحـاء الصحراء بالليل.. تنـاول الجميع الطعام وأخذوا يرتشـفون أكواب الشاي ولكن سـليم لم يتحدث معهم كثيرًا ولم يكن ودودًا إليهم.. شـعر الجميع بتعب السـفر ينهش بأجسادهم، وغـط الجميع في النـوم بالقرب من السـيارة ونيران المخيـم بجوارهم حتـى تمنـع الحيوانات المفترسـة مـن الاقـتراب منهم.. مـع أول بزوغ لضوء الفجر كان سـليم في عز نشـاطه وقام بإيقاظ الجميع من نومهم وتناولوا الإفطار وارتشـفوا الشـاي، ولم تكن الساعة تعدت السادسة صباحًا إلا والجميع منطلقون بالطريق مرة أخرى.. لم تمر نصف ساعة تلك المرة حتى توقف سليم بالسيارة بأعلى تل مرتفع عن الأرض قليلًا

وخرج من السيارة وهو يحدث يونس: «لن نستطيع التقدم بالسيارة أكثر من ذلك؛ لأن هناك الكثير من العوائق بطريقنا، فلتأخذوا بعض الأشياء التي سنحتاجها معنا في الكهف».. حمل الجميع بعض الأشياء التي يحتاجونها، وحمل مدحت أدواته: الفُرَش والألوان وبعض الاسكتشات الورقية والأقلام ودقات قلبه تكاد تُسمع الحاضرين بجواره من الإثارة والتشوق لما هو قادم.. حمل سليم بعض المياه والطعام معه وتقدم الطريق أمامهم.. الساعة اقتربت من السابعة والنصف تقريبًا عندما وصلوا إلى مقصدهم، فقد هبطوا منحدرًا رمليًّا كبيرًا وتقدموا إلى جهة جبل صغير أمامهم محاط بالكثبان الرملية الكثيفة.. توقف أمامهم سليم فجأة وهو يبتسم ثم أدار ظهره لمرافقيه وحدثهم بثقة: «لقد وصلنا بالسلامة»..

أخذ الجميع ينظر إليه مندهشين كيف وصلوا.. إنهم يقفون أمام كتلة صخرية في وسط الرمال ولا يوجد أي أثر لأي كهف أمامهم.. فقال يونس: «وصلنا إلى أين؟ أين الكهف الذي حدثتنا عنه؟!»..

ابتسم سليم بثقة شديدة وأشار إليه بجانب رأسه وهو يهم بالمغادرة: «هيا اتبعوني».. تبعوه في الحال وهم يشعرون بالفضول من ثقته الغريبة تلك.. أخذ سليم يتحرك مسافة أربعة أمتار تقريبًا من يمين المنطقة الجبلية بين الرمال وتوقف أمام صخرة بحجم متوسط.. ثم ترك الأمتعة التي يحملها بيده بجوار الصخرة، ثم قام بزحزحتها بصعوبة والجميع يراقب ما يفعل.. في خلال دقائق أزاح تلك الصخرة إلى اليسار قليلًا ليظهر خلفها تجويف مظلم في نهاية تلك الكتلة

الصخرية بعرض متر تقريبًا وارتفاع خمسين سنتيمرًا، فابتسم سليم وهو يشير إليهم بيده: «ها هو مدخل الكهف.. أنا أغلقته في السابق حتى لا تسكنه الضباع والذئاب، فقد اكتشفت ذلك الكهف عندما كنت أطارد أحد الضباع ووجدته يتخذ هذا الكهف مسكنًا له»..

طلب هانز من يونس أن يترجم له ما يقوله سليم، فترجم له حديثه، بينما سأل مدحت سليم مندهشًا: «أتصطاد الذئاب والضباع؟ هل تستطيع صيد تلك الكائنات المفترسة؟».. ابتسم سليم بثقة: «أنا سيد تلك الصحراء.. أستطيع العيش هنا لسنوات إذا رغبت بدون أي طعام أو شراب؛ لأني أستطيع الحصول عليهما من الصحراء»..

نظر الجميع إلى سليم بانبهار؛ حتى هانز الذي كان يشعر بالاندهاش من سليم ولكنه في نفس الوقت كان ساخطًا عليه لإهانته إياه كما أخبره يونس من قبل.. لاحظ سليم نظرات الإعجاب في عيون مرافقيه فضحك مفتخرًا وحدثهم بثقة: «انتظروني قليلًا.. سوف أدخل إلى الكهف الآن لكي أرى هل هناك أي ضوارٍ أو ثعابين.. وعندما أنتهي سأخبركم لكي تدخلوا أنتم أيضًا.»

ثم قام سليم بالزحف على بطنه ويديه لكي يدخل الكهف وهو يسمي الله ويحوقل، وأخذ معه قطعة خشبية بين يديه وبها خيش مغطى بالزيت قابل للاشتعال.. خلال دقيقة واحدة كان سليم قد اختفى من أمامهم.. مرت لحظات ثم أطل عليهم برأسه من جديد وهو متسخ للغاية ويخبرهم بأن يدخلوا خلفه، ثم اختفى بالداخل مرة أخرى.. انتابت الإثارة قلوب الجميع، وتدفق الأدرينالين إلى أجسادهم؛ فتلك

لحظة الحسـم.. بالنسـبة ليونس هذا موعد النقود، ولمدحت هذه روح المغامـرة والاستكشـاف، أمـا لهانز فهـذه ثـورة العلم.. كانـت دوافع الجميـع مختلفة ولكن هدفهـم واحد.. تقدم يونس في الحال وهو يحمل المعدات وأنزلها من على ظهره وكتفيه وأخبر يونس بأن يلتقط الأدوات منه، وأخذ يرسلها إليه دفعة دفعة وسط الظلام، ثم زحف على الأرض بملابسه ودلف إلى داخل الفتحة المظلمة التي ما إن وطئ داخلها حتى شعر بأن بالهواء أبرد قليلًا من الهواء الساخن خلفه، ولكن هناك رائحة غريبة ليسـت محببة ولكنها ليسـت كريهة في نفـس الوقت.. تحت يديه وجسـده ملمس صخـري ونتوءات صخريـة فأخذ يتقـدم في حرص وسط كل هذا الظلام، ووجد نفسه يميل بجسده إلى الأسفل كلما تقدم إلى داخـل الكهف، ثم وجد نفسـه يسـقط عـلى الأرض فجأة بمدخل الكهف الضيق.. شـعر بالهلـع حينها ولكنه اطمأن قليلًا عندما سـمع ضحك سـليم خلفه، فنظر إليه سريعًا ليجده واقفًا أمامه يحمل شـعلة نـيران موقـدة وهو يقـف بمنتصف الكهـف ويحدثـه: «ههههههه لقد سـقطت.. قف.. قف.. فما يسقط إلا الشـاطر».. وقف يونس بسرعة بعد أن اطمأن وأخذ ينفض ملابسه من الغبار والرمال التي علقت بها.. ثم سمع صوت سقوط مدحت وسقوط هانز خلفه فأخذ يضحك من مشـهدهم هو أيضًا مثلما فعل سـليم.. أعطى سـليم الشعلة ليونس ثم قـام بفتـح إحدى حقائبه وأخرج منها شـعلتين أخريين وأشـعلهما من الشـعلة الأولى، وأعطى واحدة لمدحت وأخذ الأخرى ولم يعطها لهانز الـذي ظل ينظر إليـه مغتاظًا.. نظر مدحـت إلى الكهف لأول مرة بعد أن أصبحت الإضـاءة جيدة قليلًا فوجده كبيرًا؛ تقريبًا بعرض 20 مترًا

وارتفـاع 5 أمتـار.. اقترب مدحت مـن حوائط الكهف منبهـرًا عندما رأى رسـومات عـلى الحائط.. رسـومات كثيرة باللـون الأحمر لأناس يرقصون ويلهون مع الحيوانات والكثير من الأيدي الصغيرة للغاية في كل مكان تشبه أيدي الأطفال، إلا أن بعضها كان صغيرًا للغاية أصغر مـن أيدي الأطفـال.. ووجد بعض الحيوانات المرسـومة بلا رءوس.. أخـذ مدحت ينظر متحمسًـا للغايـة وبجواره يونس وهانز يشـاهدان الرسـومات بانبهـار، وسـليم يشـاهدهم ويضحـك.. أخـذ مدحـت يصرخ بهم منبهرًا مثل الأطفال عندما يشـاهدون عصفورًا يطير لأول مرة: «أرأيتم يا شـباب.. انظروا إلى تلك الرسـومات الرائعة.. إن هذا اكتشـاف عظيم.. أتـدري ماذا سـيحدث عندما نخبر العـالم عن تلك الرسـومات والاكتشافات الرائعة؟ نحن أول من اكتشف هذا الكهف الرائـع منـذ آلاف السـنين.. إنه اكتشـاف مذهل مثل اكتشـاف كهف السـباحين في الثلاثينيات.. لقد اكتُشـف كهف مثله أو قد يفوقه جمالًا بعد خمسـين عامًا من الاكتشـاف الأول».. ابتسـم يونـس وهو يحدثه: «نعم أعلم ذلك، ولقد أحضرتك معي في تلك الرحلة لكي أرى تلك الملامح الحمقاء التي تظهرها دائمًا عندما تتحمس لشيء.. سوف نعلن عـن الكهـف للعالم بالتأكيـد ولكن بعـد أن نعثر على مـا نبحث عنه.. توجه بحديثه إلى سليم: «أين الصخرة يا سليم؟»..

ابتسـم سـليم ثم أعطى لهم ظهره وأخذ يمر من فوق صف دائري من الأحجار المتوسـطة على هيئة دائرة مكتملة بوسـط الكهف، واتجه إلى جهـة مـن أركان الكهف والـكل يتابعه باهتمام، وأخـذ يزيل رمالًا

كثيفـة مـن فوق هـذا الركن وقـال لهانز بلهجـة آمرة: فلتسـاعدني أيها الأجنبـي الغبـي.. فلم يفهـم هانز ما يقولـه.. أخذ يونس يسـاعده في إزاحة الرمال، وأخذ مدحت الشـعلتين سريعًا من يدي سليم ويونس وحملهـما خلفهما لكي ينير لهما، ووقف وراءهم هانـز يتابع ما يفعلونه، وبعد لحظات بدأت الصخـرة البيضاء في الظهور.. انتاب الجميع نوبة حماس شـديدة وأبعدوا عنها الرمال لتظهر أمامهم كاملة وهي شـامخة فوق شيء صخري عليه رسومات لبعض الأشخاص يلتفون حولها.. كانت الصخـرة الغامضة البيضاء قابعة أمامهم ومنظرها يجعل الجميع يجلهـا في احترام وتقدير، وشـكلها الأقرب إلى الشـكل الهرمي يضفي عليها هالة مقدسـة، وملمسـها البارد الغريب جعل الجميع يرغب بأن يلمسـها كل بضع لحظات ليشـعر بهـذا الملمس المعـدني الفريد.. أخذ هانز يتلمسـها وهو يضحك بشدة ومتحمس وعيونه تفيض بالدموع: «إنهـا بالتأكيد هي.. نفـس الملمس يا يونس.. نفس الشـكل والملمس ودرجـة الحـرارة.. بين أيدينـا ما ظنناه مسـتحيلًا لقـرون طويلة.. إنها لحظـة فارقة في تاريخ البشرية».. قالها هانـز بعفوية ولكنه لم يكن يعلم بالفعـل أن تلك اللحظة سـتغير حياة البشريـة إلى الأبد فيما بعد.. أخذ يونـس يربت على كتف هانز: «ليس الآن وقت العواطف يا صديقي.. هيـا بنا نخرج تلك الصخرة من هنا الآن.. ونبكي فيما بعد كما نشـاء.. سـاعدني بحملهـا».. وقـام هانز ويونـس بحملها، وكانـت مفاجأتهما كبيرة عندما وجداها ليسـت ثقيلة وحملاها بسهولة.. فصاح مندهشًا: «إنها خفيفة للغاية على الرغم من أن شـكلها لا يوحي بذلك».. أجابه سـليم في الحال: «والأغـرب من ذلك أنها صلبـة للغاية.. حاولت من

قبـل أن أحطمها لقطع أصغر فلم أسـتطع» فترجم يونس كلام سـليم لهانز الذي أخبره بأنهم يجب أن يخرجوا الصخرة الآن، وهم في معامل سـيرن سوف يستطيعون فعل ذلك بسهولة.. حاول هانز ويونس حمل الصخـرة إلى خارج مدخل الكهف فلم يسـتطيعا حيـث كان حجمها أكبر من مدخل الكهف الصغير، أخذ سليم يشاهدهم وهو يضحك.. لقـد أخبرتكـم أني لم أسـتطع أن أخرجهـا مـن الكهف ولم أسـتطع أن أحطمهـا كي أسـهِّل خروجها».. قـال يونس بضيـق: «إذًا ما العمل؟ يجب أن نخرج تلك الصخرة من هنا بأي طريقة».

ظـل مدحـت يتابعهـم دون اكتراث وهو يشـاهد الرسـومات على الحائـط بفضول ويرسـم مثلها بقلمه في الاسـكتش الخاص به.. حدثه هانـز: «يجب أن نوسـع مدخـل الكهف قليلًا حتى نسـتطيع أن نخرج الصخـرة بنجاح».. أجابه يونس سريعًا: «فكرة جيدة.. لكننا لم نحضر معاول أو شـيئًا نستطيع تحطيم الصخور به».. فتوجه يونس بسؤال إلى سـليم: «ألم تحـضر معك معاول نسـتطيع تحطيم الصخور بها ونوسـع الكهف قليلًا؟».. ابتسـم سـليم: لماذا معاول؟ أنا أحضرت معي الحل السحري لهذا».. ثم أخرج من حقيبته لفافة قماشية طويلة ثم قام بفتحها بعناية وأخرج منها أصبع ديناميت أمسـكها بيده بحرفية وهو مبتسـم: «هذا هو الحل السحري الذي أتعامل به منذ سنوات طويلة.. أستطيع أن أحـضر ما أريد من المحاجر بسـهولة وأصنع بهـا أي فتحات وبكل الأحجام بسـهولة ويسر وبمفردي وبدون مسـاعدة من أحد.. سوف أضعه بالقرب من مدخل الكهف وأفجره فنوسع المدخل قليلًا».. نظر

هانـز مصدومًا إلى سـليم وتحـدث إلى يونس: «هل يحمـل هذا الأحمق ديناميـت؟! هل أحضر معه ديناميت؟!» أجابه يونس سريعًا: «نعم».. فقفـز هانز في الحال على يد سـليم غاضبًا وانتـزع الديناميت منها وهو يصرخ بـه: «أيها البدوي الأحمـق.. هل تريد أن تنسـفنا جميعًا بحملك المتفجرات أيها المجنون؟! «ابتسـم سليم بثقة من رد فعل هانز وحدث يونـس: «أخبر هـذا الأجنبي الجبان بأني خبير في ذلـك الأمر منذ زمن بعيد، وأتعامل مع جميع أنواع المتفجرات منذ أن كنت صغيرًا فقد كنت أعمل بالمحاجر في الجبال القريبة».. ترجم يونس حديثه إلى هانز الذي اعترض غاضبًا: «لا.. لن أسـمح بأن يحمل بدوي غير متعلم مثل هذا الغبي شـيئًا خطيرًا بيـده مثل المتفجرات.. سـوف نذهب لكي نحضر المعـاول ونحطم تلك الصخور بأنفسـنا».. ترجـم يونس حديث هانز فتأفف سليم منه ثم أجابه: «حسنًا كما تريدون.. سوف نعود مرة أخرى ونحـضر المعاول.. أنا أضع بعضها في مكان قريب على بعد 5 كيلو من هنـا.. فليعطني الديناميت لكي أضعـه بمكانه».. رفض هانز في الحال وأخذ يصرخ في يونس وهو ينظر إلى سـليم غاضبًا: « لا.. لا أأتمن هذا البدوي الجاهل على شيء خطير مثل هذا، سـوف أحتفظ به معي حتى أتخلـص منـه بالخارج.. فأنا العـالِم هنا وليس هو».. رضخ سـليم لهانز وتركـه مـع إصبع الديناميـت وأخبرهم أن يتبعوه.. وبـدأ الخروج من الكهـف وأخذ هانـز يراقبه وهـو يصعد مـن فتحة الكهـف بمهارة.. بينما مدحت منهمك في رسـم بعض الرسـومات على الحوائط.. سـأله يونس: «ألن تأتي معنا يا مدحت؟».. «لا سانتظر عودتكم هنا وأرسم قليلًا حتى تعودوا ونخرج الصخرة جميعًا».. قام يونس بإخراج بعض

الأمتعـة.. «جيد سـوف أترك لك بعـض الطعام والمياه وسـوف أعود بالمعاول قريبًا».. قام هانز بمحاوله الصعود إلى فتحة الكهف الصغيرة التي كانت تضيق كلما تقدم أكثر وأنهكت جسـده الضخم البدين وهو يحمـل إصبع الديناميت بيده اليمنى كالطفل الصغير الخائف على لعبته بينـما سـليم يقف على فتحـة الكهف ينظـر إليه ضاحكًا وهو يشـاهده يجاهد في الصعود.. ضحكات سـليم السـاخرة جعلت الدماء تغلي في رأس هانز الذي أخذ يزحف بقوة وعزم وهو يسـب سـليم بالنرويجية بأقـذع مفـردات اللغة وينعته بالبـدوي الجاهل وأنه سـوف ينتقم منه عندما يصعد.. أشار سليم إليه بأن يقذف له إصبع الديناميت بحرص حتى يسـتطيع الصعود بسـهولة ولكن هانز شعر بالغضب أكثر عندما شاهد سـليم يتندر عليه وصرخ به غاضبًا: «أيها البدوي اللعين سوف أقتلـك عندما أخرج من هنا.. سـوف أعلمك كيف تتعامل مع العلماء أيهـا الجاهل».. وضرب يده بغضب عـلى الأرض وهو يصعد دون أن يشـعر بيـده التي تحمـل الديناميت، وهنا لم يشـعر هانز بـأي شيء لأن إصبـع الديناميـت قـد انفجـرت في الحـال وتهدمت صخـور الكهف وأصبح الجميع تحت الركام..

* * *

(العائـــد)

منذ خمس سنوات وعلى شاطئ مدينة الإسكندرية المزدحم كان هناك شابان شقيقان يجلسان مع عائلتهما على رمال أحد الشواطئ العمومية تحت إحدى المظلات الكبيرة والمقاعد الخشبية بجوارهم وتجلس زوجتاهما بجوارهما تحضران الطعام للأطفال الجائعين المتخمين بالتعب من الركض تحت الشمس وفي قلب المياه طوال النهار..

الأخ الأكبر يدعى عزت فهمي، والأخ الأصغر يوسف فهمي الذي كان على الرغم من أنه يحمل لقب الأصغر ولكنه كان يحمل الجسد الأكبر والأضخم في الأسرة.. ظل يوسف وعزت ينظران إلى الأطفال وهم يلهون ويركضون حولهم وعلى القرب من الشاطئ وجميع الرواد تكسوهم حمرة أشعة الشمس التي ستتحول بعد قليل إلى سمرة مميزة تفضح صاحبها في أي مكان.. أخذت زوجة يوسف تصنع بعض الشطائر وتمررها لزوجها الذي يمررها إلى أخيه الأكبر عزت قبل أن يتناول أي شيء منها.. فهو الأحق بذلك لأنه هو الذي يقوم باستضافتهم كل عام على الشاطئ لكي يحظوا بلقب مصيفين.. فعزت يعمل بشركة بترول كبيرة منذ سنوات عديدة وعلى الرغم من وظيفته الصغيرة العادية كعامل هناك إلا أنها تدر له دخلًا جيدًا.. دائمًا ما كان

يشـارك أسرته وأسرة أخيه به.. فيوسـف بالنسبة لعزت الأخ الأصغر والابن الأول له؛ فلقد حمل مسئوليته منذ أن توفي والده وهما صغيران، وأخـذ عـلى عاتقه تربيتـه والإنفاق عليه.. ولم ينسـها له أخوه يوسـف أبـدًا.. لم ينـسَ كيف ضحى أخوه الأكبر بدراسـته وعمـل مبكرًا لكي ينفق على عائلته، ولكي يجعله هو يواصل دراسـته الطويلة ويحصل في النهاية على بكالوريوس التجارة وأصبح يعمل مُدخل بيانات في شركة جيـدة عن طريـق أحد معارف أخيـه عزت أيضًا.. وأنـه لم يبخل عليه بـشيء عندمـا أراد أن يتزوج من زميلتـه بالكلية، وبالفعـل وفر له كل شيء، ولم يجعلـه يعاني في زواجه مثل كل شـباب جيله.. كانت العلاقة بـين الاثنـين علاقة تكاملية وليسـت تقليدية.. فلا تسـمع ذكرًا لعزت بدون يوسـف، ولا ذكرًا ليوسـف بـدون عزت.. مرت السـنون وهما يعيشـان حياة جيـدة للغاية، وفي مدينة آمنة متكـاملـة كجهينة.. أنجب عزت ثلاثة أطفال: ولدًا وفتاتين، وأنجب يوسف طفلين: ولدًا وفتاة، وكان كل شيء عـلى مـا يـرام حتـى ذلـك اليـوم الـذي ذهبـا فيـه إلى الإسكندرية للاستجمام وقضاء أسبوع هناك مر منه ثلاثة أيام وأصبحوا في اليـوم الرابع.. أخـذا يتناولان الشـطائر مع أطفالهـما وزوجتيهما في أمـان وسـلام.. حتى أتـى أحمد الابن الأكـبر لعزت وأخـبره بأنه كان يلعب بالكرة مع ابنة عمه وسقطت الكرة في المياه بعيدًا، وأنه يريد منه أن يحضرها.. نهض يوسف في الحال وبنشاط شديد أخبرهم أنه سوف يذهـب ليحضرها.. أمسـك عزت بيده وهو مبتسـم وأخـبره أن ينهي الشـطيرة التـي في يـده أولًا وهو سـوف يذهب ليحضر الكـرة سريعًا وسـيعود.. امتثـل يوسـف لكلام أخيـه الأكبر فعـاد إلى مكانه وذهب

عـزت مع أحمد ليحـضر له الكرة.. أخذ يوسـف يتناول الشـطيرة تلو الشـطيرة.. ثـم أتبعها ببعـض العصائر وبعض المياه البـاردة، وأخذ في الاسـترخاء والاستمتاع بلحظات الظل، ونسيم البحر المنعش يداعب جسده وهو على الرمال.. لم يخرجه من حالة الاستجمام تلك إلا صوت أحمـد الصغـير يتحـدث بلوم: لقـد ذهب أبي ليحـضر الكرة مـن المياه ولم يعـد حتـى الآن».. أوقعـت كلـمات الصغـير تلك القلـق في قلب يوسـف الذي قفز مـن مكانه مسرعًا وهو يصطحـب أحمد ليخبره أين ذهـب أبـوه ليبحث عن الكرة وعيـون زوجته وزوجة عـزت تتبعه في قلـق.. ركض يوسـف عـلى الشـاطئ يبحث في المـاء عن عـزت بقلق شديد.. جال بعينيه متفحصًا جميع رواد الشاطئ من الشباب والأطفال والنسـاء في المـاء فلم يجده.. شـعر بفجـوة الخوف تتسـع في قلبه.. قفز بجسـده في الحال وسـط المياه يخترق الأمواج بقوة وعـزم وراح يجول بعينيـه في كل مـكان يبحث عـن أخيه فلم يجده.. أخـذ يصرخ عليه في المياه «عزت.. أخي.. أين أنت؟».. ولكن لم يجد مجيبًا.. أخذ يغطس في المـاء وهو يفتح عينيـه والمياه المالحة تحرقهما بشـدة وهـو لا يبالي ولكنه لم يستطع رؤيه شيء.. يصعد إلى سطح المياه وهو يصرخ ثانية: «عزت.. أين أنـت يا أخي».. أفعاله وأصواته جمعت الفضوليين حوله في الماء.. أخذ الصغير أحمد يبكي على الشاطئ وتجمع حوله الفضوليون يسألونه عـما يبكيـه.. اقتربت زوجة عـزت تحتضن أحمد وتجمـع أولادها وهي تـصرخ خائفة على الشـاطئ تنـادي زوجهـا.. أخذت زوجة يوسـف وبعـض النسـوة يطمئنَّنها ويواسـينها.. قفز بعض الشـباب المتحمس خلف يوسف وهو يبحث وظلوا يبحثون معه بهمة عن عزت.. حدث

اضطراب في الشاطئ وانسحبت العائلات منه خوفًا مما يحدث، وتقدم العمال ومسئولو الشاطئ والتفوا حول العائلة يستفهمون عما حدث.. مرت ساعتان أخذ السباحون المتمرسون والهواة يبحثون عن عزت بحماسة شديدة للغاية سرعان ما فترت عندما اقتربت الشمس من المغيب.. علمت الشرطة بالأمر وأخذوا يطمئنون يوسف وأسرتهم أنهم سوف يجدونه، وقام غطاسون محترفون بالبحث عنه فلم يجدوه.. تكرر الأمر لليوم الثاني وبعد إلحاح من يوسف كرروه لليوم الثالث على مضض لمدة طويلة، ولكن سرعان ما كانوا يعودون يحملون خيبة الأمل ويلقونها على رأس يوسف: «لم نجده.. يبدو أنه غرق وسحب التيار جسده بعيدًا.. البقاء لله..» هنا ظهر ما كان يخفيه يوسف في قلبه ويطبق عليه بداخله بقوة.. خوفه من أن يكون أخوه عزت قد مات.. كان يقمع أي فكرة تصعد إلى رأسه عن هذا الأمر بقوة، لكنه لم يستطع أن يحتمل أن يلقيها أحدهم على مسامعه.. إذًا الأمر حقيقي.. عزت قد مات.. هنا انهار يوسف وانهارت أسرته وأسرة عزت.. ظلوا لمدة ثلاثة أيام وهم في حزن شديد وكآبة.. لم يستطع أن يمكث في الإسكندرية بعد ذلك أو أن ينظر إلى البحر الذي كان سببًا في أخذ أخيه الكبير بعيدًا عنه.. عاد إلى مدينة جهينة وأخذ جميع سكان المدينة بقيادة عمدتها مازن يواسون يوسف وعائلته لمدة أسبوع كامل لم يتركوهم لحظة، ثم بعد ذلك انشغل الجميع في أمورهم وسط استنكار يوسف الذي كان يرقبهم غاضبًا حانقًا وهم يعيشون حياتهم بأريحية تامة بينما أخوه عزت قد مات غريقًا.. لماذا لا يتوقف الكون لهذا الأمر الجلل؟ فالحياة لا يمكن أن تستمر بدون عزت.. هذا ما كان في عقل يوسف حينها..

ظل يفكر كثيرًا أنه يجب أن يرحل عن هذه الدنيا ويجب أن يشارك أخاه مصيره، وفكر كثيرًا في فعل ذلك لمرات عدة، لكنه كان ينظر بعين الشفقة إلى أطفاله الصغار ومن ثم يخاطب نفسه: وماذا عن أطفال شقيقي عزت؟ من سيعتني بهم ويرعاهم؟ هلت في رأسه خاطرة سرعان ما تحولت بداخله إلى معتقد.. لماذا من البداية نعتقد بأن عزت قد مات؟ لم يخبرنا أحد أنه شاهده يغرق، ولم نجد جثته حتى الآن.. إذًا عزت لم يمت؛ بل هو مفقود.. نعم إنه مفقود وسوف يعود يومًا من الأيام.. هذا ما قد تقرر بعقل يوسف واستقر عليه خاطره.. وأخذ يتحدث إلى جميع معزيه بعنف وهو يخبرهم بأن عزت لم يمت بل إنه مفقود وسوف يعود قريبًا.. أخذ يتعامل مع الجميع بهذا الأمر، وقد ثارت ثائرته في أحد الأيام عندما حدثته زوجة أخيه أنها تريد أن تستخرج شهادة وفاة لعزت كي تستطيع أن تتحصل على معاشه وعلى مكافأة نهاية الخدمة الضخمة التي تمنحها له الشركة، فرفض بشدة ونعتها بالخيانة وأنها تريد أن تجعل زوجها ميتًا وهو مازال حيًّا.. دافعت عن نفسها غاضبة وهي تحاول أن تشرح له أنها تفعل ذلك لاحتياجها للأموال كي تنفق على أطفالها الثلاثة وعلى مدارسهم الأجنبية الباهظة، وأنه بعد اختفاء عزت لم يعد لهم عائل.. هنا أخذت العنترية يوسف وأخبرها أنه سيتكفل بمصاريف أبناء أخيه واحتياجاتهم جميعًا، وأنهم أصبحوا أولاده منذ هذا اليوم، وأنها يجب أن تنسى هذا الأمر نهائيًّا.. ما زال عزت حيًّا وسوف يعود مرة أخرى ليجد أن أخاه الأصغر اهتم به وبأولاده مثلما فعل معه وهو صغير.. امتثلت زوجة عزت على مضض وهي تعلم أن يوسف مستحيل أن

يتعامل بالمنطق أبدًا وأن يسلم بوفاة أخيه.. ومرت عدة شهور أيقن خلالها يوسف بأن الحديث غير الفعل.. لقد استيقظ على حقيقة أنه كان يعيش على مساعدات أخيه الجزيلة وأن راتبه بالفعل لا يكفي نصف احتياجات عائلته هو فقط فما بالك بأسرة عزت ومصاريفهم ومدارسهم الباهظة؟!.. اضطر أن يلجأ لعمل آخر مع عمله لكي يحاول أن يلتزم بوعده.. وقد حاول بالفعل وعمل بكد، لم يكن يتخيل في يوم من الأيام أن الحياة بمثل هذه الصعوبة.. وظهر التعب على يوسف ونحل جسده الضخم وأصبحت تصاحبه الأمراض وتبعته العصبية في كل مكان يحل به، وأصبح يفتعل المشاكل والأزمات في عمله، واضطر أن يترك أعماله أكثر من مرة.. وأخذت زوجته وأولاده يتذمرون له باحتياجاتهم وأنهم أصبحوا بعد العز في ذل كبير بسبب إنفاقه على أولاد أخيه وتفضيلهم عليهم.. أصبح يوسف في كد وغم ليل نهار وأزمات في أعماله وآلام في جسده وقلة راحة.. وكان يرفض طلب زوجة أخيه كل مرة في ثورة عارمة وهي تطلب منه أن يعترف بوفاة أخيه لكي تقوم الشركة بصرف المكافأة والمعاش لهم ويتخلص من همومهم، وفي كل مرة يصطنع يوسف مشاجرة كبيرة معهم ويرفض ذلك الأمر.. مر عام كامل ولم يعد خلاله عزت أو يسمع عنه أي خبر.. ويوسف كان يموت ويعذب في حياته ما بين قلقه على أخيه الغائب وما بين الأعمال التي يقوم بها لكي يستطيع أن ينفق على الأسرتين، ولكنه دائمًا كان يفشل في ذلك، وزادت ديونه وأصبح مطاردًا من دائنين لحوحين، وتركت زوجته منزلها وأولادها لكي يقوم بالإنفاق عليهم بعد أن صرخت به بأنه مجنون لكي يرفض وفاة أخيه ويمنع

الأموال الضخمة التي سيرثها أولاد عزت وزوجته عندما يعلن رسميًّا عن وفاته، وأنه بذلك يمنع الرزق عن أولاده وزوجته، وفي نفس الوقت يمنعه عن أولاد أخيه الذين يدعي حبه لهم.. لمدة أسبوعين علقت هذه الكلمات في عقله.. هل بالفعل هو يعذب أسرته وأسرة أخيه أم أن ما يفعله هو الوفاء في أقصى معانيه؟ ظروفه المعيشية الصعبة التي عاناها خلال هذا العام والمشاكل التي ألمت به والأمراض التي صاحبته بعد أن كان رجلًا رياضيًّا ممشوق القوام.. كل ذلك لأنه لم يعترف بوفاة أخيه.. كل هذه المصاعب لأن لديه أملًا أن يكون أخوه بالفعل حيًّا يرزق في مكان ما.. لم يعلم يوسف ماذا يفعل.. حياته انقلبت رأسًا على عقب.. قرر ألا يفكر لنفسه مرة أخرى.. ذهب إلى مازن عمدة المدينة يبكي حزينًا وهو يحكي له كل ما ألم به والمشاكل التي حدثت له باختفاء عزت من حياته.. أجابه مازن بكلمات كان في أشد الاشتياق لسماعها: «أنت أخ لا يعوض يا يوسف.. لقد كنت مخلصًا لأخيك وأحببته حبًّا شديدًا.. ولم تتوانَ في إظهار حبك هذا له أو لأهله في غيابه.. ولكن يجب أن تستسلم للحقيقة.. عزت قد مات.. عزت رحل عن عالمنا هذا ويجب أن تسلم بقضاء الله وقدره.. اترك الماضي بكل أفراحه وأحزانه وعش في الحاضر وابنِ للمستقبل.. ما ذنب أولادك ليتحملوا تلك الحياة الصعبة معك؟ ما ذنب أولاد عزت أن يعيشوا في ضيق اليد وسؤال الناس وأبوهم ترك لهم ما قد يغنيهم عن ذلك ويجعلهم يعيشون في الخير الرغيد؟ لماذا نتشبث بالماضي ونقتل المستقبل بأيدينا؟».. نظر له يوسف خانعًا وقال بعيون دامعة: «إذًا لو فعلت هذا وأقررت بموت عزت.. ألست هكذا أخون

أخـي الأكـبر.. ألسـت هكذا أقضي عـلى أي أمل في عودتـه لحياته مرة أخـرى؟».. أجابـه مـازن مطمئنًا: «يا يوسـف لقد مر عـام كامل على مـوت عزت غريقًـا.. يجب أن تسـلم بهـذا.. عزت قد مـات.. الموتى لا يعـودون للحياة يا يوسـف».. هنا -ولو لأول مـرة منذ عام كامل- اقتنع يوسف بأن عزت قد مات، وتخلى عن الأمل في عودته.. وقرر أن يسـتخرج شـهادة وفـاة له، وأن يقـر للجميـع بأنه قد مـات.. أخذت الإجراءات الورقية بضعة أسابيع وأعلن رسميًّا عن وفاة عزت فهمي وقامت زوجته بتقديم شهادة الوفاة إلى مقر عمله فحصلت على مكافأة كبـيرة للغايـة وعلى معاش شـهري مُجزٍ.. ثـم حدثت مفاجـأة أخرى ليوسـف.. حيث لفت وفاء يوسـف لأخيه عزت نظر أصحاب شركة البترول له فطلبوا أن يعمل يوسف مكان أخيه عزت وبمرتب شهري أكبر.. شـعر يوسف بالفرح والدهشة من ذلك الأمر ووافق في الحال، وعـادت صحته وسـعادته العائلية مـع زوجته وأولادهـا وعاد يعيش حيـاة رغدة مرة أخرى بعد أن كان يعيـش حياة كلها بؤس وحزن منذ وفـاة عـزت.. ومرت السـنون ونجحت الحيـاة ومتطلباتهـا بأن تجعل يوسـف يتناسى عزت وشعور الحزن الذي كان يمر به تجاهه.. ومرت خمـس سـنوات بالفعل ثم حدثـت الأشـياء الغامضة تلـك في جهينة، وأخذ يلتف الضباب حول المدينة، ولم يستطع أحد الدخول أو الخروج منهـا.. ليُفاجأ يوسـف في يوم من الأيام بحضور متولي مسـاعد عمدة المدينـة مـازن إليه فرحًا وهو يزف إليه خبر عـودة عزت مرة أخرى إلى المدينـة وأنه رآه بعينيه حيًّا وأنه في منـزل العقيد سراج توفيق.. ماجت مشـاعر يوسـف عند سـماعه لهذا الخبر.. اختلطت أحاسيسـه بشدة..

الصدمة.. الفرح.. الخيانة.. الإنكار.. الذهول.. أمسك بمتولي بين ذراعيه وهو يهزه بعنف: «ماذ تقول؟ هل عاد عزت؟ هل مازال حيًّا؟!».. وقف متولي بن يديه متألمًا: «نعم.. نعم لقد رأيته بعينيَّ ولمسته بيديَّ.. إنه عزت بالتأكيد على الرغم من إنكار العمدة مازن لذلك ولكني متأكد أنه هو.. ملابسه متسخة وطالت لحيته كثيرًا ولكنه هو.. هو عزت بالتأكيد.. تعالَ معي حتى تراه بنفسك».. لم يشعر يوسف بنفسه إلا وهو يحتضن متولي فرحًا ويصرخ: «لقد كنت على حق.. لقد كنت على حق..» انتهي متولي من عناقه وهو مبتسم له: «نعم بالفعل أنت كنت تخبر الجميع بأنه مازال حيًّا ولم يصدقك أحد.. حتى أنا.. لقد بشرتك برجوع أخيك حيًّا.. إنني انتظر منك أن تجزل لي العطاء».. أخذ يوسف يبتسم فرحًا: «بالتأكيد.. بالتأكيد.. أشكرك للغاية سيد متولي» .. «حسنًا.. سوف أستأذن أنا وأذهب إلى متجر عزام لكي أبتاع احتياجات المنزل.. أراك فيما بعد وتكون بصحبة عزت.. إلى اللقاء».. ودعه يوسف بفرح.. ثم قفز فرحًا وهو يصرخ على زوجته وأبنائه.. فحضرو سريعًا وعلى وجوههم الوجوم.. فأخذ يوسف يتحدث إليهم فرحًا: «لقد عاد عزت إلى جهينة.. لقد كنت على حق.. لقد كنت على حق».. أخذ ينظر إليهم فرحًا ولكن لم يجد أي رد فعل من زوجته وأولاده سوى الوجوم.. فحدثهم غاضبًا: « لماذا لا يبدو على وجوهكم الفرحة؟! أخبركم أن عمكم عزت قد عاد.. أخي قد عاد».. فحدثته ابنته: «نعم نعلم ذلك منذ أمس.. لقد انتشر الخبر في المدينة كالنار في الهشيم.. حتى أولاد عمي عزت وزوجته قد علموا بالأمر».. بدا على وجه يوسف الاندهاش: «ماذا؟! لقد علم

الجميـع بالأمر.. حتى زوجتـه وأولاده؟ لماذا لم يخبرني أحد منهم؟ لماذا لم تخـبروني أنتم أنه قد عـاد؟».. ردت زوجته: «لأن زوجته أنكرت أنه قـد عاد.. لقد أخبرت الجميع أنه ليس عزت.. وأن عزت قد مات منذ خمس سـنوات والموتى لايعودون».. صرخ يوسـف غاضبًـا: « اللعنة عـلى تلـك الخائنـة.. بالتأكيد تنكـر عودة زوجهـا لأنهـا تزوجت منذ عامين.. إنها خائنة بالتأكيد.. ولكن أولاده لماذا لم يخبروني بعودته؟!»..

«الأولاد اتخـذوا صـف أمهـم أيضًـا ويخـبرون الجميـع أنـه ليـس والدهـم».. يوسـف مصدومًـا: «مـاذا؟! حتـى أولاده! هـل أصابهم الجنـون».. أجابتـه زوجتـه سريعًـا: «لا.. لم يصبهم الجنـون.. بل إنهم اتخـذوا عين العقل.. لا يوجد أحد يعود من الموت بعد خمس سـنوات كاملة.. بالتأكيد هذا شـخص نصاب ينـوي أن يبتزهم».. أخذ يصرخ بهـا مدافعًا: «نصاب.. سـوف أعلم بالتأكيد إذا كان نصابًا أو شـخصًا ينتحـل صفته.. فبالتأكيد أنا أعلـم أخي جيدًا.». أجابته سريعًا: «حتى إذا كان هو يا يوسف.. رجوعه الآن سوف يفتح الجحيم على الجميع.. عـلى زوجته التـي تزوجت وأنجبت من زوجهـا الجديد، وعلى أولاده الذيـن قسـموا أموال المكافأة على أنفسـهم.. سـوف تتهمهـم الشركة بالنصـب والتزوير وسيسـجنون.. وأنـت أيضًا سـوف تتهم بالنصب والتزويـر، وسـوف تسـجن ويتم فصلـك من عملك.. سـوف يضيع مسـتقبلهم ومسـتقبلنا برجوع هذا الشـخص.. أأمن شيء هو أن ننكر جميعًـا أنـه عزت».. حديـث زوجته أربكـه فجأة ولم يعلم مـاذا يقول،

ولكنـه شـعر بضيـق في صـدره: «مـاذا تعنين بكلامـك هذا يـا امرأة؟ أتريدينني أن أتخلى عن أخي.. أنكر وجوده»..

«يـا زوجـي الحبيب.. أخـوك عزت مـات منذ زمن بعيـد.. وأنت أخرجـت شـهادة وفاته بيـدك تلك.. أنت تعلـم جيدًا بـأن متولي هذا شـخص ماكر وأعماله دائـمًا ملتوية.. لماذا هو الوحيـد الذي وجد هذا الشـخص الـذي يدعي أنه عـزت.. ولماذا هـو الوحيد الذي اسـتطاع الدخول إلى المدينة وسط هذا الضباب الذي يمنع الجميع من الدخول أو المغـادرة؟!.. ولمـاذا لم يـأت عزت بنفسـه إلى منزلـه أو منزلك بحثًا عنـك إذا كان هـو بالفعـل؟! كل هـذه الأمـور تثبـت أن الأمـر ما هو إلا خدعـة لكـي يبتـز متولي منك الأمـوال كما أخبرك بأنـه ينتظر منك العطاء.. لا تدمر حياتنا وحياة أولاد أخيك بسبب ظنون وضعها متولي بعقلك.. ألسـتَ تثق في العمدة مازن؟ والعمدة مازن يخبر الجميع بأن هذا الشخص ليس عزت وأن متولي هذا يكذب.. ألا يدعوك كل ذلك ألا تثـق في حديثه؟!».. حديث زوجته أسـكته للحظات وهو ينظر إلى أطفاله وهم يؤمنون على حديث والدتهم.. شـعر بالضيق يملأ صدره ولم يسـتطع عقله التفكير فصرخ بهم: «اتركوني بمفردي أريد أن اختلي بنفسي».. تركوه بمفرده وأخذ يجول بغرفة المعيشـة ذهابًا وإيابًا.. يفكر في حديـث زوجتـه ورد فعل زوجة أخيـه وأولاده.. هل يكون بالفعل هـذا الأمـر خدعة والجميع عـلى حق.. أم أنـه عزت بالفعـل وقد عاد بعد اختفائه خمس سـنوات.. وإذا كان عزت حقًّا.. ماذا سيحدث له؟ هل سيسـامحه على أنه تخلى عنه واستسـلم لكونه مات ولم يبحث عنه؟

هل سيخبره بأنه خائن ولم يراعِ تضحياته في سبيل تربيته؟ هل ستقوم الشركة التي يعمل بها -والتي تعطيه مرتبًا وميزات لم يحلم بها من قبل- بفصله وسجنه بتهمة التزوير بشأن وفاة أخيه؟ لماذا لم يعد عزت قبل ذلك وأين كان؟ لماذا يعود بعد كل تلك السنوات؟ لماذا يعود بعد أن سلمت أنه مات ومضيت في حياتي قدمًا؟ لماذا الآن؟ لماذا؟ لماذا لا أشعر بالسعادة عندما علمت بعودة عزت من الموت؟ لماذا لا أكون سعيدًا؟ لماذا أفكر في كل ذلك وأنا حزين؟ هل سوف أحزن بعودة أحب شخص إلى قلبي من الموت؟ لماذا؟ لماذا عدت يا عزت؟ لماذا يا أخي؟!

*   *   *

توقف أحد الجنود أمام باب منزل العقيد سراج وأخذ يطرق الأرض وهو يعطي له التحية العسكرية وسراج يجلس على الطاولة يدون بعض الأشياء ويجلس على بعد منه المتشرد المدعو عزت فهمي.. يتحدث سراج سريعًا إلى الجندي مستفسرًا: «هل أتى يوسف هذا لكي يتعرف على أخيه؟ أين هو؟»..

الجندي متلعثمًا: «لقد ذهبت إليه كثيرًا يا باشا وطلبت منه الحضور، وكان يخبرني بأنه سيأتي ولكن دائمًا كان يتملص مني وفي تلك المرة أصررت أن أحضره معي ولكنه صرخ فيَّ غاضبًا.. بالنهاية بأنه لن يأتي معي.. لأن أخاه مات منذ خمس سنوات.. وإن هذا الشخص ليس أخاه بالتأكيد وأنه مدعٍ ونصاب».

حدثه مندهشًـا: «هكذا دون أن يراه! ألم يكلف خاطره ليلقي عليه نظـرة واحدة؟ يبدو أن يوسـف هذا كان يبغض أخـاه للغاية».. تأفف بضيـق وأخذ يتابع حديثه للجندي: «حسـنًا فلتأخـذه بعيدًا عن هنا.. ولتأخذ بصماته وأخبر مازن عمدة المدينة أو كريم مساعده بأن يسكنوه في أحـد الأماكن بعيدًا عن الشـوارع حتى نرى ماذا سـوف نفعل معه فيما بعد».. نفذ الجندي أوامره وتحرك مسرعًا جهة المتشرد وسحبه من يده وهو متأفف من رائحته الكريهة.. وصلت الرائحة إلى سراج الذي اشـمأز منها بشـدة فتابع حديثه للجندي: «ولتجعله يستحم ليتخلص من تلك الرائحة سريعًا».. أمسـك الجندي بأنفه وهو يسـحب المتشرد في يـده ويخـرج.. اتجـه سراج إلى جهـة البـاب وأغلقـه وهـو سـاخط غاضـب: «اللعنة على تلك المدينة وسـاكنيها.. اللعنـة عليك يا مأمون أيهـا الوغد العجـوز.. اللعنة على ابنتك وزوجتـك وجميع عائلتك أيها الوغـد اللعـين.. كان يومًـا أسـود يـوم أن سـمعت كلامـك ووطئت جهينة بقدمي.. لا أعلم ماذا يحدث بها من مصائب سوداء تتوالى فوق رأسي ولا أعلـم كيف أخـرج منها.. أقولها بعلو صـوتي: اللعنة عليكِ يـا جهينة».. لم يكـد يكمل كلماته حتى وجد إضاءة الشـقة بأكملها قد انطفـأت.. شـعر سراج بالارتباك للحظـات وأخذ يبحـث عن هاتفه في الظـلام ليضيء به وهو يكمل سـبابه: «حتى الإضاءة في تلك البلدة اللعينـة غـير منتظمة.. أين هـذا الهاتف اللعـين ذاك أيضًـا؟..» وأخذ يتحـرك وهو يتحسـس بيـده الطريق.. وهنا سـمع فجـأة تحرك بعض المقاعـد وهي تسـحب بعيدًا في الظلام.. انقبـض قلب سراج في الحال وتوقف وأخذ يتتبع مصدر الصوت بأذنه فاختفى سريعًا.. أخذ سراج

يتحرك مرة أخرى وهو يبحث عن هاتفه وهو يطمئن نفسه بأنه يُهيأ له سماع صوت أشياء فقط.. اقترب من المنضدة سريعًا وأخذ يتحسس سطحها ليجد هاتفه فأمسكه في الحال وأخذ يفتحه ليشعل إضاءته وهنا عاد نور الشقة مرة أخرى سريعًا.. ليُفاجأ سراج أمامه بشيء غريب للغاية.. المنضدة أمامه وفوقها مقعدان من المقاعد الخشبية التي كانت حولها.. شعر سراج بالخوف الشديد من هذا الأمر وهو يحدث نفسه بقلق: «أيعقل أنه هذا الشيء الذي يتحدث عنه جميع أهل جهينة تلك الأيام؟!».. لم يكد يكمل تساؤله في نفسه حتى انطفأت أنوار الشقة مرة أخرى.. فركض سراج خائفًا في الحال فتعثر وسقط على الأرض ولكنه وقف سريعًا ولم يبالِ وأخذ يفتح باب الشقة مهرولًا إلى خارج المنزل..

* * *

الساعة الثالثة تقريبًا وقف العالم عصام ناجي بالقرب من الضباب الذي يلتف حول مخارج المدينة وخلفه جنديان وكريم مساعد عمدة المدينة يقف بالقرب منهم يراقب ما يفعلانه في اهتمام.. أخذ عصام ينظر إلى الضباب الرمادي أمامه بتحدٍّ كبير.. نظر إلى كريم والجنديين خلفه.. وهو يربط حبلًا على وسطه ويحدثهم بسرعة: «سوف أدلف إلى الضباب الآن.. سأحاول أن أتفقد كل شبر أمامي لعلنا نستطيع أن نصل إلى المكان الذي أتى منه هذا المتشرد الذي يدعى عزت».. أخذ كريم يحدثه: «ألم نجرب جميعًا عدة مرات في السابق وفشلنا بالوصول إلى أي نتيجة، كل مرة نعود إلى نفس المكان بمنتصف البلدة أو إلى أي

مكان آخر بداخلها».. أجابه عصام وهو يشعل مصباحه أمامه: «هذه المرة سوف أدلف بمفردي لأن هناك طريقة جديدة في البحث برأسي سأحاول أن أنفذها ولا أريد أن يعوقني أحد.. مهمتكم أن تحافظوا على هذا الحبل جيدًا تحسبًا لأي طارئ».. أطرق الجميع برءوسهم له.. فأخذ عصام نفسًا عميقًا ورمى بنفسه سريعًا داخل الضباب.. هنا وجد نفسه في اللامكان.. لا يوجد صوت أو حركة أو مشهد لأي أي شيء.. فقط الضباب الرمادي يحيطه.. جميع ما حوله غارق في الضباب.. لا يستطيع أن يري يديه من كثافة الضباب.. شعر لوهلة أنه ليس في الأرض وأنه يغوص في السحاب على جانب النجوم.. ليس معه أنيس إلا أفكاره الموحشة ومصباحه ذو الإضاءة الضعيفة التي تصطدم في الحال بركام الضباب فلا تسمن ولا تغني من جوع.. أخذ عصام يلتفت حوله بفضول يبحث عن أي شيء أو حتى يتلمس أي شيء بجواره فلم يستطع.. وهنا شعر بالعجب لأنه عندما كان يذهب إلى داخل الضباب ومعه عدة أشخاص كان الضباب موجودًا ولكن ليس بمثل هذه الكثافة.. إنه بالفعل الآن لا يعلم إذا كان في النهار أو الليل.. شعر بالخوف والقلق يدب في قلبه ولكنه أخذ يسحب الحبل خلفه فيطمئنه بأنه مازال متصلًا مع عالم البشر.. أخذ هنا يشير بيديه بسرعة وهو يحاول أن يبدد الضباب حوله ولكن سرعان ما كانت تفشل محاولاته فيتجمع الضباب من جديد حوله.. أخذ يخرج من جيبه صافرة ووضعها في فمه وأخذ يصفر بها بقوة وعزم شديد لعل أحدًا من خارج المدينة تصل إليه تلك الأصوات.. وأخذ يصفر ويصفر.. ويصرخ بأعلى صوته وهو يصدر أصواتًا مختلفة وهو يتوجه بجسده

إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب حتى يوزع تلك الأصوات على جميع الاتجاهات.. وبعد مرور ثلاث دقائق شعر بأن طاقته نفدت وضعفت.. فأخذ يستريح قليلًا ليعاود ما يفعله من جديد وهو يتقدم بداخل الضباب.. ولكنه تذكر شيئًا فأخذ يضع يده في جيبه فأخرج كرة تنس صغيرة وكتب عليها بقلم أسود ثخين: «المخرج الجنوبي» ثم قام بإلقائها في وسط الضباب بقوة.. وانتظر للحظات وهو يحاول أن يركز سمعه ليستمع إلى ارتطامها بالأرض ولكن لم يسمع أي شيء.. حاول أن يتحرك ببطء وهو يركز سمعه على صوت سقوط كرة التنس ولكن لم يسمع شيئًا.. هنا شعر باليأس من محاولة الكرة تلك وفكر أن يعيد الكرَّة أخرى مع الصافرة فالتقمها بفمه وأخذ يصفر بقوة شديدة وهو يتحرك.. وهنا شعر بشيء يرتطم بالأرض.. فتوقف عن الصفير في الحال وأخذ يستمع بقوة إلى هذا الشيء.. وهنا لمحه يقترب منه على الأرض ويرتطم بضعف بحذائه.. فسلط ضوء مصباحه عليه في الحال واقترب من الأرض يلتقطه ويتفحصه بيده وهنا فوجئ بأنها كرة التنس التي قذفها منذ قليل وتأكد من ذلك عندما وجد خط يده عليها بكلمة «المخرج الجنوبي».. فاندهش من هذا الأمر وشعر بأن هناك بالتأكيد شخصًا التقطها وألقى بها إليه.. فشعر بالفرح الشديد وأخذ يصرخ بعلو صوته: «أنا هنا.. أين أنتم؟ أنا الدكتور عصام ناجي.. هل تسمعون صوتي؟ أين أنتم؟ نحن محتجزون بداخل مدينة جهينة ولا نستطيع الخروج منها.. هل تسمعونني؟»..

ولكـن لم يجد عصـام أي إجابة من أي شـخص.. فتعجب للغاية.. وقـام بإلقاء الكرة مرة أخرى بأقـصى قوة لديه.. وبعد لحظات وجدها تصطـدم بقدمـه مـرة أخرى.. فشـعر بالارتيـاب « أنت يا مـن تقذف الكـرة.. لماذا لا تجيبني؟ هل تسـمعني ولكنك لا تسـتطيع أن تجيبني؟ إذا كان الأمر هكذا فحاول أن تكتب على الكرة برسـالتك أو أي شيء أسـتطيع أن أهتـدي إليك من خلاله.. سـوف أقذف الكـرة إليك مرة أخـرى.. واكتب عليها مكانك».. ثم ألقى بالكرة سريعًا مرة أخرى.. ولكـن هذه المرة لم تعـد.. انتظر عصام عدة دقائق ولكن لم يجد شـيئًا.. فشـعر بـشيء يصطـدم بحذائـه مـن الخلـف فالتفـت سريعًـا والتقطه فوجدهـا الكـرة التي قذفها ولكـن لم يجد عليها أي شيء غـير كتابته.. وشـعر بالاندهاش بأنها أتت هذه المـرة من جهة مختلفة عن التي قذفها بها.. وشـعر بالاضطراب يجتاحه من هذا الشـخص الذي يلقيها ولماذا لا يجيبه.. وهنا أتته الإجابة سريعًا.. عندما سمع صوت زمجرة قويًّا من خلفه.. لشيء أشـبه بالكلـب ولكن بصوت أقوى بكثـير.. جعل قلبه يسـقط بقدمه ووقف شـعر رأسـه وسـاعديه في الحال.. وشعر بخيال شيء ضخم في الضباب يقترب منه ببطء وهو يزمجر بقوة.. شيء كثيف الشـعر وله شـكل الكلب ولكنه يقف على قدمين وله يدان.. لقد كان ظاهرًا من بعيد على الرغم من الضباب الكثيف حوله.. عندما شـاهد عصـام هذا أخـذ يصرخ ويركض ذعرًا وخوفًا وهـو لا يعلم يمينه من يسـاره في وسـط الضباب.. ولكنه يحاول أن يبتعد عن صوت الزمجرة خلفـه، وكان يتخطف لفتات خلفه ليجد هـذا الشيء بعيدًا عنه ولكنه واضـح أمامـه.. كل مـا كان بعقلـه تلك اللحظـة أنه هالـك لا محالة،

وتحـول شـعوره هـذا إلى يقين عندما وجد نفسـه يسـقط عـلى الأرض فجـأة فقفـز بمكانـه سريعًـا وهـو يحـاول الركض مـرة أخـرى ولكنه لم يسـتطع.. لقد شعر بأن هناك شيئًا يسحبه بقوة.. أخذ يشعر بالخوف والهلـع وهـو يحـاول أن يعلم ما الذي يحـاول أن يمنعه مـن الهرب من هذا الشيء المخيف فوجد أن الحبل المربوط على وسـطه شـخص يشده بقوة ويجذبه إلى الخلف.. شـعر عصام بالخوف الشـديد وهو يحاول أن يسـحب الحبل جهته ولكنه لم يسـتطع.. ووجد أن شـيئًا يسحبه وبقوه إلى الخلـف.. أخذ يصرخ في خوف وهو يسـمع الزمجرة الشـنيعة تلك تقترب منه وهو يسـحب بداخل الضباب بقوة وسرعة شـديدة.. وهنا أخـذ عصام يحاول بكل قوته أن يتخلص من ذلك الحبل بأي طريقة.. وهو يسـحب بقوة يحاول أن يمزقه بأسنانه فلا يستطيع.. يدب أقدامه في الأرض بقـوة وهـو يمسـك الحبـل خلفه يحـاول الخـلاص منه من حول وسـطه الذي كاد يتمزق من قوة السـحب العنيف التي يسـحب بهـا ولم يسـتطع.. مهما حـاول أبدًا صـوت الزمجرة يقـترب أكثر وأكثر والسـحب على أشده يحاول أن يقاوم باستماتة.. حاول أن يتمسك بأي شيء بطريقـه فلم يجد إلا أن يحاول أن يتمسـك بـالأرض تحته بأظافره وأقدامـه ولكـن لم يسـتطع أن يمنـع نفسـه أن يسـحب بقـوة واندفاع شـديد إلى داخل الضبـاب، وهنا انتهى كل شيء.. نعـم لقد انتهى كل شيء.. توقـف عصـام عـن المقاومة وهو يستسـلم لمصـيره ويتمنى أن ينتهـي الأمـر سريعًا دون أن يتعـذب.. ولكنه فوجـئ بأصوات حوله قلقة وصوت شـخص ينـادي عليه: «دكتور عصـام.. دكتور عصام.. هـل أنت بخـير؟».. فتح عصـام عينيه مندهشًـا ليجد نفسـه بين يدي

الجنديين وكريم وحوله بضعة أشـخاص يمسكون بالحبال المربوطة به فحدثهم مستسفسرًا: «ماذا حدث؟ ماذا حدث؟».. أجابه كريم: «لقد سـمعناك تصرخ فجأة فشـعرنا بالقلق تجاهك فأخذنا نسـحب الحبل جهتنا ولكننا وجدنا مقاومة شـديدة للغاية فشـعرنا بالقلق أكثر عليك وتجمع بعض المتطوعين من أهل المدينة لكي يسحبوك وبعد جهد شاق استطعنا إخراجك من الضباب»..

أخـذ عصـام يتلفـت حولـه: «إذا لم يسـتطع هذا الـشيء أن يتمكن مني.. هل اسـتطعت الهروب منه؟».. سأله أحد الأشخاص الواقفين حولـه برعـب شـديد: «مـا هـذا الـشيء؟.. مـا الـذي رأيتـه؟.. هـل رأيت الشبح؟»..

شـعر عصام بالاضطراب فابتلع ريقه بقلق: «لا لم أرَ شـيئًا هناك.. لقد شعرت فقط بالخوف لأني لم أستطع أن أعود إلى هنا مرة أخرى من الضبـاب لم أرَ طريقي جيدًا».. وأخذ يفك الحبل من وسـطه فصرخ به الرجل وهو مرتاع: «أنت تكذب.. لقد رأيت الشـبح.. إنه هو سيقتلنا جميعًـا».. وعم الاضطراب والخوف جميـع الحاضرين وأصبحت قصة عصـام والضبـاب على ألسـنة جميـع أهل المدينـة وجميعهم قـد حذروا بعضهم من الدخول إلى الضباب مرة أخرى»..

❋ ❋ ❋

(الشبــح)

مر خمسة عشر يومًا على تواجد سراج ورفاقه في مدينة جهينة، وقبعت المدينة تحت حصار الضباب منذ عشرة أيام تقريبًا أصبح التوتر والقلق في المدينة على أشده، وبدأت تقل حصص الطعام وتزداد المشاكل والعنف بين السكان ولكن بشكل عرضي وليس بكثرة؛ نظرًا لإحكام قبضة مـازن العمدة وكبار عائلات جهينة عـلى المدينة، ووجود سراج ورجـال الشرطة هناك منع احتدام المشـاكل ووقوع صـدام كبير بينهم حتى الآن.. ولكن خلال هذه الأيام حدث شيء جعل الجميع يتحدث عنه على الرغم من حدوث كل تلك الأمور الغامضة في المدينة، ولكن هذا الحدث الجديد جعلهم ينشـغلون عنها جميعًا وهو ظهور شـبح في مدينـة جهينة كما يدعـي أهلها، وحدث هذا الأمر عـلى عدة مراحل.. حيـث بدأت هذه الشـائعات في الظهور عندما اسـتيقظ أهل المدينة في أحـد الأيام ليجدوا القمامة والمهملات على مداخل الكثير من البنايات في جهينـة، ومع تكـرار ذلك الأمر قام بعض الصبيـة بالتربص وعمل كمـين لمـن يقوم برمـي تلك القمامـة لإعطائه درسًـا قيـمًا، وفوجئ هنا بأنهم وجدوا القمامة ترفع من داخل السـلات وتطير في الهواء وتنقلب أمـام المنـازل دون تدخل من أحد.. انتاب الهلـع الصبية وأخبروا جميع أهلهـم ومعارفهـم بـما رأوه.. وصـدق الكثـير عـلى تلك المشـاهدات

وأنكر الكثير تلك الأقاويل ونسبوها لفعل الصبية الساخطين ممن اعتادوا على ممارسة تلك المقالب والمشاكل ولكن بعد ذلك حدث أمر آخر.. الهواتف بالمدينة وعلى الرغم من أنهم لا يستطيعون الاتصال بأي شخص داخل أو خارج المدينة ولكنها ترن الساعة الثانية عشرة منتصف الليل في الكثير من منازل أهل البلدة، وعند رفع أحدهم للهاتف لا يسمع أي صوت فقط شيئًا أقرب إلى الكهرباء الاستاتيكية وبعض الأصوات المخيفة غير المفهومة، ولكن بعض الناس أجمعوا على أنهم سمعوا صوت مجهول يصرخ: أنا هنا.. زاد هذا الأمر الخوف لدى أهل البلدة وبدأت تنتشر أخبار الشبح مع ازدياد حدوث تلك الأحداث المتكررة لأهل البلدة.. وعندما انتهى عصام من تجربته المرعبة مع الضباب في ذلك اليوم كان عائدًا مترجلًا بصحبة كريم والجنديين وهو يشاهد باهتمام آثار الخوف والقلق التي دبت في المدينة وبعد أن كانت جنة الغرباء وقاطنيها أصبحت مقبرة تحتويهم ويتمنون الخلاص منها.. كان يرسم لنفسه دائمًا شخصية المرابط المجد أمام الجميع وكان يخفي وراءها خوفه الشديد فالإنسان عدو ما يجهل.. وأصبحت جهينة مجهولة للجميع.. كان هو الوحيد الذي يحمل الواجهة العلمية والخبرة أمام أهل.. جهينة كانوا يصدقون أي شيء يخبرهم به عصام؛ فهو العالم الذي تعلم بالخارج وبالتأكيد هو يعلم جميع ما يلم بالمدينة.. حاول عصام أكثر من مرة أن يخلع عباءة العلم والشرح لما يحدث في المدينة فهو مثلهم بالضبط لم يعلم ماذا يحدث وأخبرهم بذلك أكثر من مرة فاتهموه بأنه ضلع في نظرية المؤامرة التي تحدث لأهل المدينة ولا يرضون عنه إلا عندما يضطر أن يخبرهم بتفسير.. لا يهم ما هو

التفسـير.. أي تفسـير حتى ولو كان هراء.. فإن البشر لديهم قدرة على تصديـق الهـراء.. أي هراء مهـما كان.. ولكن لا تدعهم أبـدًا بدون أن تفسر لهم ما يحدث.. واستطاع عصام بكل نجاح أن يخبرهم بكل الهراء الموجـود بهذا العالم وبالفعل كانوا يسـتمعون إليه ويصدقونه مهما كان قوله أو تفسـيره حتى لو كان أخبرهم بأن السـماء ترعد بسـبب غضب زيـوس كانوا سـيصدقونه في الحال.. ولذلك لم ينفـك أهل جهينة عن اصطحابه هو وأتباعه عند عودتهم لكي يرشدوه إلى آخر أفعال الشبح الجديدة.. حيث وجد نفسـه في أحد الشـوارع العمومية بصحبة بعض أهالي جهينة ينظرون إلى ثلاث أشجار جميلة المنظر خضراء تظهر ثمارها فوقهـا بـكل وضوح ولكن هـذه المرة لم تكـن الثمار جوافـة أو كمثرى أو تفاحًا بل أحذية.. نعم كما أخبرك الآن أحذية أعلى أغصان الشـجر وموزعـة بأحجـام وأشـكال مختلفة على أنحـاء الشـجر ولكنها أحذية رياضية بها أربطة معقودة للفردتين والحذاء معلق على الشـجرة. منظر مثـير وغريب ولـن تراه إلا حصريًّـا في جهينة.. وقفا عصام مشـدوهًا مصدومًـا مـن المشـهد الذي أمامـه للحظات ثـم أخذ يضحـك فجأة والجميـع يراقبـه وهم يبتسـمون لمشـاهدته وهو يضحـك.. ثم تحدث إليه أحد الحاضرين مسـتنكرًا: «أتضحك.. أتضحك على هذا المشـهد المريـب؟ لا أعتقد أن المشـهد القادم سـيجعلك تضحـك هكذا».. ثم أشـار إليـه بيده أن يتبعه فتحـرك عصام في الحال وعلى وجهه ابتسـامة كبـيرة وخلفه الجنديان وكريم وبعض الفضوليين يتبعونهم.. لم يذهبوا بعيدًا، مروا على خمسـة شـوارع تقريبًا ثم رأوا أمامهم شيئًا يسد مدخل الشـارع مـن الأمـام.. مائدة طعـام كاملة بوسـط الشـارع وحولها 10

مقاعد خشـبية وبعض أطباق الطعام مرصوصة والملاعق والسكاكين بجوارهـا.. اقترب عصام من مائدة الطعام الموضوعة في العراء وسـط الشـارع وهـو يتلمسـها بيده يـرى كل شيء وهـو معد لتنـاول الطعام ولكن الأطباق والمقاعد فارغة والشـمس قد بثت أشـعتها في الخشـب والملاعق والأطباق فأعطتها حرارة وانعكاسًـا للأشعة الصفراء عليها وهـذا يعنـي أن تلك المائـدة موضوعة منذ فترة طويلـة منذ صباح هذا اليوم فتحدث عصام لمرافقيه: «هل شـاهد أحدكم من الذي قام بفعل ذلك؟ هذا بالتأكيد أمر شـاق لمن فعله ويجب أن يكون أحد شاهده».. فصرخ أحدهم: «إنه الشـبح.. كيف سنسـتطيع أن نرى الشبح ونتدبر أفعالـه؟».. فحدثه عصام مسـتنكرًا: «شـبح! وهل سـيتجول الشـبح جهـارًا نهـارًا في المدينـة ويضع مائـدة الطعام في وسـط الطريق؟! ماذا سيستفيد من ذلك؟ لا أعتقد أن هناك أشباحًا حمقاء تفعل ذلك».. هنا قطـع حديث عصام هبوب هواء مـليء بالرمال والأتربـة بطريقة قوية غطتهـم جميعًا.. أخذ الجميـع يبتعد عن تلك الرمال المتسـاقطة عليهم وهـم يصيحون غاضبين عـلى من يلقيها.. نظر الجميـع إلى أعلى حيث كانت تلك الرمال تسـقط عليهم من أعلى.. صاح بعض الرجال: «هيا بنا نصعد إلى أعلى ذلك المنزل لنرى من يلقي علينا تلك الرمال.. صعد عصـام وكريم والفضوليون إلى أعلى المبنى سريعًا وهنا فوجئوا بوجود كومـة كبيرة من الرمـال وموضوع بجوارها بعض المـراوح الكهربائية التـي الموجهـة إلى كوم الرمال بجوارها فتسـقطه على المارة بالشـارع.. فقـام عصام سريعًـا بفصل الكهرباء عن المراوح وأمسـك واحدة منها بتحدٍّ: «شبح.. أليس كذلك؟! شبح سيستخدم المراوح الكهربائية!»..

أخذ الجميع ينظرون إليه وهم متشككون ومشهد المراوح بدأ يقنعهم بحديث عصام.. فجأة أشار أحدهم من أعلى سطح المنزل: «انظروا.. انظروا هناك».. اتجه الجميع إلى الجهة التي أخبرهم بها الرجل ليشاهدوا معه جميعًا من أعلى تجمعًا للسيارات في أحد ميادين المدينة القريبة.. عدة سيارات موضوعة بشكل الصليب المعقوف الذي اتخذته النازية شعارًا لها.. نظر الجميع إلى تلك السيارات مندهشين.. وأخذ كريم يعد السيارات التي شكلت هذا الصليب المعقوف لتتعدى 30 سيارة.. كان المشهد مشوقًا على الرغم من غرابته.. وأخذ بعضهم يقوم بتصوير تلك السيارات على هواتفهم المحمولة.. وقف عصام مذهولًا وهو يحاول أن يفكر ماذا يحدث ولكن وجد لسان حاله يقول في الحال: «ماذا سيحدث بكِ بعد ذلك يا جهينة؟!».

* * *

في التاسعة من مساء ذلك اليوم.. كانت هاجر زوجة سرور بكري تحضر بعض المشروبات بمطبخها أثناء مشاهدة سرور وطفلته أحد الأفلام على الحاسب الآلي باهتمام.. دقائق وأحضرت المشروبات الساخنة ووضعتها أمامهما ولكن فوجئت بأن زوجها يشاهد الفيلم الكارتوني باهتمام بينما ابنتهم آية نائمة بعمق شديد.. أخذت تضحك على هذا الوضع وهي تحمل ابنتها إلى غرفتها: «لقد نامت آية وتركتك وأنت تشاهد الكارتون».. ابتسم سرور في الحال: «هههههههه لا تؤاخذيني لقد اندمجت مع الفيلم سريعًا.. لقد أعادني

إلى أيام طفولتي المشردة.. الأسـد الملك هذا سأشاهده للأبد دون ملل أو كلل»..

عادت هاجر سريعًا وجلسـت بجواره وأخذت تشاهد الفيلم معه وهو يضمها إلى صدره.. وشرب من المشروب الذي لم يشعر بالارتياح لطعمه.. فسألها بفضول: «ما هذا؟ ألم تضعي سكرًا أم ماذا؟»..

أجابته سريعًا وهي تعتدل بجلستها: «لا، لقد وضعت ولكن ملعقة واحـدة.. لأنه لم يتبقَّ إلا القليل من المشـتريات التي جاء لنا بها عزام.. ولم يحضر لنا شيئًا بعد ذلك».

«نعم لقد ذكرتيني بالفعل.. إنه تخلف عن ميعاد حضوره منذ ثلاثة أيام.. لم يحضر إلينا مشترياتنا واحتياجاتنا كالمعتاد..»..

سـألته بقلـق: «أتعتقد أنه قد تخلى عنـا ولن يحضر لنـا حاجاتنا مرة أخـرى؟».. أجابها بسرعة: « لا.. لا تقلقي إنه شـخص جيد ولم يجبره أحد أن يفعل ما فعل ويساعدنا من قبل.. يبدو أن هناك شيئًا قد حدث معـه منعه عن الحضور».. أخذ يداعب ذقنـه وهـو يفكر بتركيز: «أظن يجب علي أن أذهب إلى متجره وأرى بنفسي ماذا يحدث معه».. ضربت هاجر صدرها وهي خائفة بشـدة: «هل سـتذهب إليهـم بقدميك مرة أخـرى؟! إن أهـل المدينة ليس لديهم أي شـفقة أو رحمـة.. وأخاف أن يفعلوا بك أي مكروه يا سرور»..

نظر لها متحفزًا: «لا تقلقي.. هذه المرة سوف أذهب إليهم مستعدًّا جيدًا.. لا لن أكون مثل المرة السابقة.. سوف آخذ حقي من أهل المدينة سواء برضاهم أو رغمًا عنهم»..

استغل سرور انهماك زوجته في أحد أعمال المطبخ وتسلل إلى غرفته خلسة وقام بفتح خزانة الملابس بهدوء وهو يقلب في ملابسه سريعًا.. انتيي من الأرفف العلوية سريعًا ثم انتقل إلى السفلية فوجد الملابس مرتبة وموضوعة بعناية فأزاحها سريعًا لتظهر علبه حمراء كبيرة أخرجها من الخزانة وفتحها بحرص شديد وهو يتأكد من وجود زوجته خارج الغرفة ثم فتحها سريعًا ليظهر أمامه سلاح ناري بشكله الأسود المعتاد فرفعه بعناية وتفقده سريعًا ثم قام بسحب ذخيرته ولقمها ثم وضعه أسفل وسادة السرير ثم أغلق العلبة سريعًا وأعادها إلى مكانها في حرص وقام بارتداء ملابسه استعدادًا للخروج ثم اتجه إلى الوسادة وأخرج سلاحه الناري بحرص شديد وأخذ يتفقد وضع الأمان جيدًا ثم وضعه أمام عينيه وهو يتحدث بثقة: «لن تكون كالمرة السابقة أبدًا» ثم وضعها خلف ظهره بملابسه بعناية وهم بالخروج إلى خارج غرفته لتراه زوجته فتسأله مستنكره: «إلى أين أنت ذاهب يا سرور؟» فأجابها بسرعة: «سوف أذهب لأتفقد متجر عزام لأعلم لماذا لم يحضر طلباتنا كما اتفقنا»..

..بقلق شديد: «ولكن يا سرور إذا شاهدك أهل المدينة فسوف يفتكون بك.. وأيضًا إذا علموا أن عزام يساعدنا فسوف يصبح منبوذًا مثلنا».. أجابها مطمئنًا وهو يتلمس سلاحه خفية: «لا تقلقي، لن

يمسـني أحد بسـوء.. وأيضًا لـن أعرض عزام للخطر.. سـوف أتفقد الوضع من بعيد من داخل سـيارتي لأطمئن عليـه فقط».. اقتربت منه خائفـة: « لكـن يا سرور هل سـتتركني أنا وابنتك بمفردنا؟ ألم تسـمع عن الشبح وما يدور في المدينة؟ أنا خائفة للغاية أن أمكث بمفردي».. ضحك سـاخرًا: «شـبح.. شـبح ماذا يا هاجر؟ إن الأمـر مجرد خرافة بالتأكيـد».. أجابتـه مسـتنكرة: «خرافات.. مع كل مـا يحدث في تلك المدينـة الملعونـة من أحداث غريبـة وأنت تخبرني أنهـا خرافات.. حتى لـو كانـت خرافـات أنـا مازلت خائفـة.. لا تتركنـي بالمنـزل بمفردي بالليـل.. اذهب غدًا بالسـيارة بالنهار» ...»يا هاجـر لا تخافي إن الليل أفضـل لي لكـي أتسـلل دون أن يراني أحـد وفرصة جيـدة أن آية نائمة لأنهـا إن رأتني سـوف تصر على أن تذهب معـي.. لا تخافي، ادخلي إلى غرفة آية وشـاهدي أي أفلام على الحاسـوب لتلهيكِ حتى أعود».. ثم تركها وانصرف وهـي ترمقه خائفة دامعة: «لا تتأخر يا سرور.. لا إله إلا الله.. في حفـظ الله».. فأجابها مبتسـمًا وهو يغلق باب المنزل: «محمد رسول الله.. في حفظ الله.. سأعود سريعًا.. لا تقلقي»..

***

توقف سرور بسـيارته بالقرب من مدخـل متجر عزام وهو يتلفت حوله بقلق.. فلم يجد أحدًا يعيره أي اهتمام، ولكنه سـمع جلبة شديدة أمـام مدخل المتجـر.. حاول أن يقترب بسـيارته أكثر ليسـتطلع الأمر ولكنه لم يستطع رؤية شيء لأن هناك تجمعًا كبيرًا من الناس أمام متجر عـزام.. مـع تزايد الجلبـة تزايد فضـول سرور أكثر وأكثـر فلم يتمالك

نفسه وانسحب من سيارته بسرعة وهو يحاول أن يخفي نفسه وسط الناس دون أن يروه وهو يتحسس سلاحه الناري الذي يخفيه كل بضع ثوانٍ دون أن يشعر.. اندس بين الجموع واستطاع أن يدلف إلى داخل المتجر برشاقة شديدة دون أن يلحظة أحد.. وهنا شاهد عزام يقف وسط 5 أفراد من عماله بالماركت الخاص به وهو يصرخ في الجموع غاضبًا وبوجه محتقن: «لقد أخبرتكم أكثر من مرة أن الأمر أصبح الآن صعبًا للغاية.. نظرًا لعدم استطاعتي الحصول على أي مواد من خارج المدينة بسبب الضباب.. ما لدي الآن في المخازن ليس بالكثير، ولذلك سوف تقل حصص الفرد.. لكل شخص حاجة واحدة فقط في اليوم كي تكفي البضاعة الموجودة لأكثر وقت ممكن.. صرخت به إحدى السيدات: «ماذا تعني بهذا؟ لقد أتيت منذ الصباح وأنا في انتظار حصولي على دوري والين تقول إنه يسمح لي بأن أحصل على شيء واحد فقط!! كيف ذلك؟ إنني أدفع نقودًا.. أريد الحصول على ما أريد في مقابل نقودي».. أجابها أحد عمال عزام: «يا مدام البضاعة لا تكفي أن يأخذ كل شخص ما يريد.. نحن نفعل ذلك من أجلكم كي يستطيع أهل جهينة الحصول على مأكل ومشرب يكفيهم حتى انتهاء ذلك الضباب..»... صرخ به أحد الأشخاص: «لا يهمني الآخرون.. فليذهبوا إلى الجحيم.. أريد أن آكل أنا وأولادي مقابل نقودي التي أدفعها.. نحن لا نطلب إحسانًا من أحد».. أخذ عزام يحدثهم غاضبًا: «ماذا حدث لكم أيها القوم؟! منذ متى نفكر في أنفسنا؟ هل نسيتم أن أهل جهينة تعاهدوا على التكافل والمساعدة بينهم في الضراء قبل السراء.. ماذا حدث لكم؟ أخبرتكم بأن كل

ذلـك لأجل أهل جهينة حتى يسـتطيع أن يتشـارك الجميـع».. قاطعه أحـد الأشـخاص مبتسـمًا: «إذا كنـت ترغب في مسـاعدة أهـل جهينة كـما تدعي إذًا فلتعطِ أهل المدينة ما يحتاجونـه بدون مقابل حتى تنتهي تلـك الأزمة».. نظر له عـزام مصدومًا: «ماذا تقـول؟ أنا أحب جهينة وأهلها بالفعل ولسـت أدعي».. أجابه الرجـل سريعًا وهو يضع علبة لبـن في حقيبـة: «إذًا إثباتًـا لحبك ذلك سـوف نأخذ ما نريـده مجانًا».. هنـا أمن الكثير على قـول الرجل» :نعم.. نعم.. يجـب أن نحصل على ما نريد بدون مقابل.. نحن في أزمة ولا بد أن نتكاتف جميعًا».. ابتسـم الرجـل مـن رد فعل الناس ثـم هجم على الرف المقابـل له وأخذ يضع المعروضـات بسرعـة في حقيبته وهو فرح.. ثم هجـم الناس جميعًا على المعروضـات بالمتجـر وأخـذ الجميـع يتسـابق ويتدافع لأخذ مـا يريد وأخذوا ينهبون ويحطمون في سـباق الفـوضى.. أخذ عزام يصرخ بهم يأسًـا أن يتوقفوا ولكن لا مجيب.. أخذ يـصرخ في عماله الذين حاولوا أن يوقفوا هذا السـيل الجارف من الفوضويين فلم يستطيعوا.. أمسك عزام بأحد السـارقين وقلبه يتمزق من رؤيته يسـلب دون أن يسـتطيع فعل شيء فقام السـارق بلكمه بوجهه بقوة شـديدة وأبعده عن طريقه بعنف شديد.. تألم عزام بشدة وانفه وفمه يسيلان بالدماء وأخذ يتعلق بملابس السـارق وهو يحـاول منعه من إكمال سرقته.. فالقى السـارق بـما في يـده غاضبًـا وهو يلكم عـزام العجـوز بكل قوة وعنـف وعزام يحاول أن يحمي جسـده الضعيـف بيديه اللتين لم تسـعفاه في حمايته من سـيل اللكمات الجارف على وجهه.. واستسلم عزام لأمره وشعر بأنها نهايتـه.. أثناء ذلك كان سرور واقفًا يشـاهد هـذا الجنون وكيف تحول

أهل جهينة الأجلاء المحترمون إلى هؤلاء السارقين.. وأخذ يتعجب: أهؤلاء من يسرقون الآن من كانوا يعايرونه منذ أيام قليلة وينعتونه بالمنبوذ؟! في وسط الحطام والبضائع المسلوبة وصراخ السارقين أخذت بعض السيدات يتصارعن على علبة مناديل ورقية كل واحدة منهن تمسكها بيديها ويصرخن على بعضهن البعض بعنف.. وشخص آخر يتعارك مع عامل المتجر ويلكمه بشدة ويحطم زجاجة عصير على رأسه.. بعض الأطفال الصغار أخذوا يبكون وهم يشاهدون أهاليهم يقتتلون فيما بينهم.. وبعض الأطفال الآخرين حذوا حذو والديهم وانطلقوا يسرقون ويحطمون وهم يضحكون ويعتقدون أن هذا الأمر هو من قبيل اللعب.. لم يعبأ سرور بما يشاهد أمامه ولم يرمش له جفن وهو يتحرك في أرجاء المتجر وسط الفوضى وبين من كانوا ينعتونه بالمنبوذ.. هذا هو أنسب وقت له للحصول على ما يريد في وسط هذا الجنون الذي يحدث.. ولكنه لم يفعل ذلك.. بل كان يركض بسرعة وسط الصراخ والعراك ورائحة العرق ودرجة الحرارة المرتفعة في قلب المكان.. كان يبحث عن عزام.. هذا العجوز الطيب.. أين ذهب في وسط ما يحدث؟ ولم يتمالك نفسه عندما شاهد اللص يلكمه في وجهه بعنف شديد والدماء تكاد تغطي وجهه.. لم يتمالك سرور نفسه في الحال وهب إليه مسرعًا ودفع اللص غاضبًا بقوة شديدة فأسقطه على بعض الأرفف بالماركت.. فوقف اللص غاضبًا وحمل زجاجة عصير وحطمها وأمسكها وهي نصف مكسورة وهو يتوعد سرور ويسبه وينوي أن يفتك به.. هنا بلا تردد أخرج المسدس من خلف ظهره ورفعه على الرجل.. على الفور ألقى اللص بالزجاجة من يده

وهو يطلب الرحمة من سرور ثم ركض خائفًا.. أمسك سرور بعزام في الحال بعد أن وضع سلاحه خلف ظهره ورفعه من كتفه وأخذ يتحرك به جهة أحد المقاعد القريبة وأخذ يمسح وجهه بملابسه من الدماء.. وعزام ينظر له خائفًا: «من أنت؟ من أنت؟».. فأجابه سرور وطمأنه: «لا تخف. أنا سرور بكري.. لم تحضر في ميعادك فقلقت عليك وأتيت الآن وشاهدت ما يحدث..»

أخذ عزام يتعلق بملابس سرور مترجيًا: «سرور.. أرجوك.. أنقذ متجري.. سنوات عمري جميعها في هذا المتجر.. لا تجعل هؤلاء الحثالة يسلبونني.. أرجوك ساعدني يا سرور».. أومأ سرور برأسه إليه ثم تركه وهو يتقدم ببطء إلى مدخل المتجر.. لا يعلم ماذا يفعل.. وكيف سيوقف هذا الجنون الذي يحدث أمامه.. ولكنه لم يتوقف.. جسده أخذ في الارتعاش وتعالت دقات قلبه في الحال وهو يقف أمام المتجر ويشاهد الجميع وهم يتكالبون على متجر عزام كما تتكالب الذئاب على لحم شاة بضة.. لم يشعر بنفسه إلا وهو يقوم بدفع سيدة حاولت الخروج من المتجر بمسروقاتها الثمينة.. فسقطت على الأرض سريعًا إثر دفعة سرور وأخذت تصرخ به وتسبه.. هنا أخرج سلاحه الناري أمامها ويده مرتعشة.. فصرخت السيدة خائفة ومع صراخها ارتعشت يد سرور أكثر.. وأكثر وانتاب الهلع قلبه وأخذ يفكر مرتاعًا كيف سيستطيع إيقاف الجميع بمفرده.. هنا تفاجأ سرور بثلاثة أشخاص يحملون سرقاتهم وينوون الخروج من المتجر ليجدوا سرور واقفًا أمامهم وهو يرتعش بسلاحه يسد الطريق عليهم.. صدموا من

رؤيتهم لسرور في البداية ولكن بعد ذلك ضحك أحدهم ساخرًا وهو يشـاهده يرتعـش: «ما هذا؟ إنه خائف منا.. إنـه يرتعش كالأطفال».. فأخـذ الجميـع يضحك عليـه وتحدث شـخص آخر بجـواره: «ههههه إنـه خائف بالفعل.. مـاذا.. أليس هذا هو سرور المنبوذ؟».. هنا شـعر سرور بالغضـب الشـديد عند سـماعه لقـب منبوذ ولم يـتردد في الحال بـأن يضغط على زنـاده.. فانطلقت رصاصة في الحال لتستـقر في كتف الرجل.. فصرخ بشـدة.. صوت إطلاق النار مـع صريخ الرجل متألمًا جعـلا الرجال مرتاعين.. ذلك الموقف أثار انتبـاه جميع مرتادي المتجر وجعلهـم يقفون بالقرب من مدخله وهم سـاهمون يشـاهدون سرور بسـلاحه الذي أخذ يرتعش أكثر وأكثر ولكنه وضع يديه الاثنتين بقوة على السـلاح وهو يشـهره جهتهم.. فسـأل أحدهم شـخصًا بجواره: «ماذا يحدث؟».. فأجاب سريعًا: «لقد أطلق سرور النار على سـعيد.. إنه سيقتلنا».. أخذ الجميع ينظرون الى سرور خائفين: «سرور.. سرور المنبـوذ».. شـعر سرور بالغضب مرة أخرى.. فقـام بإطلاق النيران في الهـواء وهو يصرخ بهم: «نعم أنـا سرور بكري أيها اللصوص.. سرور بكـري الذي كنتـم تنعتونـه بالمنبوذ وتقولـون عنه مجرمًـا.. انظروا إلى حالكـم الآن.. مـن هو المجـرم الآن».. تأبـط عزام ذراع أحـد العمال مسرعًـا وتقـدم بجهـة سرور وهو يضحك ويشـد على كتفـه: «سرور أشكرك أيها الشجاع.. لا تترك هؤلاء الأوغاد يسرقون متجري»..

هنـا قـام سرور في الحـال بالتحـدث إلى عـمال المتجـر: «اذهبوا إلى الأبـواب وأغلقوها جميعًا واتركـوا بابًا واحدًا مفتوحًا».. ثم تحدث إلى

الجمـوع بالمتجـر: «وأنتم أيها الأوغاد.. فلتتركـوا جميع ما تحملونه على الأرض بجواركـم.. ولتغادروا الآن ولا يعُد منكم أحد.. ومن يحاول أن يقـترب من هذا المتجر لسرقته مرة أخرى سـيجدني بالمرصاد.. منذ هذا اليوم السيد عزام ومتجره تحت حمايتي».. هنا قام الجميع بالامتثال لأوامـره في الحال وخرجـوا مرتاعين من الباب المفتـوح بعد أن تركوا ما كانـوا يحملونـه وأخذ بعض الرجال يحملون سـعيد المصـاب بعيدًا وهـو ينزف بغزارة وسرور يراقـب رحيله قلقًا.. ولكنـه تصنع الجدية عندمـا شـاهد عـزام وعـمال المتجـر يربتون عـلى كتفه ويغدقـون عليه كلمات الثناء والمديح..

* * *

دلف عصام إلى أحد مداخل البنايات التي كان يجلس بداخلها عدد مـن الجنود يشـاهدون التلفاز باهتمام شـديد وسـأل أحدهم في الحال: «أين العقيد سراج؟ لم أجده بشـقته».. أجابه سريعًا: «إنه ينام على أحد الأسرَّة بالداخل.. شـعر عصـام بالاندهاش ودلـف إلى الغرفة سريعًا ليجـد سراج يغـط في النـوم على أحـد الأسرَّة الصغيرة وبجـواره على الكوميد فرشاة أسنان صغيرة وأنبوبة المعجون.. أخذ يتلمسهما عصام بيديه للحظات متعجبًا ليجد سراج مسـتيقظًا ينظر إليه: «عصام.. لقد أتيت.. كم الساعة الآن؟»..

«إنهـا التاسـعة والربـع.. أخـبرني لمـاذا كنـت تنـام هنـا ولم تنـم في شـقتك؟».. أخذ سراج يمسـح عينيه بيديه وهو يفركهما بشـدة قائلًا: «لا.. لا يوجد سبب.. أخبرني لماذا تأخرت لهذا الوقت؟».. قام عصام

بإعطائه الفرشاة ومعجون الأسنان فأمسكهما سراج ووضعهما في جيبه.. «لقد تأخرت بسبب قيامي ببعض التجارب كما تعلم.. وأيضًا أثناء عودتي ظللت أتابع أحاديث أهل المدينة عن هذا الشبح المزعوم»..

أخذ سراج يتلفت حوله خائفًا: «شبح.. شبح.. أين.. أين؟»..
اندهش عصام من ردة فعله: «لا يوجد شبح أو شيء يا سيد سراج.. أنا كنت أخبرك بما يتحدث به أهل المدينة فقط».. ابتلع سراج ريقه في الحال: «نعم.. نعم حسنًا».. ثم أخرج الفرشاة ووضع المعجون عليها وأخذ يفرش أسنانه بعنف.. لم يعلق عصام عليه فلقد اعتاد رؤية هذا المشهد مع سراج.. انتظره قليلًا ثم تحركا معًا إلى خارج البناية والجنود وقفوا متنبهين وأعطوا سراج التحية العسكرية وبادلهم سراج بعدم اهتمام واتجه مع عصام إلى بنايتهم..

سأل سراج عصام بقلق: «أتظن أننا سنظل هكذا كثيرًا يا عصام.. لا نعلم شيئًا عن العالم والعالم لا يعلم شيئًا عنا».. أجابه عصام: «بالتأكيد لا يا سيد سراج.. أنا متأكد بأن الشرطة بالخارج والحكومة ستبحث عنا وستجدنا»..

أخذا يتحركان في الشارع جهة المبنى.. «ولكن متى يا عصام.. متى؟ لقد مرت بالفعل عشرة أيام.. كيف لم يستطيعوا العثور علينا؟ هل اختفينا عن سطح الأرض أم ماذا؟»..

.. أومأ برأسه نافيًا: «لا أعلم يا سيد سراج.. لا أعلم.. أنا لم أحلم في حياتي أن أمر بتجربة كالتي نحن بها الآن.. الأمر صعب للغاية.. وإذا كان الأمر مستعصيًا على الحكومة المصرية فبالتأكيد لن يستعصي على

الحكومة الأمريكية فأنا أحمل جنسيتهم وأعمل لديهم بالتأكيد سوف يبحثون عني وهذا شيء أنا على يقين به.. سيجدوننا آجلًا أم عاجلًا سواء عن طريق البحث الحراري أو الأقمار الصناعية.. ولكن الأهم الآن أن نستطيع أن نسيطر على زمام الأمور كما هي في المدينة»..

«الأمر صعب يا عصام.. كل يوم يترامى إلى أذني عدم انصياع الجنود للأوامر ولا أحاول أن أشق عليهم حتى لا يعلنوا العصيان.. المدينة الآن في وضعها الحالي لا تتحمل عصيانًا مسلحًا.. لهذا أنا سحبت الذخيرة الحية من الجنود وأخفيتها.. ولولا ذلك لكان حدث الأسوأ»..

«لا تقلق يا سيد سراج.. إذا ظللنا أنا وأنت وعمدة المدينة وكبار العائلات مسيطرين فسوف نحافظ على وضع المدينة كما هي».. توقف عصام وسراج عند باب منزل سراج الذي تحدث إليه مترجيًا: «أخبرني يا عصام.. لماذا لا نجلس معًا في شقتي.. نأنس ببعض ونتحدث.. أنا أصبحت أكره الجلوس بمفردي»..

ابتسم عصام: «حسنًا يا سيد سراج.. أنا أيضًا أشعر بالضيق والملل من جلوسي بمفردي.. هيا بنا لنؤنس بعضنا».. فابتسم سراج وربت على كتفه وفتح باب شقته ودلفا جميعًا إلى الداخل.. أشعل سراج الإضاءة في الحال وأخذ يتلفت حوله في الشقة فوجد كل شيء عاد إلى وضعه ومكانه فابتلع ريقه وتقدم وهو يسمي الله ويحوقل.. وأخذ يشير إلى مكان الحمام والمطبخ لعصام وجلس في غرفة المعيشة على الطاولة والمقاعد وهو يتفحصها قلقًا بينما كان عصام يأخذ حمامًا دافئًا

وخـرج سريعًا فدلف سراج وأخـذ حمامًا دافئًا هو أيضًـا وقام بحلاقة ذقنـه وقامـا بتناول العشـاء وجلسـا في غرفـة النوم وتمـدد سراج على السرير بينما افترش عصـام إحدى الأرائك في الغرفة وأخذا يتحدثان: «أتعلـم يـا عصام.. لقـد كنت أبحـث دائمًا عن شيء يثـيرني ويخرجني مـن حالة الملل التي أصبت بها في عملي وبـين زوجتي وأطفالي.. كنت أكـره الروتين وتكـرار الأمور كما هـي.. ولكن بعد مـا حدث لي الآن أشـعر أني كنت في نعمة كبيرة وقد زالت من يدي.. اللعنة على الإثارة والتغيير.. لا يأتي من ورائهم خير أبدًا».. أخذ عصام يبتسم: «أنا أيضًا مثلـك.. كنت أعتقد أن العـالم الذي نعيش به قد انتهى أمره ولا يوجد شيء به يسـتحق أن نبحث في أمره ولذلك كنت أتطلع دائمًا إلى السـماء ونجومها أحاول تخيل العيش بين النجوم وعلى الكواكب الأخرى غير المكتشـفة.. أحاول أن أنظر بعيوني إلى المجهول.. إلى المشـتري والمريخ وتلك الأجرام التي كنت أسـمع عنها وأنا صغير لا أفقه شـيئًا.. حلم حياتي أن أحدق في أرضها وسـمائها والأجرام المحيطة بها.. أحاول أن أخرج إلى خارج كوكب الأرض وإلى خارج مجموعتنا الشمسـية. .بل إلى خـارج مجرتنا بالكامـل.. وخارج ملايين المجـرات التي تحيط بنا.. كنت أتخيل أني أسـتطيع أن أعلم عن أسرار كوكبنا وحياتنا بداخله إذا بحثـت عن أصل الحياة في أماكـن أخرى.. ولكن تجربتي هنا في جهينة أثبتت لي أنني كنت سـاذجًا.. ساذجًا وأحمق للغاية.. أي ما كان يحدث في تلك المدينة.. أثبت أننا لم نستطع الوصول إلى أسرار كوكبنا الصغير هذا.. فكيف لنا أن نفكر في كشف ألغاز هذا الكون الفسيح؟ ما حدث جعلني أدرك أننا مصابون جميعًا بالغرور والعمى والأنانية نظن أنفسنا

مسيطرين على مجرى العالم وبالفعل أصغر شيء يستطيع أن يؤثر على حياتنا جميعًا ويسير بنا للجحيم».. أخذ سراج يضحك ساخرًا: «من أين أتت إليك كل تلك الحكمة يا عصام.. هل حولتك جهينة إلى فيلسوف فجأة؟»..» لا يا سيد سراج.. الأمر برمته أنني اكتشفت أنني رغم كوني عالمًا مازلت لا أعلم أي شيء عن أي شيء.. كنت بالفعل أختال بعلمي ومعلوماتي وعقلي.. لكن كل ذلك لم يغنِ عني بتفسير شيء واحد فقط حدث على أرض جهينة هنا»..

«..لا تشق على نفسك يا صديقي أنا أيضًا لا أعلم.. ولا مازن العمدة ولا كريم ومساعدوه ولا أي شخص آخر.. أكاد أجزم بأنه لا أحد يعلم ما يحدث في تلك المدينة المجنونة بعد الآن».. أخذ يشير إليه بيده أن يتوقف: «أنا سئمت من جهينة والحديث عنها.. أتمنى يا صديقي أن نتجاذب أطراف الحديث عن شيء آخر غيرها».. ابتسم عصام في الحال: «نعم.. نعم.. أشعر بما تمر به.. سوف نتحدث عن شيء آخر وبتلك المناسبة هناك شيء يؤرقني منذ فترة كبيرة وكنت أشعر بالخجل من سؤالك عنه»..

.. «اسألني يا صديقي عما تريد»..

أخذ يعتدل في جلسته وهو يحاول أن يتحدث أكثر من مرة ويتردد: «حسنًا.. اممممم.. سؤالي هو.. اممممم.. احمم.. عن شيء تفعله كثيرًا.. ولا تؤاخذني على سؤالي ذلك ولكن أنت تعلم الفضول»..

«أخبرني ما هو سؤالك»..

«حسنًا.. أنت تغسل أسنانك كثيرًا وفي أوقات غريبة للغاية وأمام الناس دون أن تشعر بالخجل.. وأنا أرى هذا الشيء من وجهة نظري غريب للغاية.. وأتمنى أن تسامحني على تدخلي الأحمق هذا.. أنا آسف»..

ابتسم سراج خجلًا وأخذ يطأطئ رأسه وهو يقهقه بصوت هادئ: «لا.. لا عليك.. هل لهذه الدرجة كنت أفعل هذا الأمر دون أن ألاحظ؟»..

«هذا يعني أنك لم تكن تشعر بفعل هذا الأمر أمامنا.. أنا كنت أعتقد أنك تفعله بإرادتك»..

شعر سراج بالإحراج: «احمم.. هو.. الأمر.. به شيء قديم بالنسبة لي.. كثيرًا ما كان البعض يحدثني عن هذا الأمر في السابق لكن الآن لم يعد أحد يحدثني عنه.. يبدو أن ذلك بسبب وظيفتي الآن»..

« إذا كان سؤالي هذا سيسبب أي شيء لك.. آسف أني قلته ولن أسألك عن هذا الأمر مرة أخرى»..

«لا.. ليس الأمر خطيرًا لهذه الدرجة ولكنه يذكرني بذكرى قديمة حدثت لي.. سوف أخبرك الآن بقصتي باختصار.. أنا سليل عائلة كلها ضباط.. منذ جدود جدودي.. منهم من كان في الجيش أو الشرطة.. حتى أبي وأعمامي كلهم كانوا ضباطًا.. ولهذا كانوا دائمًا ما يهتمون بالانضباط والروتين والصرامة حتى في معاملتهم مع أبنائهم.. وكان أبي نفس الأمر ولكنه كان أكثر أفراد العائلة تقديسًا

للروتـين وللصرامـة.. كان كل شيء لديه بميعاد ووقت معين.. الأكل والـشرب والنوم والاسـتحمام.. حيـاتي كلها كانت مبنيـة على جدول مرسـوم على الحائط منـذ ولادتي وأنا أفعل ما بـه.. وظل الأمر كذلك حتـى وصلـت إلى المرحلة الإعدادية وهنا قام والدي بادخالي مدرسـة عسـكرية داخليـة.. وتركنـي مطمئنًا أني سـوف أزداد حبًّـا في الروتين والانضبـاط، ولكن حدث العكس تمامًـا.. لن تصدقني عندما أخبرك بأني وجدت أن المدرسة العسكرية تلك أقل صرامة بكثير مما كان يفعله معـي أبي بالمنزل.. ولهذا وجدت لنفسي متنفسًـا هناك ألعب مع أقراني وأتسامر معهم.. عشت جزءًا من طفولتي المفقودة وكانت تلك الفترة مـن أجمل أيام حياتي بالفعـل.. تركني والدي بالمدرسـة لمدة عام كامل لكي يجعلني أشـعر بالصرامـة ولا أحتاج إلى التدليـل وحب الوالدين كما كان يعتقد وهذا العام مر بي سريعًا وكان مليئًا بما أحب وأشـتهي.. ولكنـه انتهى بفعل أثر بي طول حياتي حتى الآن.. حيث عدت في أحد الأيام من تمرين الصباح بالمدرسة لأجد أمي وأبي في انتظاري بغرفتي.. شعرت بالفرح الشديد عند رؤيتهما وأخذت أمي تنهال علي بكل حب وتقبلني وتحتضنني بكل شوق.. انسابت مشاعري وأشجاني.. مازلت أتذكـر حضنها الدافئ وقبلاتها وتنفسـها بجانب أذني حتى الآن.. لقد ارتسـمت تلك اللحظة من حنان أمي في مخيلتـي، وأظنها لن تندثر إلى الأبـد، وذلك بفضل ما حدث بعد ذلك.. ابتسـم لي أبي حين رآني وأنا ابتسـمت لـه فرحًـا ولكني لم أبـادر بالتحـرك جهته حتى بـادر هو كما عودني.. ولكن عندما شـاهد أبي ابتسـامتي تحول وجهـه بطريقة مخيفة ونظـر لي نظرة جعلتني أتمنى أن تنشـق الأرض وتبتلعنـي ولا يرمقني

بتلـك النظرات مرة أخرى.. لقد غضب مني بشـدة.. وبدون أن أعلم السـبب قام بصفعي بيده بقوة شـديدة طرحتنـي أرضًا وصرخت أمي بخوف عـلي واحتضنتني.. ثم ذهب إلى خـارج الغرفة غاضبًا وصرخ على مدير المدرسـه للحظات وأخبره بأن يحضر جميع التلاميذ بالمدرسه الآن في طابور نظامي في باحة المدرسة وبالفعل نفذ المدير أوامره بدون تردد.. ثم سـحبني أبي من يدي وهو يـصرخ بي وأنا أرتعد من الخوف لا أعلـم مـاذا فعلت لكل ذلك.. كل ما فعلته أنني ابتسـمت له فقط.. لم أشـعر بنفسي إلا عندما وجدتني أقـف في صف واحد مع أبي ومدير المدرسـة وأمامـي يصطـف جميع الطلاب مـن كافة المراحـل التعليمية يرمقونني مندهشـين.. لم تتحمل قدماي ما يحدث معي وسـقطت على الأرض خوفًا.. ولكن صفعة من يد أبي مع صرخة انتباه جعلتني أقف منتظمًا في مكاني على الرغم من ارتعاد قدميَّ وجسدي بشكل واضح.. أخذ أبي يصيح في التلاميذ والمدرسين وهو غاضب ويخبرهم عن مدى الإهمـال الذي يحدث في تلك المدرسـة.. ثم أشـار إليَّ بيـده وهو يحمل فرشـاة الأسـنان والمعجـون.. وصرخ بأن أسـناني متسـخة وهذا يدل على عـدم الاهتمام بالطلاب وتنفيذ الأوامر لأن أسـناني كانت صفراء وهذا يدل على أني لم أقم بغسلها لفترة طويلة.. ثم طلب مني أن أغسل أسـناني لمدة خمس دقائق كاملة أمـام جميع الطلاب لكـي يتعلم الباقي أنـه لا تهـاون في تنفيـذ الأوامر بعد ذلـك.. وهنا أخذت أفرك أسـناني بالفرشـاة في عنـف شـديد وأنا أبكي متوتـرًا.. لشـعوري بالإهانة من معاقبتي أمام أصدقائي وزملائي ومن رؤية باقي الطلاب يتضاحكون ويتندرون علي.. ومنذ تلك اللحظة لم أتوانَ عن غسـل أسـناني وتنفيذ

الأوامـر المكلف بها أبدًا حتى ولو كانت الذهاب إلى بلاد واق الواق.. ويبدو أن غسـل أسـناني هكذا أصبحت عادة أفعلهـا بدون وعي مني عندما أتوتر.. هل علمت لماذا يحدث هذا معي يا صديقي؟» ..

«أنا آسـف يا سيد سراج لأني جعلتك تتذكر تلك اللحظات السيئة في حياتـك.. أنـا لم أكن أقصد ذلك»... «لا تقلـق يا صديقي ليس لك ذنـب فيما حدث لي بالسـابق.. أو مـا يحدث لي الآن.. يبدو أنني سـيئ الحظ.. وأنت أيضًا سيئ الحظ لأنك عالق معي الآن... هههههه»..

أخذ عصام في فرك رأسـه وهو عابس: «أنا لا أعتقد بأنه سـوء حظ أكثـر مـن كونه جهـلًا منا الآن بـما يحدث حولنـا.. فبالفعـل إذا عرف السـبب بطل العجب.. وأنا لن أتوانى عن محاولة فك هذا اللغز الذي يحدث معنا هنا.. سـوف أحاول الكشف عنه والتدبر في أحداثه خلال الأيام التي أمكث بها هنا»..

أخـذ سراج ينظـر حوله مـترددًا وهو يحاول أن يتحـدث إلى عصام ولكنـه يتراجع بعـد لحظات.. لكنه تحـدث إليه على مضـض بالنهاية: «أخبرني يا عصام.. هل.. اممـم.. تعتقد في وجود الأشباح بالفعل..؟»

ضحك عصام بشـدة وتحدث إليه ساخرًا: «أشباح.. أشباح.. حتى أنت يا سيد سراج بدأ أهل المدينة بإقناعك بهذه الخزعبلات؟!».

اعتـدل سراج في جلسـته حانقًا: « بعد كل مأشـاهدنا ويحدث معنا من عجائب وغرائب بجهينة.. وأنت غير مقتنع بوجود الأشباح!»..

«يـا سـيد سراج.. أشـباح مـاذا.. إن كل ذلـك مـن وحـي خيـال أهـل المدينـة.. الاضطراب والقلـق والتوتر الناتج عـما يحدث يجعلهم يشـاهدون كل تلـك الهـلاوس والخزعبلات.. وبالتأكيـد هناك بعض الصبيـة أو الأشـخاص مـن يفعـل تلك المقالب وينسـبها لهذا الشـبح المزعوم ليخيف أهل المدينة.. وهذا خطر للغاية.. إذا تملك الخوف من الناس فإنهم قد يفعلون أي شيء وسيتغافلون عن المنطق»..

« أي منطق مازال قائمًا فيما يحدث؟ أمازلت تتحدث عن المنطق؟ إن ما يتناوله أهل المدينة حقيقي بالفعل.. لقد شاهدت بالفعل هذا الشبح في منزلي هذا الصباح»..

اندهـش عصـام مـن قـول سراج.. «مـاذا؟! شـاهدته.. كيـف؟! اشرح لي»..

«لقـد حدثت معي تلك الأمور المخيفة التي تحدث من الأشـباح.. لقـد انطفأت الأنوار فجـأة.. وتحرك الأثاث من تلقاء نفسـه وحدثت أمور مخيفة»..

ابتسـم عصـام: «لا تقلق.. لقـد أخبرتك بأن كل تلـك الأمور هي خدع يقوم بها شـخص مـا.. وخوفك وتوترك جعلك تشـعر بأنها من فعل أشباح بالفعل»..

أخذ سراج يدافع عن نفسـه غاضبًا: «هـل أنا طفل صغير يا عصام لكي يخدعني شـخص ما؟ إنني أخبرك بأني رأيت أفعال ذلك الشـبح

بنفسي».. ثم أخرج هاتفه من جيبه ووضعه بجواره بعنف.. «وهاتفي الذي بدون شبكة منذ أن أتينا.. لقد أخذ يرن أمامي»..

ظل عصام يتحداه ضاحكًا: «إذًا لماذا ظهر هذا الشبح المزعوم لك أنت فقط؟ أنت أخبرتني أنه بالشقة.. فليظهر لي أنا أيضًا».. ثم أخذ يصرخ وهو ينظر حوله ساخرًا: «أنت أيها الشبح المزعوم.. فلتظهر لي أنا أيضًا.. أنا لست خائفًا منك.. إني أتحداك.. هيا اظهر الآن أيها الجبان»..

أخذ سراج يتلفت حوله قلقًا.. وعصام يحدثه ساخرًا وهو يشير إليه بيده: «أرأيت.. لا يوجد في هذا العالم ما يسمى بالأشباح.».... لم يكمل عصام حديثه حتى رن هاتف سراج فجأة بجوارهما.. فقفز سراج فزعًا وتعلق بعصام الذي دب القلق في قلبه وهو يشاهد الهاتف وهو يرن أمامه.. ابتسم سراج متشفيًا وهو خائف: «أرأيت.. أرأيت بنفسك أن هاتفي يرن كما أخبرتك؟».. ابتلع عصام ريقه بالحال ثم ابتسم: «إذًا هذا خبر سار للغاية.. نستطيع أن نخبر المتصل بأوضاعنا ونطلب منه المساعدة.. وقفز إلى الهاتف سريعًا وأمسكه بيده وهو يرن بقوة.. أخذ ينظر إلى الهاتف فوجد رقم يتصل به بدون اسم.. ففتح الهاتف سريعًا ووضعه على اذنه.. فسمع أصواتًا متداخلة وكهرباء استاتيكية قوية صوتها يكاد ينفذ إلى خارج الهاتف.. تحدث عصام في الحال متمنيًا أن يسمعه الطرف الآخر: «آلو.. هل تسمعني؟ أنا العالم عصام ناجي ومعي العقيد سراج توفيق.. نحن بداخل جهينة ولا نستطيع الخروج منها.. آلو.. آلو.. هل تسمعني؟»..

هنـا انطفأ نور المنزل بأكمله.. فشـعر سراج بالخوف الشـديد وظل يـصرخ على عصام بجواره: «عصام.. أرأيـت.. لقد أغلق النور.. هل رأيت.. هل صدقتني؟»..

أخذت يد عصام ترتعش بالرغم عنه وهو ينظر إلى يده غير مصدق.. حـاول أن يوقـف الارتعاش بالقوة وهو ينظـر إلى الهاتف الذي انقطع الاتصـال به.. فأعطاه لسراج وأخبره أن يشـعل مصبـاح الهاتف لكي يسـتطيع أن يرى في الظلام، وامتثل سراج له في الحال وأشـعل مصباح هاتفـه وأخذ يضيء به بداخـل الغرفة.. فطلب منه عصام أن يخرجا إلى خـارج الغرفة لكي يبحثا عن مفتاح الكهرباء.. فأومأ سراج له برأسـه وخرجـا من الغرفة وقام عصام بإشـعال مصباح هاتفـه وأنار به غرفة المعيشـة.. اتجه عصـام إلى مفتاح الكهرباء وفتـح علبتها ونظر بداخلها ليجد مفتاح الكهرباء مغلقًا.. فرفعه وعادت الأضواء في الحال.. فنظر إلى سراج فوجد وجهه محتقنًا وهو خائف.. فابتسم عصام له ليطمئنه: «لا تقلـق يـا سـيد سراج.. لا يوجـد شيء كـما أخبرتك.. ولا أشـباح أو غـيره».. هنا جحظت عينـا عصام ووقفت دمـاؤه في عروقه عندما شـعر بأن أحدًا ما يمسـكه من تلابيبه ودفعه بقوة شـديدة جدًّا إلى آخر غرفة المعيشـة ليسـقط على الأرض.. صـدم عصام مما يحدث بشـدة.. ووجد سراج يصرخ وهو يتراجع خائفًا: «إنه الشبح.. إنه الشبح»..

أخـذ عصـام ينظر إليه مذهولًا ممَّا يحدث.. وفجـأة وجد مقعدًا من مائدة الطعام يسـحب بشـدة ويرفـع في الهواء ثـم يتحطم على الأرض بجواره.. هنا قفز عصام مرتاعًا مرتعشًا جهة سراج.. وهو يشاهد قطع

الأثاث تسحب في الهواء وتلقى في جميع أنحاء الغرفة حولهما ثم صدر صوت صريخ قوي جدًّا.. هنا لم يشعرا بأنفسهما إلا وهما يركضان جهة الباب يحاولان فتحه وهما يصيحان خائفين.. ولكنهما وجدا أنفسهما يدفعان بعيدًا عن الباب بعنف شديد للغاية فابتعدا للوراء خائفين.. وهنا أغلقت الأنوار فجأة وظهرت أمامهما شعلة نار صغيرة تتحرك في الظلام وتلتف بأنحاء الغرفة.. أخذ سراج يشعل هاتفه هو وعصام وهما يثبتانهما خائفين ويقرآن القرآن في فزع وهما يصرخان ويطلبان النجدة.. وهنا وجدا أن النيران تتحرك على الحائط وتكتب حروفًا بعربية غير متساوية: «أميرة.. ابحثا عن أميرة».. فصرخ عصام: «مَن أميرة؟ من أنت؟ وماذا تريد منا؟».. فوجد النيران انطفأت من على الحائط ثم كتب عليها مرة أخرى: «أميرة ستخبرك...».. وهنا سمعا صوت طرْق شديد على الباب وصوت كريم يصرخ عليهما: «دكتور عصام.. سراج باشا.. ماذا يحدث هنا؟ ما هذا الصراخ؟»..

هنا صرخ سراج وعصام في الحال على كريم: «نحن هنا.. افتح الباب.. أنقذنا يا كريم».. هنا أجابهما كريم بسرعة وهو يحاول تحطيم الباب بقوة.. أطفئت النيران من على الحائط بسرعة وكتب سريعًا بدلًا منها: «لا تصدقوه.. ابحثوا عن أميرة».. فصرخ سراج خائفًا: «أنقذونا.. أنقذونا».. فجأة صدرت أصوات كثيرة من خلف الباب لعدد من الجنود وهم يتحدثون ويحاولون تحطيم الباب.. هنا نظر عصام باهتمام إلى الرسالة على الحائط فتحدث إلى الشبح وهو يصرخ: «لا نصدق مَن؟ من تقصد بكلامك؟»..

هنا انطفأت النيران وكتبت سريعًا كلمة: «كريم»..

حطـم الجنود الباب في الحال، ودلفوا إلى المنزل بصحبة كريم الذي ذهـب سريعًا إلى مفتـاح الكهرباء وأضاء الغرفـة ليجد عصام وسراج مرتاعـين عـلى الأرض فحدثهما وسـألهما عما يحدث.. فأخـبراه بكامل القصـة وأن الشـبح أخبرهمـا أن يبحثـا عن أمـيرة.. فنظـر إليهما كريم مندهشًـا وهو يحدث نفسـه: «أميرة.. تلك الفتاة المنبـوذة.. ألم يخبركم بشيء آخر؟».. أجاب سراج نافيًا: «لا.. لم يخبرنا بشيء آخر»..

فأخذ كريم يحدثهما مبتسـمًا ويطمئنهما.. بينـما أخذ عصام يفكر فيما حـدث منذ قليل وهو يشـعر برد فعل كريم الذي كان يسـألهما عمَّا قاله الشبح ولم يشكك في كلامهما.. وهنا بدأ عصام يرتاب فيما يحدث..

* * *

(لا أتذكر)

ظِـلٌّ أسـود طولـه يتعـدى المترين يقـف في وسـط المدينـة دون أن يلحظه أحد، ولكن أميرة كانت تقف وتراه من بعيد.. يشعر بها الظل، وتضحي عيونه في ظهره.. يراها فيصرخ ويهجم عليها في الحال..

تحـاول أن تركض خائفة ولكنه يرفع يده الضخمة بقوة ويهوي بها على رأسها..

تسـتيقظ أمـيرة صارخـة.. تتحسـس جسـدها، وعرقهـا يغـزو جسدها.. تأتي عمتها إليها مسرعة وتجلس على سريرها وتحدثها قلقة: «ماذا هنالك يا بنيتي؟ ماذا ألمَّ بكِ؟»..

أجابتهـا بأنفـاس متقطعة: «الكابـوس.. الكابوس الـذي يراودني كل ليلـة يـا عمتي.. هذا الظل الأسـود اللعين الذي يـأتي إليَّ في منامي كل يوم»..

«لا تقلقـي يـا بنيتي.. اقرئـي بعض آيـات القـرآن الآن ولْتخلدي للنـوم ولـن يصيبـك مكروه بـإذن الله.. ثـم صبت كوب مـاء من على المنضدة وأعطته لأميرة التي تناولته في الحال.. ثم هدأت بعد لحظات: «أشكرك يا عمتي. لقد أصبحت أفضل الآن.. اخلدي إلى النوم الآن.. سـوف أنام أنـا أيضًا...». ربتـت عمتها على كتفهـا تطمئنها ثم تركت

الغرفـة سريعًا.. وراقبت أميرة خروجها للخارج ثم أمسـكت رأسـها تفكر.. لماذا ترى هذا الحلم لأكثر من أسبوع بصفة مستمرة؟ هل الأمر لـه علاقـة بما يحدث في جهينـة.. أم أن الأمر كله مجـرد مصادفة؟.. هنا شـعرت بشيء حولها في الغرفـة.. فنظرت حولها مرتابـة.. ثم وجدت إحدى مذكراتها التي تكتب بها ملاحظاتها تسـقط على الأرض فجأة.. قفزت مسرعة من مكانها وهي تمسـك بمذكرتها وتقرأ بعض الكلمات مكتوبـة بخـط يدها.. وكانت دهشـتها كبـيرة لأنها أول مـرة تقرأ هذا الكلام على الرغم من أنه بخط يديها.. أخذت تقرأ بتمعن شديد وهي تقلـب الأوراق بسرعة وهي مندهشـة بشـدة.. أيعقل بـأن يكون هذا الأمر حدث بالفعل؟!

❋ ❋ ❋

في صباح اليوم التالي.. أخذ عصام وسراج على عاتقهما معرفة اللغز الذي حدث لهما بالأمس مع ذلك الشبح، فقررا الذهاب إلى أميرة تلك المنبوذة التي سـمعا عنها، ولكـن لم يرياها قبل ذلك.. تحرك الاثنان إلى خارج المنزل ليجدا كريم في انتظارهما بسـيارته مبتسمًا: «صباح الخير.. أتمنى أن تكونا استطعتما النوم بعد ما حدث لكما بالأمس»..

أجابه سراج عابسًا: «لا تذكرني يا كريم بالله عليك.. لقد كانت ليلة سوداء على رأسي.. واستطعت النوم في شقة عصام بشق الأنفس»..

ابتسـم كريم له ثم توجه إلى عصام بسؤال: «وأنت يا سيد عصام.. هل استطعت النوم جيدًا بالأمس أم لا؟»..

أجابـه عصـام بحـدة: «ماذا تفعـل هنا؟».. نظـر إليه كريـم مبتسـمًا ومتحـيرًا مـن سـؤاله:» لا شيء، لقـد اسـتيقظت مبكـرًا وأنـت تعلم أنـه لا يوجـد أي شيء لفعلـه في المدينـة الآن أفضل مـن صحبتكم كما نفعل يوميًّا»..

« لا.. نحن نشـكرك.. سـوف نقوم ببعض الأعـمال السرية اليوم، ولا نريد أن نُعلم بها أحدًا حتى أنت»..

شعر كريم بالإحراج: «حسنًا.. أنا آسف.. سوف أترككما بمفردكما كـما تشـاءان.. ولكني رهـن أمركما في أي وقت.. سـوف انتظر هنا مع الجنود.. إذا أردتما مني أي شيء فسوف تجدانني هنا»..

تحرك عصام وسراج وتركا كريم يرمقهما بنظرات غاضبة خلفهما.. هنا نظر سراج خلفه قليلًا ثم تحدث إلى عصام مستفسرًا: «لماذا تعاملت بغلظة هكذا مع كريم يا عصام؟ إنه شاب دمث الخلق وخدوم»..

«ألم تقـرأ مـا كتبـه هـذا الـشيء الذي ظهـر لنـا بالأمـس.. ألا نثق في كريم؟»..

أجابـه سراج غاضبًـا: «هـل جننت؟ هل سنسـتمع لحديث شـبح ولا نثق في شـخص كان يساعدنا وينفذ كل رغباتنا؟!».. أجابه عصام بثقـة: «أنـا متأكد بأن ما شـاهدته بالأمـس لم يكن شـبحًا ولكنه مؤكد سـوف يكـون بداية حـل اللغز لما يحدث هنـا بجهينة.. ونحـن بالفعل اسـتمعنا لحديثه.. ألم يأمرنـا بأن نبحث عن تلك المنبـوذة أميرة ونحن نفعل ذلك الآن؟»..

«ولكـن أنـا وأنـت لا نعلـم أي شيء عـن تلـك المنبـوذة أو أيـن تمكـث الآن.. ألم يكـن مـن الأفضل أن نأخـذ كريم معنـا كدليل لكي نصل إليها؟»..

« لا.. كريـم هـذا أصبحـتُ لا أثـق بـه.. لا أعلـم لمـاذا ولكن منذ الأمس وأنا أشـعر بالنفور منه.. أما عن أميرة تلك المنبوذة فسـنجدها إذا سـألنا أي شـخص من سـكان المدينة.. لا تنسَ أنك عقيد شرطة.. وأنت تعلم ماذا تمثل الشرطة من سلطة على المصريين»..

مـرَّا عـلى ثلاثـة شـوارع وانتهيـا إلى الجراج الـذي تنتظر به سـيارة الشرطـة وبجوارهـا جندي يحرسـها.. وهنـا فوجئا بوجـود فتاة جميلة ترتدي الأسـود تتحدث إلى الجندي، ونظر إليهما فرحًا وأشـار إليهما.. فركضـت الفتاة مسرعة إليهما وسـألتهما: «هل أنتـما العالم عصام ناجي والعقيد سراج توفيق؟»..

أومآ إليها برأسيهما: «نعم».. وسألها سراج في الحال: «من أنت؟».

«أنـا أدعى أمـيرة عادل.. وكنـت أبحث عنكما».. نظـر كلاهما إلى الآخـر مندهشـين، وحدثها عصـام سريعًـا: «ونحن أيضًـا كنا نبحث عنك وفي الطريق إليك»..

سراج: «هل أنتِ أيضًا أخبرك الشبح بمقابلتنا؟»..

«نعم.. نعم.. ولكنه ليس شبحًا.. إنه شخص مثلي ومثلك»..

نظر عصام إلى سراج وحدثه بفضول: «أنا كنت على حق إذًا.. وهو ليس شبحًا.. هل تعلمين من هذا الشخص إذًا؟.. هل تعلمين هويته ولماذا يفعل ذلك؟»..

«نعم لقد أخبرني بأنه شخص أتى معكم هنا إلى جهينة.. وأنه يعلم عني كل شيء، وأني منبوذة، وذكر لي سبب نبذي، وأخبرني بأشياء لا يعلم أحد عنها من أهل المدينة ولم أخبر بها أي شخص من قبل»..

سراج بفضول: «أتى معنا إلى جهينة!! من هذا الشخص؟ أخبريني سريعًا»..

«لقد أخبرني أن اسمه رامي إمام وأنه صحفي»..

أخذ سراج يداعب شاربه باهتمام: «رامي إمام.. وصحفي.. رامي إمام صحفي.. أنا لا أتذكر شخصًا بهذا الاسم مطلقًا.. وأنت يا عصام.. هل تتذكر رامي هذا؟»..

أومأ عصام برأسه نافيًا: «لا.. لم أسمع عنه في حياتي مطلقًا.. لا أتذكر أني على معرفة برامي هذا أبدًا»..

نظرت لهما أميرة بأسًى: «وأنا أيضًا لم أتذكره على الرغم من إحساسي بأن حديثه حقيقي.. «

عصام: «رامي هذا أمره عجيب.. لماذا يفعل كل ذلك؟ لماذا يدعي أنه يعرفنا؟ لماذا لم يقابلنا بنفسه؟ لماذا كل هذه المسرحيات التي عملها في المنزل بالأمس؟ أنا أريد أن أقابله.. أريد أن أسأله أسئلة كثيرة في رأسي.. أخبريني أين هو»..

«أنا أيضًا لم أره أو أعلم عنه أي شيء.. مثلكم»..

سراج مندهشًا: «ماذا؟ وكيف إذًا أخبركِ بكل تلك الأمور عن حضوره معنا إلى المدينة وهذا الهراء الآخر؟».

«أنا لم أره كما أخبرتكما.. لكني كنت أشعر بوجوده بجواري في الغرفة والمنزل، وكنت أشعر بحضور شيء يراقبني، وبالأمس وجدت هذه المذكرات الخاصة بي.. هناك بعض الكتابات بخط يدي عن مقابلتي مع رامي هذا.. ووجدت أني أدون لنفسي أنني يجب ألا أنسى رامي لأن الجميع لن يتذكره بعد الآن.. وأني الأمل الوحيد الذي تبقى له.. لأني شاهدت هذا في رؤيا عن المستقبل لي.. وأني يجب أن أبتعد عن المدعو كريم مساعد مازن لأني علمت ماهيته الحقيقية»..

نظر عصام إلى سراج وسأله بفضول شديد: «ماهية كريم الحقيقية!! هل كريم هذا مزيف؟ ورؤيا مستقبل ماذا؟ عمَّ تتحدثين بالضبط؟..»

أجابتهما في اندهاش: «ألا تعلمان قصتي ولماذا أنا منبوذة من أهل جهينة؟»..

سراج في الحال: «لا.. لا نعلم شيئًا.. أخبرينا»..

نظرت لهما أميرة مضطربة: «لا يهم.. لقد أوصلت لكما رسالة رامي كما دوَّن لي في مذكرتي.. إذا أردتما أن تتذكراه فيجب أن تذهبا إلى الشقة التي بالأعلى.. سوف تتذكرانه حينها»..

ثم حاولت أميرة أن تتركهما وتذهب.. فاقترب منها عصام وحاول أن يوقفها: «انتظري.. إلى أين أنتِ ذاهبة؟ لم نكمل حديثنا بعد»..

صرخت به أميرة وهي تسحب يدها قبل أن يلمسها عصام: «لا تلمسني.. لا تلمسني».. ثم تحركت مسرعة إلى الخارج.

نظر سراج إلى أميرة وهي تغادر مسرعة مندهشًا وهو يضرب كفًّا بكف: «شبح.. ورامي ومنبوذة ورؤيا مستقبل.. ماذا يحدث في تلك المدينة بحق الجحيم؟..»

* * *

رامي إمام جالسًا على أحد أرصفة المدينة يراقب بعض المارة وهم يسيرون في طريقهم.. يحمل رامي بعض الحصى الصغير بيده ويلقيه على المارة وهم أمامه فينظرون حولهم مرتعبين وهم لا يرونه.. كل ما يشاهدونه هو الحصى وهو يلقى عليهم من الفراغ فيشعرون بالفزع ويركضون خائفين وهم يصرخون: الشبح.. الشبح.. ورامي يضحك بشدة على رد فعلهم.. هنا قاطعته ضحكة كريم الساخرة: «يبدو أن تقمص دور الشبح هذا قد أعجبك يا رامي»..

ابتلع رامي ضحكاته سريعًا ونظر إلى كريم غاضبًا ووقف في مكانه سريعًا: «أنت.. أيها الوغد الوسيم».

ضحك كريم بشدة: «هههههه.. أنت رائع للغاية يا رامي.. رائع ومُسلٍّ جدًّا.. ما رأيك بما فعلته بك؟ حينما جعلتك منبوذًا بالفعل.. ليس مثلما يفعل مازن عمدة المدينة مع أهلها بأن يتجاهلوك ولا يتحدثوا إليك.. لكي تكون منبوذًا بحق.. يجب ألا يستطيعوا رؤيتك أو سماعك أو حتى أن يتذكروك.. تصبح أنت والعدم سواء..

هـذا المعنى الحقيقي بأن تكون منبوذًا».. أخذ كريم يتحرك حول رامي وهـو يحدثه ورامي ينظر له بعيون غاضبـة مترقبة.. فيتابع كريم حديثه إليـه مبتسـمًا: «ولكـن أصدقك القول يـا رامي.. لقد توقعـت رد فعل آخـر منك عندما جعلتك منبـوذًا.. كنت أتوقع منك أمـراً أكثر بشرية من ذلك.. لأن أي إنسـان في مكانك سوف يصاب بالجنون عندما يجد نفسه ممسوح الوجود من هذا العالم»..

أخذ رامي يبتسـم متشـفيًا بـه: «أكنت تتوقع أن أجـن؟ لم تتوقع أن أستغل ما فعلته بي.. أليس كذلك؟ أنت جعلت الجميع ينسى وجودي بالفعل ولا يسـتطيع أحد رؤيتي أو سـماعي.. لكن لن تستطيع أن تمنع أفعـالي.. كل مـا أفعله يوميًّـا في جهينة يدل على وجـودي.. رغم أنك اسـتطعت أن تجعلنـي أختفى مـن ذاكرة الجميع إلا أنني اسـتطعت أن أجعلهم يتذكرونني ويتحدثون عني في كل لحظة.. حتى ولو على هيئة شـبح.. هل شـاهدت الأحذية التي وضعتها على الأشجار.. يجب أن تعترف بأني عبقري»..

«هـل تظن أنك بهذه الأعمال سـتجعلهم يتذكرونـك؟ ألم تقم بهذا الأمر مع عصام وسراج وأميرة أربع مرات بالفعل؟»..

قاطعه رامي بحدة « بل خمس مرات»..

ابتسـم كريم له: «حسـنًا خمـس مرات.. ولقد فشـلت في كل مرة.. أشكرك على هذا الجهد غير المُجدي»..

أخرج رامي السكين من ملابسه ووقف به متحفزًا أمام كريم الذي ضحك بشدة من فعله هذا: «ماذا؟ سكين مرة أخرى؟ هل تريد أن تقتلني مرة أخرى؟ ألم تسأم من فعل ذلك كل يوم؟!»..

أخذ رامي يداعب ذقنه المتسخة للحظات ثم وضع السكين في ملابسه مرة أخرى: «نعم.. ملابسي ستتسخ بالدماء مرة أخرى»..

أخذ كريم يهز رأسه عدة مرات مبتسمًا ثم أجابه: «إذًا أتركك تعود لممارسه دور الشبح مرة أخرى في سلام.. أراك قريبًا».. ثم أشار بيده إليه مودعًا: «مع السلامة»..

أخذ يشير إليه رامي بيده مودعًا وهو يبتسم عابسًا: «مع السلامة أيها الوغد الوسيم»..

❋ ❋ ❋

وقف عصام وسراج أمام باب شقة رامي.. وتحدث عصام إلى سراج: «هذه الشقة التي أخبرتنا عنها تلك الفتاه أميرة»..

«ماذا نفعل الآن؟ هل نحطم الباب وندخل؟..»

دفع عصام الباب برفق فوجده قد فتح.. فنظر إلى سراج: «إنه مفتوح».. دلفا إلى داخل المنزل وأشعلا الإضاءة سريعًا لتظهر محتويات الشقة التي كانت مماثلة تقريبًا لشققهما ولكن وجدا على الحوائط مكتوبًا: «أنا رامي.. أنا موجود.. أنا هنا.. أنا موجود..». والكثير من الأوراق الموزعة في الغرفة مكتوب عليها معلومات عن رامي وبعض المواقف التي فعلها مع أهل جهينة.. أخذ عصام وسراج يشاهدان

محتويـات هذه الأوراق فوجد عصـام مكتوبًا في إحدى تلك الأوراق: «أول لقاء لي مع عصام ناجي العالم المشـهور كان بجهينة وأول حديثنا كان أمام صخرة الذهب التي أخبرته أنها ليسـت أكبر صخرة ذهب في العالم وأن أكبر صخرة ذهب كانت موجودة في سـلطنة بروناي، ولكنه سخر مني وأخبرني بأن تلك معلومة خاطئة».. هنا تذكر عصام حديثه مـع شـخص ما في ذلـك الوقت وأنـه قـال الآتي: «إن معلوماتك هذه خاطئـة.. إن ما تتحدث عنـه هو golden rock pagoda.. وهذه صخرة مشهورة ذهبية بالفعل ولكنها ليست في بروناي.. إنها في دولة بورما.. وتلك الصخرة من أهم المعالم السـياحية في بورما وتعتبر أيضًا من أهم المعابـد هنـاك.. وفي الحقيقة هي ليسـت صخـرة ذهبيـة.. هي صخرة عادية للغاية.. ولكنها مطلية بالذهب؛ لأن في اعتقاد المحليين هناك أنه عند شرائهم رقاقات من الذهب وإلصاقها بالصخرة فإنها تجلب الحظ والفأل السعيد لهم على حسب اعتقادهم.. ولذلك يزداد سُمك الذهب في هـذه الصخرة بمعدل ملم واحد سـنويًّا.. ولكنها في النهاية صخرة مطليـة بالذهب وليسـت ذهبًا كاملًا.. أما ما أمامنـا الآن فشيء آخر.. إني عـالم جيولوجي ورأيت عمليات اسـتخراج ذهب كثيرة.. وما أراه الآن أمامي هو ما يقارب 9 أطنان من الذهب الخالص وعيار 24 أيضًا، وهذا شيء مسـتحيل وجوده طبيعيًّا.. وأيضًا صناعيًّا.. من سيسـتطيع أن يحصـل عـلى 9 أطنـان من الذهـب الخالـص؟! أتعلم كـم المجهود المبـذول لاسـتخراج جرام ذهب واحـد؟ إن قيمة الذهب المسـتخرج مـن طن الصخور تقدر بأقل مـن 0.001٪ واحد من الألف في المائة.. إن الذهب من أندر المعادن الموجودة على وجه الأرض.. ولهذا سـعره

مرتفع للغاية.. أخبرني من لديه الثروة والقدرة على التنقيب عن ذهب بمثـل تلك الكميـة.. وما مقدار الجهـد المبذول في ذلـك.. ثم تصنيعه على هذا الشـكل، ثم إحضـاره إلى مدينة مجهولة مثـل جهينة.. علمت لماذا أخبرك بأنه أمر مستحيل؟».. لقد تذكر عصام هذا الحديث بأكمله وأنـه قـام بالفعل بالتحدث إلى شـخص ما وأنـه كان يصاحبه كثيرًا في حينهـا.. وابتدأت تسـطع لمحـات لحديثهـما معًا في عقلـه وفي مواقف كثيرة في جهينـة.. وسراج أيضًا بدأ يتذكر لمحات من الأوراق المكتوبة أمامـه، وهنـا تذكـر موقف المطـر عندما أمطـرت السـماء أذرة، وجميع الحاضرين كانوا مرتعبين مندهشـين إلا شـخصًا واحدًا فقط كان يقف تحت هذه الأمطار يشاهدها وعلى وجهه ابتسامة كبيرة.. لقد تذكر هذا الشـخص.. نعم لقد شـاهده في موقف أغرب من ذلك.. لقد تذكر.. تذكـر رامي وهو واقف مبتسـمًا وبجواره جثتـه.. وهنا ظهرت لمحات جالية بعقله فأخذ يتحدث إلى عصام: «الجثة.. لقد أبلغ عن جثة.. نعم لقـد تذكرته.. إنه رامي إمام الصحفي في جريدة اليوم السـادس.. لقد تذكرته.. لقد تذكرته»..

هنـا حدثه عصـام في الحال: «أنـا أيضًا قد تذكرت وجود شـخص معنا أيضًا كان يصاحبنا.. لا أتذكره جيدًا لكني تذكرت مواقف كثيرة معًا.. ولكن السؤال هنا: لماذا نسيناه؟ ولماذا نراه كشبح؟.»

ألقـى سراج بـالأوراق من يـده غاضبًـا: «إنها تلك البلـدة الملعونة جهينـة.. إنها هي السـبب فيما يحدث لنا من مصائـب.. اللعنة على هذا الوغد العجوز!! عندما أراه سوف أقتله»..

ربـت عصام على كتفه مطمئنًا: «لا يهـم الآن.. يجب أن نبحث عن رامـي ونحـاول أن نفهـم منه مـاذا حدث له ولمـاذا نسـيناه، وبالتأكيد سوف نعلم منه معلومات تزيح الغموض عمَّا يحدث في جهينة»..

«ولكن أين سنبحث عنه؟ نحن لا نعلم مكانه»..

«ننتظره في شـقتك.. أكيد سـوف يحاول أن يتحدث معنا مثلما فعل بالأمس.. هيا بنا الآن نخرج إلى منزلك».

هبـط الاثنان سريعًا إلى الطابق الذي يمكـث به سراج، ووقفا أمام شـقته.. ووضع سراج مفتاح الشقة بالباب وتوقف فجأة ثم تحدث إلى عصام بجواره: «عصام.. أنا نسيت لماذا أردنا الذهاب إلى شقتي»..

عصـام أخـذ يفرك وجهـه: «نحن أتينـا.. لكي نبحـث عن شيء.. لكني لا أتذكر ما الذي كنا نبحث عنه!.»

ثم أشار إلى سراج بيده مصدومًا: «ولكن أنا متذكر أن هذه هي المرة السادسـة التي نخوض بها تلك المحادثـة.. نعم لقد فعلنا ذلك كثيرًا.. نقف أمام باب منزلك ولا نتذكر عمَّ كنا نبحث»..

ظل عصام وسراج ينظران إلى بعضهما مندهشين للحظات..

* * *

جلـس عـزام أمام متجره ووجهـه متورم وبه كدمـات زرقاء كبيرة وجسـده يؤلمه، ولكنه كان يتحامل على نفسـه وهو أمام سرور وبعض الرجـال الذيـن تطوعـوا لحمايـة متجـره.. ما يقـارب العشريـن رجلًا يتسـلحون بالعصي ويحملون أدوات معدنيـة طويلة ويبدو عليهم أنهم

من معتادي الإجرام كانوا وسط الأشخاص الذين أتوا إلى جهينة لكي ينقبوا عن الذهب ولكنهم حوصروا بداخل المدينة مع أهلها الذين كانوا لا يحبذون التعامل معهم أو الاختلاط بهم، فانضموا بسهولة إلى جانب عزام وسرور لحمايتهما في مقابل بعض الأموال وحصص الطعام الذي أصبح نادرًا وجوده في المدينة.. كان باب المتجر مغلقًا ويقف الرجال أمامه وأهالي جهينة يقفون صفًّا واحدًا أمامهم وينتقي عزام من يدلف إلى متجره لكي يدخل بمفرده، ويقوم عمال المتجر بتلبية طلباته، ثم يخرج سريعًا ويدلف غيره، وظل الأمر هكذا، وظل الأهالي يقفون في وسط القيظ الشديد والطابور الطويل.. تحدث أحد الزبائن إلى عزام مترجيًا: «يا سيد عزام.. من فضلك دعنا ندلف إلى المتجر كالمعتاد.. القيظ شديد ونحن منذ الصباح نقف في هذا الطابور الطويل ولدينا أشغال وأسر في انتظارنا..»

أجابه عزام ناقمًا: «أتشتكون الآن أيها الأوغاد؟ أتشتكون بعد أن حطمتم متجري وكنتم تنوون سرقتي وقتلي؟ ألكم عين تتحدثون معي؟هذا متجري.. وسوف تمتثلون لأوامري وتنفذونها كما يحلو لي.. إذا لم يعجبك حديثي.. فلتذهب إلى الجحيم وتبتاع من متجر آخر».

طأطأ الرجل رأسه في خنوع وابتلع امتعاضه على مضض ووقف ساكنًا في الطابور منتظرًا دوره..

ابتسم عزام شامتًا به.. ولكنه شعر بالألم بإحدى الكدمات التي في وجهه فأخذ يتلمسها متوجعًا وهو يسبهم غاضبًا: «وجهي أيها الأوغاد.. سوف أريكم يا أهل جهينة.. سوف أريكم أيها الملاعين»..

أخـذ سرور ينظـر إلى عـزام وإلى أهـل جهينـة الخانعـين أمامه وإلى الرجال المحيطين به.. وهو يشعر بغصة في حلقه ممَّا يحدث لأهل جهينة ولكنـه في ذات الوقـت شـعر بأنهـم يجنون ما قامـوا بزرعـه بأيديهم.. اخترقـت أذنـه ضحكات سـاخرة آتيـة من خلفـه.. فنظـر إلى الخلف سريعًـا ليجد أحد الرجال يضع العصا على رقبته ويسـند يديه الاثنتين على تلك العصا بحرفية وأسـنانه الصفراء المتآكلـة تضيف منظرًا مخيفًا عـلى ملامحـه التـي أكل عليهـا الزمـن وشرب وأعطاها ختـم الإجرام والبلطجـة فتفضحه في عيون كل من يراه.. ظل يضحك وهو ينظر إلى أهالي جهينة ويحدث سرور: «أيعجبك ما تراه يا صديقي؟»..

أجابه سرور بحدة: «ماذا تعني؟»..

أجابه ضاحكًا: «أن ترى من كانوا يتنمرون عليك ذليلين أمامك.. هههههـ.. أنـا أعلـم كل شيء ومـاذا كانوا يفعلـون بك.. هـذه البلدة صغيرة والأقاويل تتناثر أسرع من الزكام»..

لم يجبـه سرور واكتفى فقط بأن نظر له قليلًا ثم عاد بنظره سريعًا إلى الطابور أمامه مع دلوف شخص آخر إلى المتجر.. فحدثه الرجل خلفه: «نصيحة من أخيك شـعبان.. عندمـا يقع غريمك تحت يدك فلا ترحمه لأنك إن وقعت تحت يده فلن يرحمك»..

أجابه سرور باقتضاب: «لا تعتقد أن كل الناس مثلك.. لا تجمعني معك في سلة واحدة».

أخـذ شـعبان يضحـك مـن حديثه وهـو ينظـر إلى الرجـال حوله: «أسـمعتم؟ إنه يتبرأ منا.. على الرغم من أنه يحمل سـلاحًا ناريًّا ويهدد

أهـل بلدتـه به».. شـعر سرور بالغضب الشـديد من حديثه وسـحب سـلاحه سريعًا ورفعه على شعبان فتراجع الجميع خائفًا لعدة خطوات وسـط ذهول عـزام ورجال شـعبان.. وهنـا ضحك شـعبان من فعلة سرور.. وأخـذ ينظـر لـه بحـدة: «يبـدو أنـك أصبحـت رجـلًا.. هيا حـاول.. أطلق الرصاص عليَّ.. مع أني أعلم أنك لن تفعل ذلك.. إني أرى الخوف في عينيك.. أنت لسـت متمرسًـا مثلنا».. صرخ به سرور غاضبًـا وهو يأخذ بملابسـه بيده اليسرى: «بل أنا أعلـم أمثالك جيدًا وأعلم كيف أتعامل معهم.. لقد مكثت في سجن طرة خمس سنوات.. ورأيـت أوغـادًا مثلـك كثيرين.. لا تختـبر حظك معي مـرة أخرى».. أخـذ شـعبان يصفـر.. «سـجن طـرة.. أوووه.. إذًا لقـد كنـا زملاء.. ولكنـي كنت في سـجن العقرب هناك.. وأنت تعلم ماذا يعني سـجن العقرب».. هنا صرخ عزام في سرور سريعًا: «سرور ماذا تفعل.. إنهم يعملـون معنـا الآن».. تراجع سرور بعد سـماع حديث عـزام.. وأخذ شـعبان يضحـك عليه سـاخرًا: «ألم أخبرك أنك لن تطلـق.. أن لديك قلبًا طيبًا.. وهذا سـيؤدي في النهاية لمقتلك».. أخذ سرور نفسًـا عميقًا ثم توجه بسرعة إلى شعبان وركله في معدته بقوة.. فسقط شعبان متألمًا وسرور يـصرخ بـه وبالرجال خلفـه: «أيها الأوغاد.. اسـمعوا جيدًا.. أنتم تعملون تحت إمرتي هنا.. ولن أسـمح بأي تجاوز في حقي.. سواء منكم أو من أي شخص آخر».. وأخذ ينظر إلى أهل جهينة الذين كانوا يشـاهدون ما يحدث ووضعوا عيونهم في الأرض جميعًا خانعين عندما حدثهم سرور..

* * *

(مدينتي)

في السابعة من مساء هذا اليوم كان مازن يجلس في منزله بغرفة الاجتماعات منتظرًا كبار عائلات جهينة كما تعودوا بالمقابلة مرتين على الأقل كل أسبوع، وكان في ذهن العمدة هذه المرة بعض القرارات الصعبة التي يريد أن ينفذها على أهل جهينة ويحتاج موافقة كبار عائلات المدينة لكي يدعموه في اتخاذها.. ظل منتظرًا حضورهم وهو يقلب في رأسه الأحداث الكثيرة التي ألمت بالمدينة وأهلها، وكيف استطاع أن يقود المدينة في تلك الفترة الصعبة، وأنه نجح في الحفاظ على الأوضاع كما هي في ظل تلك الظروف غير العادية، وأخذ يبتسم وهو يراجع القرارات التي اتخذها، ويتذكر مديح أهل جهينة عندما يشاهدونه هم وأطفالهم ويلتقطون الصور التذكارية معه.. كان يتذكر شعور السعادة الذي يصاحبه مع صب كلمات المديح فوق رأسه في كل مكان يخطو إليه.. شعوره وهو يقود الرجال والسيدات ببضع كلمات تخرج من فمه.. كيف لأي أمر يصدره أن يغير حياة من حوله إما يكونون من المحظيين أو من المنفيين المنبوذين.. شعور القوة المطلقة التي أعطتها له جهينة أغناه عن أي شعور آخر كان يداعبه مثل شعوره بالحنين إلى الأبوة وإلى تكوين أسرة من نسله، ولكن شعور القوة أشبعه عن كل

ذلـك، وأيضًـا طبيعة تقلد منصبـه كعمدة جعله أبًا لجميـع أهل المدينة فلا يهم أن يكون والدًا لطفلين أو ثلاثة.. أبناؤه من أهل المدينة يتعدون الآلاف.. هذه هـي قيمة العائلة الحقيقية لديه.. مر الوقت سريعًا دون أن يشـعر.. لكن دقات السـاعة المتتالية أعادت إليه رشده.. ألقى نظرة خاطفة على سـاعة الحائـط أمامه ليجدها قد أصبحت التاسـعة تمامًا.. وقف مازن مصدومًا مندهشًا.. ماذا حدث؟ الساع أة صبحت التاسعة ولم يحضر أي شـخص إلى الاجتـماع.. هذا أمر غـير طبيعي.. لم يحدث ولـو لمرة واحـدة خلال العقود الماضية.. ماذا حـدث؟ هل حلت نهاية العـالم أم ماذا؟ بالتأكيد هنـاك شيء ضخم قد حدث جعل كبار العائلة لا يحـضرون اجتماعهم الـدوري معه.. بالتأكيد هذا مـا حدث.. نيزك سـقط مـن السـماء أو زلـزال ابتلـع الجميـع.. أو شيء في حجـم تلـك الكـوارث هـو الـذي منع الجميـع من الحضـور الآن ،حتى مسـاعداه متـولي وبيومـي لم يحضرا.. حتى كريـم لم يحضر أو يره منـذ عدة أيام.. «يجـب أن أذهـب لكي أطمئـن بنفسي على ما ألم بالمدينـة من كوارث.. « هـذا مـا دار في عقلـه وهو يركض سريعًـا خارج منزلـه لكي يطمئن على أهل المدينة.. الشوارع موجودة لم تبتلعها الأرض.. السماء بالأعلى لم تطبق فوق رءوسهم.. بعض السيارات تركض على الطريق.. بعض المارة يتسامرون مع بعضهم.. الأطفال يلهون أمام منازلهم.. السيدات ينظـرن من الشُّرفـات كالمعتاد.. ماذا؟ لم يحـدث شيء.. إذًا لماذا لم يأتِ أحـد إلى الاجتـماع اليـوم؟».. مـاذا يعنـي هذا؟ مـاذا يعني هـذا؟ إنها مؤامـرة.. إنها مؤامرة يقوم بتنفيذها متولي بمسـاعدة بيومي بالتأكيد..

ويبدو أن كريم أصبح مشـاركًا معهما في تلك المؤامرة.. تبًّا لهم! تبًّا لهم جميعًا! لن يفلتوا من عقابي.. سوف أعاقبهم جميعًا.. سوف يعاقبون».. أخـذ يطلق تلك العبارات المصحوبة باللعنات وهو في طريقه إلى منزل متولي وهو مقتنع حد التأكيد بأنه خلف هذا الحدث المهول بالنسبة له، وأنه بداية لمؤامرة يحوكونها ضده كما فعلوا من قبل.. قاد سيارته سريعًا وتوقف أمام منزل متولي الذي كان يغلفه السـكون.. وانطلق كالسهم صـوب باب المنـزل وأخذ يطرقه بقوة تكاد تحطمـه.. فتح متولي الباب غاضبًـا ودهـش من رؤية مازن أمامه فسـأله بفضـول: «العمدة.. ماذا أحضرك إلى هنا؟ ماذا تريد؟»..

هنـا صب مـازن جام غضبه عليه وأخذ يلكمه بعنف وهو يمسـك بتلابيبـه ويصرخ بـه غاضبًا حانقًا: «أيها الوغـد اللعين.. أتَحوك ضدي المكائد والمصائب تلو الأخرى؟!.. أنت من يفعل ذلك بالمدينة ويؤلب أهلها ضدي.. أنت تطمع في مكاني أيها الوغد.. سوف أقتلك»..

أخـذ الصريـخ والعراك بينهـما يجمع المـارة والفضوليـين.. وتجمع أبناء متولي وزوجته وهم يمسـكون مازن غاضبين ويبعدونه عن أبيهم وأخـذوا يسـبونه وكادوا يفتكون به وهم يدفعونه بعيـدًا عن منزلهم.. صاح بهم متولي في الحال: «اتركوه يا أولاد.. لا يمد أحدكم يده عليه.. اتركـوه لي».. فامتثـل أبناؤه لأمره وتركوا مـازن الذي كان يرتجف من الغضب الشـديد فتحدث إليه متولي بهدوء وهو يرتب ملابسـه: «لماذا كل هـذه الثورة أيها العمدة؟!.. لماذا أتيـت لمنزلي وفعلت هذه الأفعال

الحمقاء؟».. هنا حاول مازن دفع أبناء متولي ليذهب إلى أبيهم ويبطش به.. فأمسكه أبناء متولي بعنف وشلوا حركته، وأخذ مازن يحاول أن يدفعهم ولكنه لم يستطع أن يخلص نفسه من قبضتهم المطبقة على ذراعيه.. فاكتفى بالصراخ عليه: «أتتساءل؟ أتصطنع الغباء؟ أنت الذي منعت كبار عائلات جهينة من الحضور اليوم لأول مرة في تاريخ المدينة.. أتريد أن تدمر جهينة وقوانينها؟ تلك المدينة التي بنيتها على أكتافي وشاهدتها محلقة بين سائر المدن.. تلك المدينة التي ضحيت بشبابي وعمري كله من أجلها.. لن أسمح لك أبدًا أن تسلبني حلمي الذي أعيشه منذ ثلاثين عامًا.. إذا كان هناك من سيحطم حلمي فإنه سيكون أنا.. سأحطم المدينة لبنةً لبنةً قبل أن تسلبوها مني أو تحلموا بأخذ مقعدي الذي بنيته بعرقي ودموعي.. أفهمت؟ سأقتلكم جميعًا قبل أن أسمح بذلك».. أجابه متولي غاضبًا واللعاب يتطاير من بين شدقيه: «مازلت تعيش أوهامًا وأحلامًا يا مازن.. أين هي تلك المدينة التي سوف أسلبها منك؟! أين هي تلك المدينة؟! انظر حولك وتمعن.. إنها أنقاض حجر مختلط بالبشر.. المدينة أصبحت تحت سيطرة عزام وسرور المنبوذ وشرذمة من بعض البلطجية من خارج المدينة.. لقد انتهى لقب عمدة المدينة وكبار عائلات جهينة.. الجميع تحت رحمة عزام الآن.. بعد أن قام بشراء جميع السلع والطعام من المتاجر واستولى على آخر لتر موجود من الوقود المتبقي في المدينة.. استيقظْ وأفقْ.. في يوم وليلة أصبح للمدينة حكام آخرون.. من يملك الطعام هو من يملك العوام».. أخذ يضحك ساخرًا لمازن: «لقد

أصبـح صديقك القديم المنبـوذ سرور شريك عزام في حكـم المدينة.. أنا لو في مكانك الآن أذهب مسرعًا وأقف في الطابور أمام متجر عزام لكي أحاول أن أحصل على كسرة خبز لأتناولها».. أشار إلى أبنائه وإلى المشـاهدين الفضوليـين: «هيا.. هيا بنا إلى الداخل يـا أبنائي.. واتركوا هـذا المتوهـم في أحلامه الهاوية عن مدينة جهينـة».. ترك الجميع مازن مصدومًا مشـدوهًا وهو يرمقهم يتركونه ويدخلـون المنزل ويصفقون الباب في وجهه بقوة.. ونظرات الشـفقة عـلى وجوه الفضوليين حوله الذيـن تركوه أيضًا وهو واقف بمفرده ينظر لهم وهو يحدث نفسـه غير مصدق: «عزام.. وسرور.. المنبوذ.. المنبوذ»..

* * *

الليـل يلقي بظلاله عـلى المدينة، وإضـاءة المتاجر وأعمـدة الإنارة تتحـداه في خجل شـديد.. طوابير كبـيرة أمام متجر عزام تكاد تقسـم الطريـق إلى نصفين.. وعزام يجلس أمـام المتجر يتفحص بعينيه مبتاعيه ويختـار مـن يدخله ومن يرفضـه ويتركه عائدًا خائبًـا إلى أسرته بعد أن امتلـك جميع البضائع التـي في المحلات والمتاجر الأخـرى في المدينة.. حيـث خشي أصحابها أن يحدث معهم سـلب ونهب مثل ما حدث مع عزام من قبل فآثروا السلامة ووافقوا على عرض عزام بشراء بضائعهم، وبهـذا أصبـح عزام هـو المحتكر الوحيد للسـلع والبضائـع في المدينة، وأصبـح يفعل ما يشـاء ويطلب مـا يريد من زبائنـه دون رادع أو مانع بعـد انضـمام سرور إليه بسـلاحه النـاري وانضمام بعـض الرجال من

خارج المدينة إلى عصبته الجديدة.. أول قرار اتخذه عزام بعد الاحتكار هو زيادة أسعار جميع السلع ثلاثة أضعاف حتى يستطيع أن يعوض التلفيات التي ألمت بمتجره وهامش الربح الذي اشترى به السلع من المتاجر الأخرى والوقود قد زاد بنسبة أربعة أضعاف ولم يعترض أحد من سكان جهينة.. هدفهم كان الحصول على احتياجاتهم هم وأولادهم فقط.. وكان سرور يشاهد ما يحدث دون أن يتدخل لأنه كان يرى أن ما فعله عزام منطقي للغاية حتى يجعل أهل جهينة يدفعون ثمن فعلتهم معه.. الوجوم يطبق عليهم.. الخنوع هو سمتهم.. الجبن هو حياتهم.. لم يعترضوا على أي قرار أو طلب فرضه عزام عليهم.. وعندما كان أحدهم يعترض على شيء كان الجميع يصبون جام غضبهم عليه ويطردونه من بينهم.. كل ذلك بدون أي تدخل أو عناء من عزام أو رجاله.. أخذ سرور يشاهد ما يحدث أمامه مصدومًا من رد فعل أهل جهينة.. لم يتصور أن يحدث ذلك أمامه في يوم من الأيام.. الأهالي يهاجمون من يدافع عنهم ويكادون يفتكون به إن أصر على موقفه.. بل الأغرب من ذلك أن الأهالي أصبحوا يتوددون إلى عزام وسرور ويطلبون رضاءهما.. لقد عاد لسرور إحساس الفخر والعزة مرة أخرى ذكرته بأيام مجده بجهينة قبل أن يدخل السجن.. من كانوا يسبونه وينعتونه بالمنبوذ منذ أيام يقفون خاضعين خانعين أمامه.. يا له من إحساس بالقوة! صك من البشر حولك يعطونه لك عن طيب خاطر لكي تتحكم بهم وبمصائرهم.. لقد شعر بالقلق كثيرًا وكثيرًا من أن يبدأ أهل جهينة بالتمرد عليه وعلى عزام بسلاحه الناري

الوحيد وبعض الرجال المسلحين ببعض العصي والأسلحة البسيطة.. أي حسبة عقلية بسيطة توضح أنهم في موقف الضعف هنا حفنة من الرجال في مقابل أهل مدينة كاملة ولكن مما عاينه يبدو أن هذا الأمر لم يخطر ببال أحد من أهل جهينة على الإطلاق.. أو إذا كانت خاطرة في رءوسهم فإنها تختفي سريعًا مع أي لفظ خارج يطلقه شعبان البلطجي أو حركة سكين محترفة من أحد رجاله معتادي الإجرام الذين جذبتهم سيرة ذهب جهينة فجعلتهم يتداعون على المدينة مثلما يتداعى الذباب على أكوام القمامة القذرة..

الأهالي يقفون بالصف يتسامرون في انتظار أن يشفق عليهم عزام فيدخلهم ليبتاعوا من متجره طعامهم.. صوت صريخ وجلبة شديدة من الخلف وبعض الأهالي يتدافعون.. تحفز شعبان ورجاله في الحال لهذا المشهد وتأهبوا بعصيهم وأسلحتهم بينما أخذ عزام يرمق ما يحدث من على مقعده وسرور أخذ يتحسس سلاحه الناري.. ظهر سريعًا من يصنع تلك الجلبة.. مازن عمدة المدينة أخذ يصيح في الناس ويدفعهم غاضبًا بأن يذهبوا إلى بيوتهم وألا يرضخوا إلى أوامر عزام وينتظروا الأوامر التي سوف يصدرها بخصوص عمليات الشراء والبيع.. نظر عزام إلى مازن غاضبًا وصرخ به في الحال: «ماذا تريد أيها العمدة؟ لماذا تصرخ بزبائني وتصنع تلك الجلبة؟».. اقترب مازن منه في الحال وهو يحدثه معاتبًا: «أهكذا تتعامل يا عزام مع أهل مدينتك؟ هل تحتكر الطعام والشراب لديك وتمنعهما عن أهل جهينة في وقت

الشـدة هـذا؟».. صرخ عليه عـزام: «أنت تلومني.. أنـت تلومني بعد ما فعل هؤلاء الأوغاد بي.. سلبوا متجري وكادوا يقتلونني ولم ينقذني مـن أيديهـم إلا سرور بـارك الله في عمـره؟».. هنا نظر مـازن بغضب شـديد جهة سرور.. فلم يتحمل سرور تلك النظرات وأطرق برأسـه إلى الأرض خجلًا.. تابع عزام حديثه إلى مازن: « أتلومني على ما أفعله أيهـا العمـدة؟ أنـا لم أفعل شـيئًا خاطئًا.. لقد قمت برفع سـعر السـلع قليلًا لكي أسـتطيع أن أعوض خسـارتي من السرقـة والنهب وتحطيم المتجـر من هـؤلاء الأوغاد الذين تدافع عنهم.. هل ترى ما أفعله خطأً ولم تعترض على فعلهم معي وسرقتي ومحاوله قتلي؟!»..

«أنـا معـك بالطبـع.. لقـد اخترقـوا قانون المدينـة.. من قـام بفعل ذلك سـوف ينبـذ بالطبع ويمنع مـن الحصول عـلى أي طعام وشراب في مدينتنـا العزيـزة».. حرك عـزام يديه بهدوء شـديد: «وهذا ما فعلته يا سيد مازن.. لقد منعتهم مثلما أخبرتني الآن.. فلماذا تلومني على أمر كنت ستفعله أنت بنفسك كما قلت الآن؟..»

مازن بحماسـة شـديدة: «لأني أنا عمدة المدينة يا عزام وليس أنت.. أي قرار يخص المدينة وأهلها يجب أن أصدره أنا»..

نظـر عـزام إلى مـازن للحظـات وهـو مندهش مـن أن يكـون هذا هـو الـذي يهمـه الآن.. أن يصـدر الأوامـر هـو.. ارتسـمت ابتسـامة عـلى وجهه سرعان مـا تحولت إلى ضحك شـديد ومـازن يقف يرمقه بنظرات متحيرة..

انتهـى عزام من ضحكه ومازالت ابتسـامة كبيرة على وجهه.. تنهد للحظات ثم تحدث إلى أهل جهينة الواقفين بالطابور أمامه: «حسـنًا.. حسنًا.. بناء على رغبات السيد مازن عمدة جهينة.. فمن اليوم لن أبيع لأي شـخص أي شيء لأني من المحتكرين السـيئين.. لذا فسوف يغلق متجـر عـزام إلى أجل غير مسـمى مـن الآن فصاعـدًا».. نظـر الجميع مصدومـين إلى عزام ومن بينهم سرور وشـعبان ورجاله الذين أخذوا يضحكـون ويتغامـزون فيما بينهم.. بينما شـعر سـكان جهينـة ومازن بالحـيرة من حديث عزام، وبـدأ التهامس والامتعـاض يرتفع بينهم.. واسـتمر للحظات حتى وقـف عزام من على مقعده وهـو يتألم وتوجه جهـة شـعبان وهو يحدثه بصوت مرتفع ليسـمعه الجميـع: «اذهب إلى الداخل وأخرج من بالمتجر وأغلق أبوابه الآن هيا».. ابتسـم له شعبان وهو يحرك سـبابته أسـفل عينيه ببطء شـديد: «من عيني.. سوف ينفذ أمرك في الحال يا كبير».. وتوجه هو ورجاله جهة المتجر وهم يصرخون في المشـترين بالداخل ويطردونهم ثم أغلقوا باب المتجر واتجه عزام إلى جهـة المتجر عائدًا إليه.. هنـا صاح بعض المشـترين الواقفين بالطابور بامتعاض: «هل سـتغلق المتجر حقًّا؟ إذًا كيف سنبتاع حاجاتنا؟ كيف سـنُطعم أطفالنا؟!».. التفت عزام إليهم لثوانٍ وهو يبتسـم لهم: «لماذا تتحدثـون معي؟ هذا الأمر لا يخصني.. فأنا لسـت عمدة المدينة».. ثم ضحك بشـدة وهو يعطيهم ظهره ويسـتند على ذراع سرور الذي كان ينظر إلى أهل المدينة بأسًى.. هنا بدأ بعض المشترين يتحدثون مع بعضهم بلهجة غاضبة وهم يتساءلون من أين سوف يشترون حاجياتهم وعزام

هـو صاحب المتجر الوحيـد الآن في المدينة، ثم تحولـوا بأنظارهم جهة عمدتهـم مـازن.. فصرخوا به: «أنت السـبب فيما حـدث.. أنت الذي جعلته يغضب علينا.». أجابهم مازن مطمئنًا: «لا تقلقوا من هذا الأمر سـوف أقوم أنا وكبار عائلات جهينة بتدبيره.. سـوف نقوم بالحصول على الطعام والشراب وما تحتاجونه وسـوف نحذر عزام مما يفعله وإن لم يرضخ فسوف نجعله من المنبوذين».. صرخت عليه جموع الغاضبين وهـم يقتربون منه: «هل جننت أم ماذا؟ إن كبار عائلات جهينة الذين تتحدث معهم كانوا يقفون بأنفسـهم بيننـا منذ قليل لكي يحصلوا على حاجياتهـم.. ورفض عـزام أن يعطي بعضهم بعض المشـتريات.. هل سـوف يقوم هـؤلاء بتوفـير الطعام لنـا ولأطفالنا وهم لا يسـتطيعون أن يوفـروه لأنفسـهم؟!».. أخذ مـازن يحدثهم مطمئنًـا: «لا تقلقوا.. لا تقلقوا.. سوف أخرج المدينة من محنتها الآن مثلما كنت أفعل دائمًا».. هنا قامت سيدة بسبه وهي تصرخ به غاضبة: «أيها الوغد.. ماذا أعطي لصغـيري الذي ينتظرني منذ عدة سـاعات؟! ماذا سـيأكل الآن؟! كل ذلك بسـببك».. شـعر مازن بالغضب: «هل تسـبينني أيتهـا اللعينة؟! هـل تتجرئين وتسـبين عمـدة المدينـة؟!».. هنـا قامت السـيدة بدفعه بيدهـا.. فشـعر بالغضـب أكثر فدفعها فسـقطت عـلى الأرض.. فقام بعـض الرجال بدفعـه والصراخ عليـه.. نهضت السـيدة سريعًا وهي تبكي صارخة وقامت بصفعه على وجهه.. شعر مازن بالإهانة بشدة.. كيـف تقوم سـيدة من رعاع المدينة بصفع العمـدة؟! فقرر أن يفتك بها في الحـال واتجـه إليها ليقتص منهـا.. وهنا فجأة تكالبـت عليه الجموع

وقامـوا بضربه بعنـف وأخذوا يكيلـون له اللكـمات والضربات وهو يشـعر بالجنون.. كيف يحدث له ذلك؟! كيـف يتجرأ الجميع على فعل ذلـك معه؟! لكمه رجل بأنفه فشـعر بأنه كسر وسـالت الدماء بغزارة منه ولكن آلام أنفه لم تكن مثل آلام شعوره بالصدمة وهو يضرب من قبل شاب قام بالتدريس له من قبل.. قام شاب آخر بلكمه في معدته.. لقد تذكر هنا في الحال ابتسـامة ذلك الشـاب عندما كان يقوم بإعطائه مبلغًـا مـن المال لكي يسـتطيع أن يتـزوج.. وكيف أنه قام بتسـمية ابنه البكري باسم مازن تيمنًا به.. أخذ يتذكر ذلك وهو يسقط على الأرض بعد أن تهاوت أقدامه من الوهن تحته فأصبح بين أقدام العامة يركلونه بأحذيتهـم.. قامت سـيدة بركله بحذائها في عينه اليمنى.. فشـعر بأنها قـد دفعت للداخل وأنهـا صنعت حفرة كبيرة في جمجمتـه.. لم يتحمل ألم عينيـه التـي أفـرزت دموعًا غزيـرة لم يسـتطع أن يوقـف انهمارها.. رمقهـا بعينـه اليسرى سريعًا وهـو يضع يده فـوق عينه التـي امتلأت بالدمـوع والدماء وشـاهد وجهها.. هنا تذكر كل كلمة قام بتسـجيلها وهي تتحدث بها مع عشـيقها بعد أن يذهب زوجها إلى العمل.. تلك العاهـرة التـي كان يحميها مما تفعله ويجعل زوجهـا يأتي لديه في أوقات لقاءاتها الحميمة حتى لا يعلم زوجها المخدوع بما تفعل.. ضربة شديدة للغاية.. ركلة من شخص ما على رأسه من الخلف جعلت وجهه يسقط على الأرض بشـدة ويتلطخ بالـتراب الممزوج بالدماء والدموع.. جميع مـن يضربه الآن ومرغ رأسـه في التراب كان يرعـى مصالحهم ويغطي عـلى جرائمهـم.. كان يحضر أفراحهم ويواسـيهم في أحزانهـم.. كانوا

عائلته.. أقدام عائلته فوق جسده ينفضونه بأحذيتهم.. صدمة مازن في أهل المدينة جعلته لا يشعر بأي ألم.. لا يوجد ألم مثل صدمتك فيمن تحبهم ويحبونك أو من كنت تعتقد بأنهم يحبونك.. أحذية محبيك فوق رأسك تمرغ رأسك في التراب وتجعلك تبتلعه مع ما سقط من أسنانك..

كان عزام وعصبته يراقبونه من بعيد من خلف الباب الزجاجي وهو يفتك به من قبل أهل مدينة.. أخذت تعلو وجهه ابتسامة التشفي وهو يتحدث ساخرًا: «ما رأيك الآن أيها العمدة وأنت تُضرب على يد الأوغاد من أهل المدينة الذين كنت تدافع عنهم منذ قليل؟».. أخذ الجميع يستمع إلى حديث عزام ويبتسم ما عدا سرور الذي كان ينظر إلى مازن بشفقة شديدة.. دفعته إلى أن يفتح باب المتجر سريعًا ويندفع خارجه جهة مازن متلاشيًا صيحات الاستهجان التي أطلقها عزام وبعض مرافقيه.. اندس سرور سريعًا بين أهل المدينة الغاضبين وأخذ يصرخ بهم وهو يتلقى بعض اللكمات عن مازن الذي كان ممددًا على الأرض يوشك على الاستسلام لمصيره.. أخذ الجميع يبتعد عن سرور في الحال خوفًا من أن يغضب عليهم فيمنعهم من ابتياع حاجاتهم أو أن يتطور الأمر فيستخدم سلاحه.. انفضوا جميعًا من حوله وتركوه مبتعدين واتجهوا إلى جهة عزام ووقفوا أمام متجره يترجونه لكي يعدل عن قراره ويفتح متجره الآن بعد أن اقتصوا ممن أغضبه.. أخذ سرور يهيل التراب من على وجه مازن الذي كان ممتقعًا وهو مغطى بالطين الناتج عن اختلاط دمائه ودموع عينه المصابة.. نظر سرور إلى

وجه مازن وهو يتمزق من رؤيته هكذا.. هو لم يستطع أن ينسى أبدًا أن مازن كان من أكثر الداعمين له قبل أن يدخل محبسه.. أخذ يمسح ملابسه ويرتبها ومازن مستسلم له.. أخذ سرور يحاول أن يوقفه من على الأرض لأنه لم يكن يستطع أن يقف من كثرة الألم ومن أثر الضرب المبرح.. فوضع سرور يد مازن على كتفه وحاول أن يوقفه.. نظر مازن سريعًا إلى منقذه لكي يتطلع إلى وجهه فوجده سرور.. فقال له: «هل أنت سرور؟» ابتسم سرور في الحال وهو يحاول أن يساعده: «نعم أنا سرور يا سيد مازن».. هنا سحب مازن يده بعنف وصرخ به غاضبًا: «اتركني لا تلمسني أيها المنبوذ».. شعر سرور بالإحراج الشديد من فعل مازن وأخذ يرمقه وهو يحاول أن يقف بنفسه بدون مساعدة للحظات، ثم كاد يسقط مرة أخرى فقام سرور بالاقتراب منه ومحاولة مساعدته مرة أخرى.. ولكن مازن دفعه بغضب: «ابتعد عني».. فابتعد عنه سرور وأخذ يرمقه وهو يقف بصعوبة شديدة.. وينطلق بطريقه مبتعدًا وهو مُطرق برأسه المترب إلى الأرض..

ابتعد مازن عن سرور سريعًا وابتلعه أحد الشوارع القريبة الذي دلف إليه.. فالتف سرور عائدًا إلى جهة المتجر.. فوجد بقعة صغيرة من دماء مازن على الأرض أمامه.. أخذ يتأملها لدقائق ثم عاد إلى المتجر الذي فتحت أبوابه للمشترين من جديد..

* * *

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي..

جلست أميرة على منضدة بغرفة المعيشة وهي قلقة مترقبة تنظر لساعة الحائط كل عدة لحظات وهي متوترة للغاية.. مرت بضع دقائق ثم وجدت باب المنزل يفتح فهبت مسرعة جهة الباب لتستقبل عمتها التي كانت تحمل حقائب بلاستيكية مليئة بالمشتريات من متجر عزام.. استقبلتها أميرة متلهفة وهي تحمل الحاجيات منها وتسألها بقلق: «أخبريني.. هل وجدتِ صعوبة في إحضار المشتريات أم كانت هناك مضايقات لكِ لأني منبوذة كالمعتاد؟».. ابتسمت عمتها وهي تدلف إلى داخل الشقة: « لا.. لقد حدث العكس تمامًا؛ لقد أخذت كل ما أحتاجه وبسرعة شديدة عكس ما كان يحدث دائمًا بسبب أنك منبوذة.. لقد رآني سرور وهمَّ بمساعدتي وأخذ يتأسف لي على كل ما كان يصدر منه بحقنا وأخبرني أنه لم يكن يعلم بأن المنبوذين يعانون هكذا.. وأخبرني أن أحضر له في أي وقت إذا احتجت منه أي شيء»..

تنهدت أميرة بارتياح وهي تضع الحاجيات على المنضدة أمامها: «الحمد لله.. لقد انتابني القلق كثيرًا كيف سنستطيع الحصول على ما نحتاج في ظل هذه الأحداث التي تحدث بجهينة الآن؟ لكن يبدو أن الأمور ليست سيئة تمامًا كما كنت أتخيل.. على الأقل بالنسبة لنا»..

وضعت عمتها باقي الحقائب على المنضدة ثم ضربت جبهتا في لوم: «أووه.. لقد نسيت أن أخبرك.. لقد قابلت العالم عصام ناجي وأنا عائدة وطلب مني مقابلتك ليتحدث معكِ في أمر ما».. أميرة بفضول: « يريد التحدث معي.. بخصوص ماذا؟»..

«لا أعلم.. لقد تركته ينتظرني في الطابق الأسفل.. أتريدين مقابلته أم أخبره بأنك نائمة وأجعله يعود من حيث جاء؟».

«لا.. أدخليه.. ولكن انتظري سأضع الحقائب في المطبخ أولًا».. أخذت أميرة تحمل الحقائب وهي تركض إلى داخل المطبخ مسرعة.. ثم عادت سريعًا فذهبت عمتها إلى خارج الشقة ونادت عصام لكي يصعد.. وأثناء ذلك أخذت أميرة تعدل من هندامها وترتب الشراشف فوق المنضدة.. دلف عصام من باب المنزل وهو يحييهما بصوت منخفض: «السلام عليكم».. أجابته أميرة وعمتها: «وعليكم السلام».. تركت عمتها باب الشقة مفتوحًا وأشارت إلى عصام أن يجلس على المنضدة فجلس.. ثم ذهبت إلى المطبخ وهي تحدثه: «سوف أحضر لك شيئًا ساخنًا لتشربه».. هز عصام رأسه وهو يشكرها ثم نظر إلى أميرة التي كانت تقف بجوار المنضدة تتفحصه.. فتحدث إليها سريعًا: «آسف على حضوري المفاجئ هكذا.. لكن كان هناك شيء يؤرقني بشدة وأريد أن أتحدث معكِ به».. جلست أميرة على مقعد بعيدًا عن عصام قليلًا: « ماذا تريد؟ أخبرني»..

«هل تتذكرين عندما أتيتِ إليَّ أنا والعقيد سراج وأخبرتينا عن شيء.. أتتذكرين ما هو؟»..

ابتسمت أميرة بسخرية للحظات: «بالطبع أنا أتذكر.. لقد إتيت إليك أنت والضابط سراج لأخبركما عن....»

هنـا تبدلت ملامـح أميرة في الحال وأخذت تفرك رأسـها بشـدة.. وهـي تنظـر إلى عصام مندهشـة: «مـاذا.. أنـا لا أتذكر.. كيـف هذا؟ كيف هذا؟»..

عصـام بحـماس شـديد: «أنـا أيضًـا لا أعلـم.. هـذا شيء غامض للغايـة.. أنا أعلم بأننـا نبحث عن شيء ما بكل مرة أنا وسراج وعندما نتذكـره.. ننسـى كل شيء بخصوصه في الحال.. وهـذا يحدث كل مرة نبحـث عن هذا الـشيء.. أنا واثق بأنـه شيء مهم.. أنـا وأنتِ وسراج نعلمه ولكننا لا نتذكره»..

وقفـت أميرة مصدومة: «بالفعل.. بالفعل هذا يحدث معي كل مرة أقرأ بمذكرتي.. أنسـى مـا قرأته في الحال.. انتظر لحظات سـوف أعود سريعًـا».. تركته أمـيرة وذهبـت إلى غرفتها وهي متحمسـة ثم عادت وهـي تحمل مذكرة حمـراء وفتحتها أمام عصام وأخـذت تحدثه بلهفة: «انظر هنا.. لقد سجلت رقم الصفحة التي أنسى محتواها.. لقد سجلته عـلى الصفحـة الأولى.. انظـر».. أخذ عصـام ينظـر إلى الصفحة أمامه فوجـد مكتوبًا عليها بعض العلامات والرسـومات.. وهناك مكتوب بخط سيئ صغير بنهاية الصفحة جملة: «تذكريه يا أميرة.. لا تنسيه أبدًا ().. افتحي صفحة 103».. تحدثت أميرة إليه: «أترى.. لقد كتبت هذه الجمل وطلبت من نفسي أن أتذكره، ووضعت اسمه بين قوسين ولكن كما ترى بأن الاسـم ممسوح وليس موجودًا بالصفحة».. أوقفها عصام في الحال بإشارة من يده: «انتظري قليلًا»..

ثـم قام بخلع سـاعته من يده اليسرى ووضعها بيـده اليمنى ونظر إليهـا قليـلًا ثم أمسـك بالمذكـرة سريعًا وأخـذ يقلـب في أوراقها وهو يبحث عن صفحة 103 فوجدها أمامه فقرأ بها الآتي:

«لقد شاهدت ما سيحدث بجهينة بشكل سريع.. هذا شيء سيئ.. سـيئ للغاية.. سـوء الحظ سيصيب الجميع.. ولسـت أقصد بهذا أهل جهينـة.. بل أقصد الجميـع.. الجميع.. يجب أن نمنعه.. يجب ألا يخرج مـن جهينة.. لن يسـتطيع أحـد أن يوقفه إلا بمسـاعدة رامـي.. رامي الوحيـد الذي يعلم ماهيته وسـوف يسـاعد في إنقاذنا.. لقد شـاهدت ذلك بالمسـتقبل.. ولكن يجـب أن أتذكره.. يجب ألا أنسـاه.. لن يعلم أحد بوجود رامي سواي.. يجب ألا أن أنساه»..

توقـف عصام فجـأة عن القراءة وهو يحدث نفسـه: «رامي.. رامي إمـام.. لقـد تذكرتـه.. لقـد تذكرتـه.. لقـد تذكـرت كل شيء».. هنـا أمسـكت أمـيرة بفمهـا.. نعم أنا أيضًـا رامي.. رامي.. الجميع سـوف ينسـاه.. يجب أن أتذكره لقد كتبت ذلك في مذكرتي.. حتى لا أنساه».. مـرت عـدة دقائـق.. ودلفت عمـة أمـيرة إلى غرفة المعيشـة ووضعت المشروبات السـاخنة أمامهما على المنضدة.. ولكنها لاحظت أن عصام ينظر إلى الفراغ أمامها وكذلك أميرة.. فحدثتهما مندهشة: «ماذا يحدث هنا؟ لماذا أنتما واجمان هكذا؟».

نظرت إليها أميرة: «عمتي.. متى أتيتِ من الخارج؟».. ثم نظرت إلى عصام الذي نظر إليها مندهشًا وهي تحدثه متسائلة: « أنت العالم عصام.. متى أتيت إلى هنا؟»..

نظر إليها عصام بقلق: «أنا.. أنا لا أعلم».. شاهدت عمتها ما يحدث فشعرت بالريبة: «ماذا تفعلان؟ إنكما تشعرانني بالخوف».. حدثها عصام سريعًا: «هل تعلمين كيف أتيت إلى هنا؟»... «نعم بالطبع لقد قابلتك خارج المنزل وطلبتَ مني أن أقابلك بأميرة لكي تسألها عن شيء ما.. وأحضرتك إلى هنا وتركتما تتحدثان منذ قليل وذهبت لكي أصنع لكما مشروبًا ساخنًا.. هذا كله حدث منذ قليل»..

أخذ عصام يداعب ذقنه متفكرًا: «ماذا؟»..

..ثم نظر إلى أميرة بفضول: «هل تتذكرين أننا تحدثنا منذ قليل؟».. هزت أميرة رأسها نافية: «لا.. لا أتذكر شيئًا من هذا».. نظرت إليهما عمتها بخوف شديد: «ماذا يحدث معكما.. لا تشعراني بالخوف.. لقد حدث هذا منذ قليل.. لا تشعراني بأني أصبت بالجنون».

أخذ عصام ينظر إلى يديه فشاهد ساعة بيده اليمنى.. فخلعها من يده وأمسكها بأطراف أصابعه وأخذ يحدثهما: «لا تقلقي.. أنتِ لم تصابي بالجنون.. والساعة بيدي تثبت ذلك».. سألته أميرة بفضول: «الساعة.. الساعة تثبت ماذا؟».. أجابها عصام سريعًا: «سوف أخبرك بشيء أفعله دائمًا حتى لا أنسى، اسمه الارتباط الشرطي.. وهو ببساطة ربط شيء بآخر لكي يتذكره العقل.. مثلًا عندما أريد أن أفعل شيئًا

وأخاف أن أنساه أقوم بربطه بشيء آخر أفعله عادة.. مثلًا إذا أردت أن أتذكر أن لدي موعدًا مع شـخص في الخامسـة وأردت أن أتذكره أقوم بخلع سـاعتي التي أرتديها بيدي اليسرى دائمًا وأضعها بيدي اليمنى.. فعندما يشـاهد عقلي في وسـط انهماكـي بأي شيء آخر السـاعهة بيدي اليمنـى الـذي كان متعـودًا أن يراها بيـدي اليسرى يتذكـر بأني فعلت هـذا الأمر لشيء مهـم ألا وهو أن لدي ميعادًا في الخامسـة فيذكرني في حينها.. وهذا هو الارتباط الشرطي بشكل مبسط.. ولقد فعلت ذلك بالتأكيـد قبـل أن نتحدث معًا ووضعت سـاعتي في يـدي اليمنى لكي تذكـرني .. إذًا لقد قمنا بالفعل بالتحدث عن أمر ما ونسـيناه أنا وأنتِ مرة أخرى»..

.. سألته عمتها في الحال: «ما هو ذلك الشيء الذي لا تتذكرانه؟».. ابتسم عصام في الحال: «لو كنا نتذكر لما كنت فعلت كل تلك الأمور.. وممـا أراه يبـدو أننا لن نتذكـر أبدًا.. هناك شيء قـوي للغاية يمنعنا من تذكـر ما نبحث عنه».. أخذ الجميع ينظـر بعضهم إلى بعض باندهاش شديد لما حدث..

* * *

في منتصـف ذلك اليوم كان الطابور المعتاد يقف أمام سرور وعزام خـارج المتجـر ينتقون مـن يدخل إلى المتجـر ويقتني مشـترياته، ولكن حـدث شيء غير معتـاد أمامهم.. حيـث وقـف سراج أمامهم وخلفه خمسـة جنـود مسـلحين.. هنا شـعر بعض المشـترين بالطابـور بالفرح

الشـديد وتحركوا مسرعـين ليتحدثوا إليهم ويشـكوا عـزام وما يفعله بهـم.. لكـن بعضهـم منع هـؤلاء المتحمسـين وأخبروهـم أن ينتظروا قليلًا ليشـاهدوا ما يحدث.. فانصاعوا جميعًا لرأي زملائهم وعادوا إلى الصفوف ليترقبوا الوضع.. وقف عزام بصعوبة وهو يتكئ على عصاه وأخذ يحيي الضابط سراج: «يا أهلًا.. يا أهلًا بك يا سـيد سراج.. لقد أنرت متجري»..

تجاهلـه سراج وهـو يحدثـه بحدة: «مـاذا يحدث هنا يا سـيد عزام؟ لماذا يقف الجميع بهذا الشكل خارج المتجر؟ ومن هؤلاء الأوغاد؟».. وأشـار إلى جهـة شـعبان ورجالـه الذيـن انسـحبوا إلى داخـل المتجـر بهـدوء.. ابتسـم عـزام لـه وأخذ يحدثـه وسـط مراقبة قلقـة من سرور الـذي خـشي أن يحدث صدام لهـم مع الشرطة.. تحرك عـزام خطوات جهـة سراج: «لا شيء يحـدث غريب يا سـيد سراج.. الناس تبتاع من متجـري مثل كل يوم.. أمـا هؤلاء الأوغاد الذيـن تتحدث عنهم فهم مـن يحموننى بعد أن تعرض متجـري للسرقة والنهب والشرطة حينها لم تحـرك سـاكنًا».. أجابـه سراج بعنـف: «أنت لم تقم بالبـلاغ عن هذا الأمر.. وأنت تعلم بأني وجنودي متواجدون في مكان معلوم للجميع ونسـاعد في الحفـاظ على الأمن في وسـط هذا الجنون الـذي يحدث في أنحـاء المدينـة ونحن لا ندخر وسـعًا في مسـاعدة أي شـخص.. وثق بالتأكيد أننا سوف نحاسب من فعل ذلك بك وبمتجرك.. لكن بنفس الوقت لن أستطيع أن أغض الطرف عمَّا تفعله بأهل المدينة واحتكارك

لجميـع السـلع والطعـام والوقود وأيضًـا رفعك الأسـعار بطريقة غير معقولـة في ظل هذا الحصار المحيط بالمدينة؛ ولهذا أتيتُ لأتحدث معك بطريقـة وديـة كي نحل هـذا الأمر.. ولكـن لا داعـي لأن أذكرك بأني أستطيع أن أحل هذا الأمر بالقوة أيضًا.». وأشار إلى الجنود المتحفزين خلفه.. نظر عزام إلى الجنود بغضب: «أتهددني بجنودك؟ هل استمعت إلى كلام مازن وتقف معه ضدي؟!»..

..«أنا لا أقف مع أحد ضد أحد.. أنا أقف مع القانون ومع مصالح المواطنين.. وما تفعله لا يمت للقانون أو يصب في مصالح المواطنين»..

أخـذ عزام يجز على أسـنانه وهو يضغط على عصـاه بقوة وقد تملكه الغضـب.. وبـدا للجميـع أنـه سـينفجر بوجـه سراج وجنـوده.. هنا قفـز سرور أمامـه ومنعه مـن ارتكاب حماقتـه التي كان باديًـا للجميع أنه سـينفذها.. سـحبه سرور برفـق جهة مقعده وهو يهدئـه: «لا تقلق يا سـيد عـزام.. اتـرك لي هـذا الأمر.. سـوف أتصرف به أنـا».. حدثه عزام بغضب شديد: «أرأيت ماذا يحدث معي؟ يتركون الملاعين الذين سرقـوني وكادوا يقتلونني ويتحدثون إلي كـما لو أنني الجاني.. أهذا هو القانـون؟! أهـذا هـو العـدل؟!».. ربـت سرور على كتفـه وأخبره أن يجلـس ويهدأ ولكن عزام رفض ذلك بقـوة وظل واقفًا ينظر إلى سراج وجنـوده شـزرًا.. اتجـه سرور في الحـال إلى العقيـد سراج وتحدث إليه بصـوت هادئ: «سـيد سراج أعتذر لك على حدة موقف السـيد عزام ولكـن ما حدث معه من قبل أغضبه بشـده.. أتمنـى أن تغفر له حديثه

ونحن رهن أمرك سوف نفعل جميع ما ترغب».. هنا صرخ عليه عزام من خلفه غاضبًا: «بماذا تهذي يا سرور؟ هل جننت؟! لن أفعل شيئًا أبدًا رغمًا عني.. ولن يرغمني أحد على فعل ذلك ولا مازن ولا حتى الشرطة نفسها.. يا شعبان.. فلتحضر أنت ورجالك».. في تلك اللحظة خرج شعبان بصحبة خمسة عشر رجلًا مسلحين بالعصي والمدى وذهبوا مسرعين ليقفوا خلف عزام متأهبين وهم يضحكون ساخرين من الجنود أمامهم.. هنا امتقع وجه سراج بحمرة الغضب وكاد رأسه يصدر دخانًا وهو يشاهد شعبان ورجاله يسخرون منه ومن جنوده.. قام في الحال بإخراج سلاحه الناري وشد أجزائه متأهبًا وصرخ برجاله: «استعدوا للاشتباك».. فرفع الجنود أسلحتهم في الحال على شعبان ورجاله.. ودب الذعر والقلق في الناس بداخل الطابور وعلت الهمهمات وتصاعدت رايات الخوف في الأفق.. وتحدث سراج بغضب شديد إلى عزام وهو يرفع سلاحه أمامه: «أتتحدى الشرطة يا عزام؟ أتتحدى القانون؟ سوف أجعلك تدفع الثمن غاليًا.. أحذركم الآن.. إما أن تلقوا بأسلحتكم وعصيكم وإما سوف أطلق النار بعد خمس ثوان».. هنا وقف سرور مضطربًا أمامه وهو يحاول أن يهدئه: «سيد سراج.. سيد سراج.. أرجوك.. انتظر أرجوك.. سوف أجعلهم يمتثلون لأوامرك الآن.. أرجوك.. انتظر»..

سراج بضيق: «إذا لم يتركوا أسلحتهم خلال خمس ثوان فسوف أطلق النار عليهم جميعًا».. هنا اتجه سرور راكضًا وهمس في أذن

عـزام المضطرب: «ماذا تفعل؟ ماذا تفعـل؟ اتركني أتعامل أنا مع هذا الموقف.. سوف أجعلهم يرحلون.. اهدأ واتركني أنا أتعامل معهم».. ابتلع عزام ريقه في خوف وأومأ برأسـه له موافقًا: «توجهْ مسرعًا جهة شعبان وأْمُرْه في الحال بلهجة حادة بأن يترك هو ورجاله أسلحتهم».. تـردد شـعبان للحظـات ولكن مـع إصرار سرور قام بترك أسـلحته.. فتوجـه سرور مسرعًا جهـة سراج مرة أخرى وحدثـه بصوت هادئ: «سـيد سراج.. أرجـو أن أتحدث معك للحظات على انفـراد».. أجابه سراج بضيـق: «لا يوجد ما نتحدث عنه.. سـوف ينفـذ عزام أوامري برضائه أو على الرغم عنه».. أخذ يحدثه سرور بترجٍّ: «أتمنى أن تسمعني لدقيقـة واحدة ومن ثم أفعل ما تريـد.. أرجوك.. أنت تعلم بأني أتمنى الخير لجهينة وأهلها».. نظر إليه سراج بطرف عينيه ساخرًا: «أنت تحب أهل جهينة؟! يبدو أنك مستمتع مع عزام بالانتقام منهم.».. «أرجوك دعني أشرح لك وجهة نظري ومن ثم اتخذ قرارك»..

تنهد سراج ثم وضع سـلاحه مكانه مـرة أخرى وتحدث إلى الجنود خلفه: «ابقوا في أماكنكم.. إذا تحرك أحد أو فعل أمرًا مشبوهًا فأطلقوا النار عليه في الحال».. أومأ الجنود برءوسهم وأخذوا وضع الاستعداد بينما ظل عزام وشـعبان والجميع وعيونهم متعلقة بسرور وسراج وهما يبتعدان عنهم قليلًا ويتحدثان بهدوء.. أخذ سرور يتحدث إلى سراج: «سـيد سراج.. أنا أعلم جيدًا بأنك ضابط متميز وخلوق وأنك أنسب شخص الآن ليتواجد بجهينة في تلك الأوضاع الغريبة.. لأنه لو تواجد

أي ضابط غيرك لكانت حدثت كوارث بالمدينة منذ زمن بعيد»... «حسنًا.. ماذا تريد من وراء كل ذلك التملق؟ ماذا تريد يا سرور؟»..

تنهد سرور وأجابه بصوت هادئ للغاية: «سيد سراج.. أنت بالطبع تعتقد أن حديثي هذا كذب وغير حقيقي ولكن صدقني أنا أرغب بمساعدة جهينة وأهلها على الرغم ممَّا فعلوه معي؛ ولهذا وقفت في وجههم عندما حاولوا سرقة عزام.. وأقف مع عزام الآن ضدهم حتى لا يحدث ذلك مرة أخرى.. نعم أنا أعلم بأن هناك بعض الأمور التي تحدث وأنت غير راض عنها.. وأنا أيضًا غير راض عن حدوثها ولكن يجب أن نضع مصلحة جهينة وأهلها فوق أي شيء آخر».. ابتسم سراج ساخرًا: «ماذا؟ أتعني أن تحكمك في أهل المدينة هكذا ورفع الأسعار عليهم ومنعهم من الحصول على ما يرغبون هو في صالحهم؟!»..

«نعم بالتأكيد هذا بصالحهم.. لقد ظللت أفكر بذلك كثيرًا.. تخيل معي إذا لم يكن عزام محتكرًا لكل البضائع ومازالت بعض المتاجر تعمل فماذا كان سيحدث؟ عمليات سلب ونهب كثيرة جدًّا وبعضها قد يحدث به قتل وتدمير.. أما إذا كانت كل السلع بمكان واحد ومحروس جيدًا فلن يحدث ذلك أبدًا.. وهذا ما نفعله الآن.. أما بالنسبة لهؤلاء الأوغاد -وأشار برأسه جهة شعبان ورجاله- فإذا تركناهم يرتعون بالمدينة بدون حارس أو رقيب فماذا كانوا سيفعلون؟! أنا أعلم بأنك بالطبع تحرص على أمن وسلامة المدينة ولكن لنكن واقعيين؛ أنت

ورجالـك لا تعدون عشرين أو ثلاثين شـخصًا على أقصى تقدير.. أي مواجهة مع أهل المدينة أو هؤلاء الأوغاد ستكلفك الكثير من الرجال وسوف يصاب الأبرياء وسط ذلك بالتأكيد.. وأنا أعلم بأنك لم تشارك بالكثـير من الصراعات التي تحدث بالمدينة لأنك تريد أن تظهر بمظهر القـوة الرادعـة الأخيرة بالمدينـة، وأنـا أرى أن فعلك لهـذا الأمر ذكاء منـك.. أنـا أوفر عليـك الكثير بجعل هـؤلاء الأوغاد يحرسـوننا بدلًا مـن أن يسرقونـا.. جعلتهـم هم حائط الصد أمام شـغب أهـل المدينة ومشاكلهم بدلًا منك ومن رجالك.. أنا لا أرى خطأ بذلك؛ بل إنه من الحكمة.. اصدقني القول.. ألا ترى حديثي هذا منطقيًّا بالفعل؟».

«اممم.. ماذا تعني بكلامك يا سرور؟.. ماذا تريدني أن أفعل؟ ..»

«أريدك أن تترك كل شيء كما هو»...

«أتريـدني أن أغـض الطرف عمَّا يحـدث وأترك الأمـر يمضي؟!».. أخذ يبتسم ساخرًا ثم أكمل حديثه:

«وإذا لم أفعـل ذلك يا سرور ولم أدع الأمر يمضي ولم أغض الطرف عـمَّا يحدث.. ماذا سـتفعل؟».. هنا نظـر سرور إلى عين سراج بتحد ثم اقترب منه أكثر وحدثه هامسًا بالقرب من أذنه:

«حسـنًا.. سـيحدث كالتـالي.. سـوف أقـوم بتدمير مخـازن الطعام والـشراب بالمتجر وأهرق الوقود بشـوارع جهينة.. وأتركك بمواجهة أهلهـا الجائعـين برفقة جنـودك المدججين بالسـلاح.. الذين لن يجدوا ما يأكلونـه.. أظن أنك سـوف تـرى في حينها أن هـؤلاء الجنود الذين

تحتمـي بهم الآن لـن يختلفوا حينها كثيرًا عن هـؤلاء الأوغاد ممن كنت ستطلق عليهم النيران منذ قليل».. ابتعد سرور قليلًا عن سراج وأخذ ينظـر إلى وجهه الذي أصابـه الذهول.. فتابـع سرور حديثه إليه: «دع الأمر يمضي.. وجنودك سيجدون ما يأكلونه.. دع الأمر يمضي وأطفئ فتيـل الفتنـة المشـتعل».. ثم أعطاه ظهـره وتحرك بجهة عزام وشـعبان اللذيـن انتابهما الفضول الشـديد عندما وجدا وجـه سراج تغير.. أخذ سراج ينظـر إلى سرور قليـلًا ثم ابتلع ريقه وتحـدث إلى جنوده بالحال: «هيـا اتبعوني».. امتثل الجنود لأوامره وانسـحبوا خلفـه مبتعدين عن متجر عزام وسـط صيحات الاستحسـان والتبجيـل من عزام ورجال شعبان لسرور الذي أخذ يستمع إليهم مبتسمًا وهو يراقب ابتعاد سراج ورجاله عن المتجر حتى اختفوا من أمامه..



(انقلاب)

كريم يتهادى بالطرقات وهو يضع يديه في بنطاله متبخترًا يتفحص أحوال المدينة وأهلها وهو يبحث عن شيء بعناية شـديدة وباسـتمتاع كبير ظاهر على وجهه في شـكل ابتسـامة وهو يحدث نفسه: «أين؟ أين اختبأت هذه المرة يا رامي؟ فلتظهر سريعًا أريد أن نلهو معًا قليلًا»..

«كريم.. يا كريم».. صوت شخص يناديه من خلفه.. التفت كريم جهتـه ليجد مـازن عمدة المدينة يركض بصعوبـة باتجاهه ووجهه مليء بالجـروح والكدمات.. توقف كريم ليلحقه مازن وهو يلهث بصعوبة لعدة ثوان ثم حدثه بلهفة شديدة: «أرايت.. أرأيت يا كريم ماذا حدث بجهينة من مصائب؟ لقد استولى عزام على البلدة بأكملها وجعل أهل المدينـة يضربوننـي وكادوا يقتلوننـي.. هل تتصور ذلـك؟ أهل جهينة يفعلـون بي ذلك!!».. نظر له كريم ببلاهة شـديدة وهـو يتابع حديثه: «لقد اسـتولى عزام هذا الملعون على المدينة.. كنت دائمًا حذرًا من متولي وبيومي ولكن لم يكن في مخيلتي أبدًا أن يقتنص عزام هذا الوغد العجوز المدينـة من تحت أقدامي.. حتـى الشرطة.. حتى الشرطـة اللعينة التي سـمحت لها بأن تعيث فسـادًا بجهينـة وقوانينها لم يسـتطيعوا الوقوف أمـام عزام.. لقد فشـلت حتى الشرطة في مواجهة عـزام.. أنا لا أعلم

مـاذا أفعـل الآن.. المدينة سـتدمر إذا لم نحافظ عـلى قوانينها يا كريم.. كل مـا قمت ببنائه سـوف تذروه الرياح.. يجب أن نفكر بطريقه لكي نزيح هذا الوغد عزام وسرور من حكم المدينة.. أنا متأكد بأن كل هذه الأمـور من تدبير سرور المنبوذ اللعين.. إنـه ينتقم مني أنا وأهل المدينة لجعلنـا إياه منبوذًا».. وقف كريم يرقب مـازن وحديثه ولم ينبس ببنت شفة.. شعر مازن بالريبة من فعله: «لماذا لا تجيبني يا كريم؟ لماذا تكتفي بمشاهدتي هكذا؟»..

هز كريم كتفيه بلامبالاة: «ماذا تريدني أن أفعل؟».

مسـتنكرًا: «مـاذا أريدك أن تفعل؟ أريـدك أن تقف معي ضد عزام وسرور ومتـولي وبيومي وجميع الخونـة الموجودين بجهينة.. أريدك أن تتوحد معي ضدهم لكي نعاقبهم جميعًا»..

أخذ كريم يومئ برأسه قليلًا: «نعم.. نعم.. ثم ماذا؟»..

مازن مندهشًا من رد فعله: «ثم ماذا؟.. ثم.. ثم نعود لنحكم جهينة من جديد ونعيد إليها قوانينها وأمنها»..

ابتسم كريم ساخرًا: «ثم يخرج شخص آخر يريد هو أيضًا أن يحكم جهينـة ويفـرض قوانينـه عليها.. ثم يظهر شـخص آخـر ليفعل نفس الأمر.. ثم شـخص آخر.. ثم شـخص ثم آخر.. وندخل بدائرة مغلقة هكذا إلى الأبد.. أنا لا أفهم لماذا كل ذلك.. عمر الإنسان قصير للغاية.. أنا مازلت مندهشًا أن يترك جميع متع الحياة وبهجتها ويقضي عمره يريد أن يسيطر عـلى الأشـخاص الآخرين ويفـرض عليهم أفـكاره.. لماذا

لا يتعـاون البشر مثل النحل والنمل وجميـع المخلوقات؟ لماذا يبحثون دائمًا عن أوجه الاختلاف بينهم لكي يتصارعوا مع بعضهم؟ لماذا تريد مـن أهل جهينة أن يتبعوك؟ لماذا لا تتبع أنت أي شـخص آخر إذا كان يفعل ما في مصلحة جهينة وأهلها كما ترغب؟ أنا لا أفهم»..

غاضبًـا مسـتنكرًا: «ما هـذا الهراء الـذي تقوله يا كريـم؟ لا يوجد أي شـخص في تلك المدينـة يعلم مصلحة جهينة وأهلهـا إلا أنا.. لقد نجحـت بفعـل ذلك لمدة 30 عامًا وأسـتطيع أن أفعـل ذلك إلى الأبد.. إذا تركـت المدينة لأي شـخص آخر فسـوف يبحث عـن مصلحته هو فقـط وليس مصلحة أهل المدينة.. أنا ضحيت بعمري وشـبابي بأكمله من أجلهم.. لقد اسـتغنيت عن عائلتي الصغيرة وجعلتهم هم عائلتي وتريد بعد كل تلك التضحيات أن يتقلد منصب العمدة شـخص آخر غـيري؟! هذا لن يحدث أبـدًا ولو على جثتي.. أنـت تتحدث مثلهم.. أنـت أيضًا تواطأت معهم ضدي يا كريم.. حتى أنت أيها اللعين تتآمر ضدي.. جميعكم خونة.. سـوف أجعلكم جميعًـا منبوذين.. أنتم جميعًا من اليوم منبوذون.. جميع من لا يسـتمع إلى أوامري سـيكون منبوذًا.. جميعكم ستكونون منبوذين»..

ضحـك كريـم ببطء قليلًا عـلى رد فعل مازن.. ثـم انفجر ضاحكًا بشدة وهو يرى علامات الغضب والدماء تكاد تنفجر من عروقه.. ثم ربت على كتفه للحظات وهو يضحك ضحكًا شديدًا:

..«أنـت.. أنـت.. هههههـه.. أنـت سـتجعلني أنـا منبـوذًا؟ ههههههههـه».. أومأ برأسـه إليه: «لا تقلق.. سـوف نصلـح الجميع.. سـوف نصلـح الجميع قريبًـا جدًّا».. ثـم تركه وانصرف ومازن يسـبه هـو وأهله وقبيلتـه وينعته بالمنبـوذ والخائن.. وكريم يسـتمع إليه وهو يضحك مبتعدًا عنه..

❋ ❋ ❋

كان سرور عائـدًا مـن منزله متجهًا إلى متجر عزام وهو يفكر بعمق شديد بما يحدث بجهينة وكيف سيتصرف الجميع بالأيام القادمة.. كان يشعر بالقوة في تلك الأيام.. قوة لم يكن يتوقعها بحياته كلها.. الجميع يتملقه بشدة؛ يحيونه بالطريق، ويغدقونه بكلمات المديح، والابتسامات المغلفة بالعسل والشهد، ولكن بأعماق نفسه كان يشعر بالقلق والخوف مـن المجهول القـادم.. لم يعد بمقدور أي شـخص من أهـل المدينة أن يتوقـع ماذا سـيحدث في الدقائـق التالية.. كل صباح أو مسـاء يصبح للمدينة شـأن آخر.. سـمع صوتًـا يناديـه فالتفت خلفـه سريعًا ليجد سـيدة في بداية الثلاثينات تمسك بيدها طفلتها وتقترب منه وهي تبكي بحرقة: «سـيد سرور.. أرجوك سـاعدنا أنا وعائلتي.. أتوسل إليك.. أقبل يديك وقدمك».. واقتربت من يده لتحاول تقبيلها فشـعر سرور بالاضطراب الشـديد من فعلها وسـحب يده سريعًا وسـألها بفضول: «مـاذا هنالك يا سـيدتي؟ ماذا حـدث؟».. أجابته بدموع شـديدة: «أنا

زوجة محرم سـعيد.. أنت تعرفه بالطبع».. أومأ لها سرور برأسه: «نعم بالطبع أعرفه»..

«لقـد تركنـي محـرم منذ عدة أسـابيع في رحلة إلى عملـه ولم يعد إلى جهينة بسـبب الضباب الذي يحيـط بنا هذا.. وترك معـي أموالًا قليلة شـارفت عـلى الانتهاء بسـبب الأسـعار التي يضعها السـيد عـزام كما تعلم.. وأنا لا أعترض على ذلك.. أنا لا أحتاج مساعدة من أحد أرغب فقط بأن أحصل على طعامي واحتياجاتي أنا وابنتي بسـعر الأمس فقط وأرجو أن تساعدني في ذلك».. اندهش سرور من حديثها: «ماذا تعنين بأسعار الأمس؟»..

«السـيد عزام قام برفع الأسـعار جميعها 20 ضعف أسعار الأمس.. ألا تعلم ذلك الأمر؟»..

أجابهـا مصدومًـا: «مـاذا؟ لا لم أعلـم.. أنا منـذ أول اليـوم بالمنزل بسبب مرض ابنتي».. اقتربت منه السيدة وقبلت كتفه سريعًا مترجية: «أرجـوك يا سـيد سرور.. أقبل قدمك سـاعدني أحلفـك بحياة ابنتك الغالية أن تجعل السـيد عزام يعطينا الطعام بأسعار الأمس فقط.. جميع الأموال التي معي لاتكفي لشراء أي شيء بهذه الأسعار الجديدة»..

نظر سرور إلى السيدة بشفقة شديدة وهو يري دموعها المنسابة على وجههـا ووجنتيهـا الحمراوين من كثرة الحـزن.. وطفلتها بيدها تبكي لبكاء أمها وأنفها يسـيل وهي تحتضن قـدم أمها بخوف.. رجف قلب سرور بشـدة لهـذا المشـهد.. لا يوجد أي إنسـان طبيعـي في هذه الحياة

يستطيع أن يشاهد دموع المرأة والأطفال ويقاومها.. مشهد دموع تلك الطفلة البريئة أثرت به بشدة لا يعلم لماذا.. في تلك اللحظة تذكر دموع ابنته وهي تبكي وتحتضنه وتخبره أنها آسفة لأنها طلبت منه قطعة شيكولاتة وشعوره بالعجز وقهر الرجال في حينها.. كل هذه الذكريات أشعلت الغضب في قلبه وأمدته بالشجاعة في أوصاله فاخبرها بكل ثقة: «لا تقلقي.. سوف تأخذين كل ما تريدينه بالتأكيد.. أنا سوف أحرص على ذلك بحياتي».. شعور السعادة التي ظهرت على وجه المرأة وهي تشكره وتكيل له المديح الذي كاد يجعله يبكي من التأثر ولكنه حافظ على رباطة جأشه بضعف شديد.. ومن ثم ابتسم لمداعبة الأم لابنتها وتغير حالة الحزن التي انتابتهما.. تقدمهما سرور إلى جهة متجر عزام الذي كان يشغل كالنحل.. جموع من أهل المدينة غاضبون يصيحون بشعبان ورجاله الذين كانوا يطيحون بهم ضربًا وصراخًا وعزام جالس بداخل متجره يرقب ما يحدث بابتسامة شديدة.. نظر سرور إلى شعبان وهو يلطم بعض الشباب ويسبهم ويرفع سكينه الصغير على رءوسهم.. اتجه سرور غاضبًا إلى جهة عزام وتبعته السيدة وهي تحمل ابنتها خوفًا ممَّا يحدث.. توجه سرور إلى عزام بسؤاله في الحال: «ماذا يحدث يا سيد عزام؟ هل رفعت الأسعار عشرين ضعفًا بالفعل؟».

ابتسم عزام بفخر: «لا بل خمسين ضعفًا».. شعر سرور والسيدة بالصدمة، وهنا شاهد عزام السيدة بجوار سرور فحدثها بغضب:

«أنـتِ مرة أخـرى؟ ألم أخبركِ أنكِ لو قمتِ بالبـكاء حتى العام القادم فلن تأخذي شيئًا إلا بعد أن تدفعي بالسعر الجديد؟ هيا اخرجي من هنا لا تضيعي وقتي».. نظرت السـيدة بأسى إليه ثم حدثت سرور بترجٍّ: «سيد سرور.. ساعدني».. صرخ بها عزام غاضبًا: «تستنجدين بسرور وتعصين كلامي!! اخرجـي الآن أيتها اللعينة من متجري ولا تأتي إلي مرة أخرى لن أبيعك شـيئًا مرة أخرى.. هيا اذهبي وإلا جعلت رجالي يلقونكِ إلى الخارج».. بكت السـيدة وهي تمسك بكتف سرور: «سيد سرور أنجدني».. شعر سرور بالغضب الشديد من رد فعل عزام فحدث السـيدة وهـو ينظر إلى عـزام غاضبًـا: «انتظريني بالخارج يا سـيدتي.. لا تذهبـي إلى منزلـك انتظريني بالخـارج فقط».. نظرت السـيدة إليه للحظـات ثـم أومـأت برأسـها وخرجت إلى خـارج المتجـر.. تحدث عزام إلى سرور غاضبًا: «ماذا تفعل يا سرور؟! أسـوف تكسر أوامري أم ماذا؟».. أجابه سرور بهدوء: «لا بالطبع يا سيد عزام ولكن أريد أن أعلم لماذا رفعت الأسـعار هكذا».. مبتسـمًا: «ولمـاذا لا أرفعها؟ مازن أصبح بلا قيمة تذكر ولا شـخص يتبعـه.. وكبار عائلات جهينة رهن أمري حتى لا أغضب عليهم وأمنعهم من الحصول على احتياجاتهم.. حتى الشرطة لم تسـتطع أن تفعل شيئًا ولن تعترض طريقي بعد الآن.. وكل هذا يرجع لفضلـك أنت.. أصبح لي ملك المدينة بأكملها والكل رهـن أمري وكل ذلك بمسـاعدتك بدون شـك؛ ولهذا سـوف أغدق عليك بالغالي والنفيس فأنا لا أنسى من يقف معي أبدًا..»..

«يا سيد عزام لكل شيء حدود.. رفع الأسعار هكذا لن يجعل مع أهل المدينة أي نقود ليقوموا بشراء أي شيء آخر».. مبتسمًا: «نعم لن يكون لهم نقود.. ولكن سيكون معهم ذهب.. مجوهرات.. ملابس.. عقارات وأراض.. فليعطوني كل شيء.. كل المدينة وممتلكاتها وأهلها سيكونون لي».. أجابه سرور مندهشًا: «ماذا تقول يا سيد عزام؟ أتريد أن تسلبهم كل شيء؟ كيف يعقل هذا؟».. رفع عزام نظارته من على وجهه قليلًا وهو يحدث سرور: «ما بك يا سرور؟ مالك تدافع عن أهل جهينة هكذا؟ هل تأثرت بالدموع الكاذبة لهؤلاء الأوغاد؟ هل نسيت ما فعلوه بك وهم يعاملونك كالكلاب الجربة؟ هل نسيت ما فعلوه بك وبابنتك هنا في متجري؟ هل نسيت كل ذلك؟ إذا كنت نسيت فأنا لم أنسَ أنهم سرقوني وكادوا يقتلونني».. تأثر سرور بحديث عزام قليلًا ولكنه حاول أن يثنيه عن رأيه قليلًا: «يا سيد عزام أنا ألتمس عطفك وكرمك وأتمنى أن تخفض الأسعار قليلًا حتى يستطيع أهل المدينة الحصول على حاجياتهم في حدود المعقول»..

«لا تحاول كثيرًا يا سرور لن أخفض أي شيء مهما حاولت..»..

«يا سيد عزام أنا أتمنى أن تفعل ذلك من أجل الأطفال.. إنهم أبرياء ليس لهم أي ذنب بما يحدث.»

بحدة: «ذنبهم أنهم ولدوا من أصلاب هؤلاء الأوغاد من كادوا يقتلونني.. سرور يجب أن تحدد موقفك الآن.. إذا لم تدعمني في أوامري.. مكانك سيكون مع هؤلاء الأوغاد بالخارج..» شعر سرور

بالغضب الشديد من تهديد عزام فتركه وخرج إلى خارج المتجر ليجد السيدة هي وابنتها في انتظاره ومازال هناك هرج ومرج مع شعبان ورجاله ومع بعض أهل المدينة.. هنا اقتربت السيدة منه في قلق وحدثته بترجٍّ: «ماذا حدث يا سيد سرور؟ هل أقنعت السيد عزام بشرائنا بأسعار الأمس؟».. في تلك اللحظة فتح باب المتجر وخرج عزام وهو يرمق سرور والسيدة بضيق ثم تحدث بصوت عال في الجميع: «أيها الأوغاد.. أيها الأوغاد اسمعوا قراري الأخير».. هنا هدأت الجموع ووقف الجميع ليستمعوا إلى عزام الذي صرخ بهم: «هناك شكاوى كثيرة أتت إلي لكي أخفض أسعار السلع قليلًا.. واستجابة لتلك الطلبات أعلن من اليوم أن أي سلعة ستباع بمائة ضعف سعر الأمس ومن لا يعجبه فليذهب إلى الجحيم».. ثم نظر إلى سرور بغضب ودلف إلى المتجر.. هنا قام الجميع بالصراخ غاضبين ومستائين وصرخت السيدة وسقطت على الأرض فاقدة للوعي وصرخت طفلتها عليها وأخذت تبكي وهي تحاول مساعدة أمها وهي لا تعلم ماذا تفعل فركضت مسرعة جهة سرور وهي تمسك يده وتسحبها لمساعدة أمها: «أمي.. أرجوك ساعد أمي».. هنا ارتجفت يد سرور وهو يشاهد بكاء تلك الطفلة الصغيرة وهي تحاول إنقاذ أمها مما ألم بها.. هنا لم يستطع سرور احتمال هذا الغضب والعجز الذي اجتاح قلبه.. قرر أن ينفذ أمرًا دار بمخيلته كثيرًا ولكنه لم يكن يفكر يومًا أن ينفذه.. دلف إلى المتجر سريعًا وترك الفتاة تصرخ على أمها.. ركض بعض الأشخاص جهة السيدة وقاموا بمحاولة إفاقتها وبعد

عدة محاولات نجحوا في ذلك فألقت الابنة نفسها على أمها وهي تبكي وأمها ظلت تبكي هي أيضًا.. هنا تفاجأ الجميع بمشهد غريب للغاية.. سرور يسحب عزام إلى خارج المتجر وحوله بعض العاملين بالمتجر يحدثونه مرتاعين وسرور يضع سلاحه الناري على رأس عزام.. هنا أطلق سرور طلقة في الهواء فتوقف الجميع ليشاهد ماذا يحدث ليجدوا هذا المشهد أمامهم.. صرخ سرور في الجميع ويده ترتجف بالسلاح على رأس عزام الذي امتقع لونه من الخوف والصدمة: «اسمعوني جميعًا.. من اليوم عزام سيترك هذا المتجر في عنايتي أنا سوف أديره بنفسي من الآن فصاعدًا».. صرخ عليه عزام غاضبًا: «أتريد أن تسلبني متجري يا سرور؟ أتفعل ذلك بي بعد أن وثقت بك أيها الخائن؟».. قام سرور بدفع عزام بعنف: «اصمت الآن أيها الوغد العجوز لقد ساعدتك عندما كنت تمتلك قلبًا.. أما الآن فأنت بقلب متحجر مثل مازن أو أشد تحجرًا.. شعبان.. فلتقم بوضع السيد عزام بمنزله ولا تجعله يخرج من هناك أبدًا».. هنا صرخ عزام بشعبان مستنجدًا: «شعبان.. أنقذني من هذا الوغد وسوف أجعلك ساعدي الأيمن بدلًا منه وسوف أقوم بزيادة حصصك من الطعام والشراب وسأضاعف مرتبك ثلاثة أضعاف بل خمسة أضعاف».. وقف شعبان قليلًا يشاهد الموقف بعناية ورجاله يرقبونه لينفذوا أوامره.. هنا ابتسم شعبان وهو يقترب من سرور وعزام.. شعر سرور بالاضطراب خوفًا أن يقوم شعبان باتباع عزام ويضطر أن يدخل في قتال معه ولكن شعور الاضطراب تحول إلى اندهاش عندما وجد شعبان يضحك وهو يصدر

صوتًا من أنفه: «عرضك مُغرٍ أيها العجوز.. ولكن للأسف سوف أحصل عليه من الزعيم الجديد».. ثم نظر إلى سرور ضاحكًا.. وهنا أومأ له سرور بالموافقة وهو يشعر بالفرح الشديد نتيجة تغير موقف شعبان واعترافه له بالزعامة.. اقترب شعبان من عزام ووضع سكينه خلف أذن عزام بطريقة احترافية وسحبه منها فتحرك معه عزام خائفًا: «شعبان.. شعبان هل ستبيعني يا شعبان أنت أيضًا.. سوف أعطيك ما تريد.. سوف أدعك تفعل ما تريد.»

هنا ضرب شعبان على رأس عزام بظهر السكين وهو يضحك: «اصمت أيها العجوز.. لقد أصبح لي زعيم آخر كما أخبرتك.. هيا تحرك معي الآن وإلا سوف تكون الضربة القادمة أسفل الحزام..».. تحرك معه عزام وهو مقهور ذليل مصدوم من فعل سرور الذي تلاشى النظر في عيون عزام التي كانت تصرخ عليه متوسلة.. ولكنه تجاهلها سريعًا.. صاح أحد الأشخاص عليه: «ماذا ستفعل معنا؟ هل سترفع الأسعار أنت أيضًا».. أجابهم سرور في الحال: «لا.. أول قرار أن جميع الأسعار سوف تعود إلى نفس أسعار اليوم الأول الذي حدث به هذا الضباب».. تعالت أصوات الجميع به مهللين فرحين وارتمت السيدة وهي تحمل ابنتها على يده لتقبلها فرحة وهي تدعو له وشعبان وقف مبتسمًا يشاهد فرحة الجميع بينما عزام ظل ينظر إليهم متحسرًا منكسرًا.. أوقف سرور الجميع بإشارة من يده فتوقف الجميع عن الصياح وعم الصمت فتحدث سرور إليهم: «كما أخبرتكم جميع الأوضاع ستعود

كـما كانـت قبل حصار هـذا الضبـاب للمدينـة ولكن بشروطـي أنا.. ومـن لا يقوم باتباع تلك الشروط فسـوف يحرم مـن الحصول على أي احتياجـات مـن المتجر ومن يسـاعده سـوف يحـرم هو أيضًا».. سـأله أحد الأشـخاص بفضول: «وما هي تلك الشروط؟ أخبرنا».. سـوف أخبركـم بالتأكيـد ولكن ليـس الآن.. جميـع أهل المدينة سـيخضعون لتلـك الشروط بلا اسـتثناء ولكن سأكشـف عنها في وقتهـا.. أما الآن فيجـب أن ينتظـم الجميـع بالصفـوف مرة أخـرى لكي نعـاود عمليه البيـع والـشراء مرة أخـرى».. هنا قام شـعبان بالتصفيـق فتبعه رجاله ثـم تبعه جميـع الحضور فشـعر سرور بالفرح والزهو من ذلك المشـهد وأخـذ ينظـر إلى عزام بحزن لأنـه أرغمه على فعل ذلـك معه.. بعد أن انتهـي الجميـع من التصفيـق.. قام شـعبان بالحديـث إلى سرور: «لقد قمـت بحركة احترافية للغاية يـا زعيم ولكن ينقصك شيء واحد فقط لم تفعلـه».. نظر له سرور مندهشًـا وهو يفكر مـا ذلك الذي لم يفعله.. هنـا قام شـعبان بالالتفـاف خلف عزام ووضع سـكينة عـلى رقبته ثم حركـه ببطء شـديد لتندفـع الدماء بغزارة مـن رقبة عـزام وهو يحاول أن يـصرخ فلا يسـتطيع ويده بـدون وعي منه على رقبتـه تحاول إيقاف الدماء المتدفقة من كل جهة.. لقد قام شعبان بذبح عزام.. ذلك المشهد صـدم الجميـع.. بعض السـيدات صرخـن وبعضهن فقـدن الوعي.. وابتعـد بعـض الرجال إلى الخلـف متقهقرين.. الجميـع كان في صدمة شـديدة ومنهم سرور الذي ألجمت الصدمة لسـانه وأوقفت عقله عن العمل بينما أخذ شـعبان يحدثه بشـكل طبيعي وهو يشـاهد عزام ينهار

على الأرض يلفظ أنفاسه الأخيرة.. بينما يمسح السكين بملابسه من الدماء ويحدثه بهدوء: «يجب أن تقتل الزعيم السابق حتى ترتاح من مشاكله القادمة.. تذكر هذا الأمر دائمًا».. جسد عزام ملقى على وجهه والدماء تنساب من جسده حوله صانعة بركة كبيرة من الدماء بينما ظل الجميع ينظرون إلى سرور الذي وقف مشاهدًا للموقف لا يدري ماذا يفعل أو ماذا يقول..

* * *

عصام يقف متحفزًا مترقبًا يتابع المشهد أمامه بعناية وبجواره وقف سراج يراقبه فحدثه مستفسرًا: «هل أنت متأكد من فعل ذلك؟».. ابتلع عصام ريقه في قلق ثم أومأ برأسه موافقًا فرفع سراج في الحال الغطاء عن جسد عزام أمامه الذي بدا لهم في الحال جافًّا أزرق والجرح في رقبته غائر وعميق.. تراجع عصام في الحال إلى الخلف وهو يشيح بوجهه عن مشهد عزام أمامه وهو يحدث سراج مذعورًا « هذا يكفي.. هذا يكفي..».. أعاد سراج الغطاء على جسد عزام وهو يحدث عصام لائمًا: «ألم أخبرك أنك لن تسر بمشهد الجثة لكن فضولك هذا سيقودك لهلاكك..».. ملامح التقزز متقمصة وجه عصام: «أنا لا أعلم كيف تستطيع أن ترى هذه المشاهد دون أن تؤثر بك».. بلامبالاة: «عندما تشرب القهوة أول مرة تجدها مرة الطعم للغاية ولا تستسيغها ولكن بعد ذلك سيكون أمرًا عاديًّا.. مشاهدة الجثث أصبحت عندي مثل شرب القهوة ولكن لا أخفيك سرًّا يا عصام لقد أصبح الأمر خطرًا..

جهينة المدينة التي كانت بدون جرائم أصبح بها قتل الآن.. وهذا شيء ينبئ بكارثة كبرى، والأسوأ من ذلك أنه وبعد مرور يومين من حادثة قتل عزام لم أتوصل إلى الجاني حتى الآن».. عصام بفضول: «هل امتنع أحد عن مساعدتك بالتحقيقات؟».. ابتسم سراج ساخرًا: «أتمزح معي؟ لقد تركت الجثة في وسط المدينة جهارًا نهارًا ولم يبلغنا أي شخص عن ذلك.. لقد وجدها أحد الجنود ملقاة على الطريق مغطاة ببعض الشراشف.. حينما قمت بتحقيقاتي مع سرور لم يرغب في الإجابة عن أي سؤال طرحته عليه وكان يراوغني هو وجميع العاملين بالمتجر والزبائن وجميع أهل المدينة يبدو أن من قتله هو الشبح الذي يتحدث عنه أهل المدينة».

« هل مازلت تعتقد بوجود هذا الشبح المزعوم حتى الآن؟».

«لا بالطبع نحن نعلم أننا نبحث عن شخص لا نتذكر عنه أي شيء هو أشبه بالشبح بالفعل ولكني أعلم بأن هذا الشخص المجهول ليس من قتل عزام بالتأكيد»..

«هل تعتقد أن سرور هو من قتله لكي يأخذ متجره..؟».

«لا ليس سرور بالتأكيد لقد كان متأثرًا للغاية بموت عزام ولكنه يعلم القاتل بالتأكيد ويحاول أن يخفيه»..

«من تعتقد أنه القاتل إذًا يا سيد سراج؟».

«بالتأكيد وبدون شك شخص من البلطجية الذين استأجرهم عزام ليحموه من أهل المدينة وانقلب السحر على الساحر وقتلوه.. أستطيع أن أقبض عليهم جميعًا الآن وأحتجزهم ولكني واثق بشدة أنه سيكون بثمن باهظ وسيسقط ضحايا وخسائر وأيضًا لا يوجد لدي دليل»..

..«إذًا ماذا ستفعل؟ هل ستتغاضى عن الأمر أم ماذا؟»..

.. حدثه سراج حانقًا: «لا بالطبع إذا تركت مجرمًا وقاتلًا دون عقابه سوف يشجع هذا الآخرين أن يحذوا حذوه ويصبح القتل مباحًا مستباحًا للجميع.. أنا كل ما يشغلني الآن هو أمران.. الأول أنه ليس لدي دليل على مرتكبي هذا الحادث غير حدسي، والثاني أن يقوم سرور بالامتناع عن تزويد أهل المدينة بالطعام والشراب ويقوم بحرق المتجر كما هددني من قبل، وهنا سوف يصبح القتل أقل شيء يحدث في عرم هذا الأمر.. أنا يدي مكبلة ولا أستطيع أن أفكر جيدًا.. أي قرار سأتخذه سوف يكون له عواقب وخيمة».. صرخ غاضبًا بقوة: «اللعنة على تلك المدينة وعلى الساعة السوداء التي وطئت بها بقدمي هنا»....

حاول عصام تهدئته قليلًا: «اهدأ.. اهدأ يا سيد سراج.. سوف أقترح عليك أمرًا ما.. إذا ما فعلناه معًا وتعاونا مع المنبوذة أميرة ونجح فقد نصل بالنهاية إلى سبب كل هذا الغموض والأشياء الغريبة التي تحدث بالمدينة».. اقترب سراج منه بفضول شديد: «أنت والمنبوذة أميرة.. ماذا؟ ماذا ستفعل؟ أخبرني في الحال».. هنا قطع حديثهم صوت قوي

للغايـة.. لقد سـمعوه بوضوح شـديد.. إنه صوت مروحـة هليكوبتر تحلـق على مسـافة قريبة منهم.. قفـز سراج وعصام فرحًـا وركضا مع بعض الجنود إلى خارج شرفة المنزل وأخذوا يبحثون عن الطائرة مصدر هذا الصوت.. ظل ينظر الجميع إلى السماء المغطاة بالضباب الذي يمنع الكثير من ضوء الشـمس.. ولكن الغريب أنهم سـمعوا صوتها ولكن لم يشاهدوها.. ابتسـم عصام فرحًا: «أتسمع أصوات الطائرات؟ انهم هنا بالتأكيـد لإنقاذنا.. كنت متأكدًا بـأن الدكتور جوزيف كمال تومي لـن يتركني هكذا.. يبدو أنه قد أتى ومعه مسـاعدات من ناسـا.. إنهم بالخـارج لم ينسـونا».. أخـذ سراج ينظـر فرحًا إلى السـماء وهو يبحث عـن الطائـرات: «لقد أتوا أخيرًا.. لماذا كانـوا منتظرين كل هذا الوقت لإنقاذنـا؟».. تحدث إليه عصـام بقلق: «لا أعلم بالفعـل تأخروا كثيرًا ولكن يبدو أنهم لم يستطيعوا الوصول إلينا إلا الآن لا أعلم ماذا يحدث بالضبط ولكن يبدو أن هناك شيئًا حدث الآن لا نعلمه»..

قبل خمس دقائق من الآن

كان رامي يقوم بإعداد أحد مقالبه في مكان واضح من أنحاء المدينة وقد اتسخت ملابسه وطالت لحيته بشدة ويبدو عليه أنه لم يلق بالًا على الإطلاق بالنظافة الشخصية لنفسه حينها.. قاطع عمله الدءوب ذلك صوت كريم وهو يسخر منه: «أين ذهبت يا صديقي؟ لقد بحثت عنك في كل مـكان».. ثـم ضحك سـاخرًا.. نظر إليه رامـي بلامبالاة: «لقد أتيت لكي تسـخر مني كالعادة.. ماذا؟ لم تجد شـيئًا تفعله في المدينة مرة

أخرى سوى أن تثير سخطي؟».. أجابه كريم مبتسمًا: « هل أنت مستاء من رؤيتي أم ماذا؟.. أنت يجب أن تشكرني لأني الوحيد الذي أتحدث معك وأونس وحدتك».. رامي ساخرًا: «ماذا تريدني أن أفعل.. أن أتراقص أمامك فرحًا؟ أم أعطيك كل أموالي مكافأة لحديثك معي؟».. ضحك كريم بشدة: «أنت مضحك للغاية يا رامي.. أنت تعلم جديًّا بأنه لا حاجة لي بأموالك أو أي مال آخر.. أخبرني أنت إذا أردت نقودًا أو ذهبًا أو أي شيء آخر مما يثير إعجابكم.. هذا سهل للغاية عندي».. ألقى رامي بما يفعله بضيق: «أخبرني ماذا تريد؟ أنا لا أريد الحديث معك..».. ابتسم كريم له: «أريد أن أسألك شيئًا أثار اهتمامي للغاية.. أخبرني كيف علمت بأمري.. لقد فكرت كثيرًا وكثيرًا ووجدت أني لم أخطئ بفعل أي شيء أو قول أي شيء يكشفني أمامك فكيف علمت بأني أنا من تبحث عنه؟»..

تنهد رامي للحظات ثم أجابه بضيق: «إذا أخبرتك أتعدني أنك سوف تغرب عن وجهي ولن أراك لفترة طويلة؟».. مبتسمًا: «أعدك بأني سوف أتركك تمارس ما تفعله من هذه الخدع الشبحية التي أدمنتها تلك الأيام..ههههههه»...

داعب رامي ذقنه قليلًا وهو يفكر ثم وضع يده في جيبه وأشار بيده الثانية إلى كريم لكي يقترب منه: « تعال، سوف أريك.. ولا تقلق لن أقتلك مرة أخرى».. اقترب منه كريم وهو يبتسم: «وهل إذا قتلتني مرة أخرى سوف يشكل هذا فرقًا؟!».. وقف كريم بجوار رامي الذي

أخرج هاتفه وأخذ يقلب بعدة صور كثيرة التقطها لمباني وأهالي جهينة وهو يتحدث إلى كريم: «هنا.. هي في وسط كل تلك الصور.. ليست هذه.. وليست هذه.. اممم.. ليست هنا.. ولا هنا.. ثوان.. أها اقتربنا.. هنا.. أترى تلك الصورة..».. هنا نظر كريم بعناية فائقة إلى صورة على شاشة الهاتف ليجد صورة أمامية (سيلفي) لرامي وكريم يقف بجواره ويضع علامة النصر ولكن الغريب هنا أن جسده كان ظاهرًا بوضوح ولكن رأسه كان على شكل ثمرة بطيخ خضراء كبيرة.. فاندهش كريم بشدة من تلك الصورة وأخذ يفكر بأنها صورة مفبركة للحظات ولكن عندما دقق في مكان الصورة تذكرها.. تلك الصورة التي التقطها مع رامي أمام قطعة الذهب وبعد معركتهما بالمطعم بسبب أميرة.. ولكن ما حكاية ثمرة البطيخ التي على وجهه هذه؟ نظر إلى رامي مندهشًا: «ما تلك الصورة؟ هل قمت بتعديلها؟».. أجابه رامي وهو يضحك بشدة من رد فعل كريم: «هل فوجئت.. هههههه.. لم... تعلم... السبب بعد. .ههههههه».. إن الفضل كله للصخرة التي معي».. وهنا أخرج صخرة بيضاء في قبضة يده وأظهرها أمام كريم.. أنت تعلم بالضبط ماذا فعلت هنا.. ولكن الفضل الأكبر لكشفك كانت معلومة علمتها من أميرة.. تلك المنبوذة التي تكرهها.. هي التي ساعدتني بتضييق الخناق في البحث عنك، ولكن فكرة الصورة كلها كانت من تدبيري».. ثم ضحك رامي بشدة وهو ينظر لكريم: «هههههه لم تكن تتوقع هذا أليس كذلك؟ هههههه».. هنا تحدث كريم حانقًا وهو ينظر إلى الصورة غاضبًا: «أميرة.. تلك الغلطة اللعينة..»..

نظر إليه رامي غاضبًا وهو يشعر بالقلق أنه أفشى سر أميرة.. وحاول أن يتحدث إلى كريم بأي حديث آخر لكي يصرف نظره عن أميرة.. ولكن هنا سمع الجميع صوتًا ضخمًا قويًّا أتى من الأعلى فرفع الجميع أنظارهم إلى الأعلى ومنهم رامي وكريم.. لقد ظهر الصوت بوضوح.. إنه صوت عدة طائرات هليكوبتر تحلق بالأعلى ولكن على الرغم من صوتها القوي الذي يدل على قربها منهم فإنهم لم يروها.. هنا تقافز جميع أهل جهينة فرحًا من أصوات تلك الطائرات وأخذوا يصرخون ويهللون فرحًا باقتراب نجاتهم من هذا الحصار المفروض عليهم.. نظر رامي إلى فرحة الجميع وشعر بالفرح هو أيضًا فتحدث إلى كريم شامتًا: «أتسمع تلك الأصوات؟ أترى فرحة هؤلاء؟ يبدو أن قبضتك تضعف على المدينة أيها الوغد الوسيم.. ههههههه».. وأخذ يضحك شامتًا.. وكريم ينظر إليه مشتعلًا من الغضب وينظر لفرح أهل جهينة حوله ساخطًا، ثم نظر إلى السماء فوقه بفضول وهو يسمع أصوات الطائرات التي لم تظهر أمامهم من الضباب..

* * *

بيومي يتحدث مع متولي أمام متجر عزام بتهامس شديد وهما ينظران لعدد من الجموع خلفهما: «هل يعقل يا متولي أن أفعل ذلك بعد أن وصلت من العمر أرذله؟! لا.. لن أستطيع أن أفعل ذلك».. أجابه متولي محذرًا: «أجننت يا بيومي؟ لقد أخبرته بأنك سوف تحضر وقمت بمحايلته كثيرًا لكي يوافق أن تأتي وتأخذ احتياجاتك أنت

وأسرتـك».. نظر بيومـي أمامه غاضبًا: «أيعقل هذا يـا متولي؟ بعد أن تملقنا مازن عمدة المدينة كل تلك السنوات يضيع مجهودنا هكذا أدراج الريـاح ويصبـح هذا المنبوذ اللعين هو الآمر الناهـي في المدينة».. لكزه متـولي في كتفه سريعًا: «مـاذا تقول أيها الوغـد؟ اخفض صوتك حتى لا يسمعك أحد من أهل المدينة فيخبره وتنبذ في لحظات.. انتقِ كلماتك جيدًا وافعل ما كنت تفعله مع مازن منذ سـنوات».. هز بيومي رأسـه متحسرًا: «مازن.. يالأيامه ولياليه! ليتها تعود من جديد! لقد كنا حمقى لأننا فكرنا بمعارضته.. لقد كنا نأكل الشهد واللبن من بين يديه.. أين أنت يا مازن الآن؟!».. نظر إليه متولي شـزرًا: «اللعنة عليك! إذا كنت تحبـه هكـذا فاذهب إلى منزلـه.. إنه مختبئ هناك منذ عـدة أيام.. اذهب إليـه يا لعين.. اذهـب إليه ودع زوجتـك وأولادك يأكلون الصخور.. أنـا المخطئ بـأني أحضرتـك إلى هنا..».. ابتسـم إليـه بيومـي متملقًا: « لا تؤاخـذني يـا صديقـي لقـد سرحـت بخيـالي بالماضي فقـط لكني أشـكرك على مسـاعدتك لي أنت بالفعـل ونعم الأخ يا متـولي! ولكن لا تلمني إذا ترددت بفعل هذا الأمر.. إنه شيء مُخزٍ للغاية.. أنا لا أعلم كيف اسـتطعت أن تفعله».. نظر إليه متولي متحسرًا: «أتراني مسـتمتعًا بفعلـه برضائـي؟ أنا أفعلـه من أجـل أسرتي وعائلتي لكـي لا يموتوا من الجوع ولسـت أنا من أفعل ذلك وحـدي.. أناس كثيرون من أهل جهينة يجعلهم سرور يفعلون ذلك أيضًا.. إنه ينتقم منا لمعاملته كمنبوذ من قبل»..

«..أعلم ذلك ولكن ألا تظن أنه كان يجب أن ننتظر قليلًا يمكن أن تعود تلك الطائرات التي سمعناها تحلق فوق المدينة وتنقذنا مما نحن فيه؟».. أجابه متولي بضيق: «لقد انتظرت طويلًا من قبل يا بيومي حتى نفد جميع الطعام والشراب لدي وتلك الطائرات التي سمعناها قد مر عليها يومان بالفعل ولم يحدث شيء»..

«أنا أعلم يا متولي ولكن يبدو أنها بادرة يمكن أن يتم إنقاذنا خلال عدة أيام..»

«جيد.. فلنصدق حديثك وأنهم سيعودون.. ماذا ستأكل أنت وعائلتك حتى حضورهم لإنقاذنا إذا حضروا من الأصل؟»... أخذ بيومي يفكر وهو يفرك شعر رأسه بأصابعه: « نعم.. كلامك صحيح».. تنهد متولي: «لا تجادل كثيرًا يا بيومي لن يغير حديثك هذا من الأمر شيئًا.. ثم إني اخترت وقتًا متأخرًا في المساء كي لا يشاهد الكثير ما نفعله ويكون الإحراج أقل وطأة..».. نظر بيومي خلفه لعدد كبير من أهل جهينة: «كل هؤلاء وعدد قليل.. معظم هؤلاء من كبار عائلات المدينة وأغنيائها».. أخذ يبتسم لمتولي فرحًا: «مع كل هؤلاء السادة لن نكون بمفردنا سيكون الأمر أقل إحراجًا.». وأخذ يضحك بشدة إلى أن لكزه متولي بمرفقه: «اصمت.. اصمت لقد حضر سرور».. فتوقف واعتدل بوقفته بالحال وهو يتابع سرور يتقدم جهتهما بكل ثقة وشموخ وتسود ملامح وجهه علامات الوجوم.. اقترب منهما ليقف على مسافة بينهما وبين العدد الكبير من

أهالي جهينة.. فتحدث إليه متولي مبتسمًا: «لقد حضرت ومعي بيومي كما أخبرتك من قبل يا سيد سرور ونرغب في تعطفك وفي كرمك بأن تسمح له بالتبضع من المتجر لكي يقتني حاجته هو وأسرته..».. نظر إليهما سرور للحظات ولم يعقب ولكنه اتجه إلى مقعد موضوع أمام الجموع وجلس عليه وخلفه بعض رجال شعبان وشعبان يقف بعيدًا يشرب سيجارته باستمتاع شديد وهو يراقب الجميع.. شعر بيومي بالقلق من عدم حديث سرور إليه فنظر إلى متولي بجواره الذي لكزه بمرفقه فتنبه بيومي إلى نفسه وتحدث إلى سرور بتملق شديد: «إني أشعر بالفخر والشرف العظيم أني أقف برفقتك الآن يا سيد سرور، وأقسم بربي لقد كنت دائمًا أحبك في الله وأشعر بأنك أكثر من أخ لي أنت وعائلتك..».. ضحك سرور بشدة وبصوت عال للغاية.. جعل جميع من حوله يشعرون بقلق.. استمر سرور بالضحك لعدة لحظات ثم تنهد بشدة وحدثه بهدوء: «ااااه.. لا داعي لكل ذلك يل بيومي احتفظ بتملقك لنفسك.. أنا لن أشتريه.. من يرغب بالتبضع من متجري فيجب عليه أن ينصاع لشروطي.. وأظن لقد أخبرك متولي بماهية شروطي».. أومأ بيومي برأسه بعنف دليلًا على الموافقة.. فابتسم سرور: «وأنت موافق على تنفيذ تلك الشروط؟.» أومأ بيومي برأسه بالموافقة في اضطراب شديد: «بالطبع.. بالطبع يا سيد سرور.. سوف أفعل كل ما ترغب».. أشار إليه سرور بيده سريعًا بأن يبتعد: «إذًا لا تضيع وقتي واذهب إلى مكانك هيا».. أومأ بيومي برأسه في الحال: «أنا رهن أمرك يا سيد سرور».. اتجه بيومي ليقف بعيدًا عن متولي

الـذي تحـدث إليه سرور سريعًا: «وأنت يا متـولي اذهب لكي تحضر لي مشروبي».. ابتسم متولي سريعًا: «في الحال يا سيد سرور في الحال..».. وذهـب مسرعًا إلى جهة المتجر.. في تلـك اللحظة أخذ سرور يدقق في تلـك الوجوه المألوفـة لديه من أهل المدينة وكيـف كانوا يضحكون في وجهـه دائمًا ثم انقلبـوا عليه وظلوا يؤذونه والآن يقفون بين يديه وعلى وجوههم علامات الذل والاستجداء.. أخذ يفرك يده في رضاء شديد وهنـا أخذ ناظره انعكاس الضوء على خاتـم زواجه والتماعه فرفع يده في الحال وأخذ يداعب الخاتم بيده ولا يعلم لماذا في تلك اللحظة تذكر حديثـه مع زوجتـه منذ عدة أيام عندما وجدها تبكي فجأة وهي تحضر لـه الطعام فشـعر بالاضطـراب من دموعها فـترك الطعـام واتجه إليها قلقًا وسـألها بفضول: «مـاذا حدث يا هاجر؟ لـماذا تبكين؟ هل حدث شيء لابنتنا؟»..

أومأت برأسها نافية: «لا.. آية بخير.»

بقلق شديد: «إذًا لماذا تبكين هكذا؟»..

نظرت له بتحد وهي تدقق بملامحه: «أخبرني بكل صدق يا سرور.. هل لك يد بمقتل عزام؟»..

ابتلـع سرور ريقـه بقلـق: «حسـنًا.. كـما أخبرتـك القصـة من قبل يا هاجـر لقـد ذهـب ليقـضي بعض أمـوره بمفـرده وتم قتله بواسـطة شـخص مجهـول ولا أحد يعلم مـن قتله حتى الشرطـة والعقيد سراج لم يعلموا من قتله»..

« إذًا أنت ليس لك يد بقريب أو من بعيد بهذا الأمر..؟»..

«أقسم لك يا هاجر أنا صدمت بمقتله أكثر من أي شخص ولكن.. ولكن في أوقات كثيرة أشعر بأنه نال ما استحقه.. لقد قام باستغلال أهل جهينة أسوأ استغلال»..

أجابته بغضب: «لا لم يستحق أن يحدث له ذلك.. هل نسيت مساعدته لنا من قبل وأنه هو الوحيد الذي كان يساعدنا بالرغم من معرفته أنه بمساعدته تلك سوف يصبح منبوذًا مثلنا؟»..

«نعم بالطبع أنت محقة لكنني قمت بمساعدته أيضًا في أوقات محنته ولكنه استغل ذلك في التحكم بأهل جهينة.. لقد أعمى الطمع والكره قلبه وجعله بدون رحمة.. لقد رأيت نظرة الخوف التي مزقت قلبي من قبل بعيون آية ابنتي على وجوه أطفال أهل جهينة بأكملها»..

«وهل ما تفعله الآن بأهل جهينة يختلف عـمَّا كان يفعله عزام؟».. نظر إليها سرور مصدومًا ثم وقف غاضبًا وهو يحدثها بضيق: «أنا أفعل مثل عزام.. هل تشبهينني بمتحجر القلب هذا؟! أنا لا أقوم بالتحكم بأهل جهينة.. لقد جعلت الجميع يأخذ احتياجاته بلا استثناء وبأسعار مخفضة عما كانت موجودة قبل الحصار على المدينة.. الجميع يبتسمون لي ويحيونني في كل مكان ويدعون لي في صلاتهم وأنت زوجتي تهاجمينني هكذا؟!.»

أمسكت هاجر بيده بقلق: «يا سرور أنا لا أقصد أن أجعلك تشعر بالإهانة.. أنا أخاف عليك مما تفعله بكبار عائلات جهينة وما تجعلهم

يقومون به.. هذا الأمر على كل لسـان أهـل جهينة الآن حتى الأطفال يتندرون به»..

«عائلات جهينة هم السبب بما كان يحدث للمدينة كل تلك الفترة وهم من جعلونا منبوذين هل نسيتِ ما فعلوه بنا؟.»

«ولكـن ألم تقـل منذ قليل بـأن هذا ما فعله عـزام بالفعل هو يحاول الانتقام من أهل جهينة»..

التف إليها سرور ليواجهها وأمسـك بيديها برقة: «اسـمعيني جيدًا يـا هاجـر؛ إن ما أفعله مختلف كليًّـا عما فعله عزام.. لقـد علمتني تلك المحنـة التـي مررنـا بها بجهينـة أن الناس يجـب أن تشـعر بالخوف من شـخص ما.. يجب أن يكون لديهم مثـل أعلى قوي يرتعدون منه لأنهم إذا لم يشـعروا بالخـوف في وسـط تلك الفوضى سـوف يتحول الجميع إلى التدمير وسـيكون هناك خراب شـامل.. والأفضل لأهل جهينة أن يخافوني ويرهبوني أنـا فقط.. هذا بصالحهم أكثر من أن يخافوا ويرهبوا شـخصًا مجرمًا ومتحجر القلب مثل شـعبان.. أهل جهينة سينصاعون للأقـوى بالنهايـة.. الأفضل لهـم أن ينصاعوا لي بدلًا مـن أن ينصاعوا لشـخص يؤذيهم.. وأنا أفعل بكبـار عائلات جهينة ذلك حتى يكونوا عـبرة لباقـي أهـل المدينة ولا يحـاول أحـد أن يتحداني فيـما بعد ولكي أبسـط نفوذي أكثر على شـعبان وعصبته.. ولكن أبدًا.. أبدًا.. لم أفكر بـأن أنتقم منهم لنفسي.. أنا أمقـت العنف والغضب والكراهية ولكن

يجب أن أكـون بنظر الناس شريـرًا لكي أمنع شرًّا أكـبر.. يعلم الله أني أفعل ذلك من أجل آية وجميع الأطفال الأبرياء مثلها بجهينة..»

انسـابت الدموع على وجه هاجـر وحدثته بصوت مخنوق: «ولكني أخـاف عليك.. أخاف عليك أن يبتلعـك كل ذلك الظلام الذي يحيط بك.. أخشـى أن يتسـلل إلى قلبك وتتحول إلى شـخص آخر بدلًا من سرور الطيب النقي الذي أحببته»..

ابتسـم سرور لزوجتـه ثـم احتضنهـا بقـوة وهـو يداعب شـعرها الأملس بيده: «لا.. لا تخافي يا محبوبتي.. لن يبتلعني الظلام أيضًا طالما أحطتِنـي بضيائك لينـير طريقي».. أخذت هاجـر تبكي وهي تحتضن سرور بقوة وتتمنى أن تختبئ بين أضلاعه..

« با....»

« تا...رور»..

«يا سيد سرور»..

هنـا توقف سرور عـن التفكير بحديث زوجته وأخـذ ينظر إلى من يناديـه ليجـد متولي يقـف أمامه وبيـده كوب عصير يحملـه بحرص.. فنظـر له سرور شـزرًا لحظات وأخـذ منه كوب العصير وارتشـف منه باسـتمتاع شديد.. ثم أشـار بيده إلى متولي وهو يصرخ به: «هيا اذهب وقم بعملك المكلف به.. هيا»..

نظـر إليـه متولي خائفًـا وأومأ برأسـه في الحال وذهـب إلى عدد من أهـل جهينة مـن الرجال والسـيدات.. عـدد كبير من الشـباب وكبار السن.. وقف أمامهم متولي ووقف أمام بيومي الذي غزا العرق وجهه وأخـذ قلبـه يدق مثل الطبول.. ثم اتبعه الجميـع في أماكن منظمة.. ثم جثـا متـولي على الأرض على يديـه وقدميه أمامهم.. فتبعـه أهل جهينة وفعلـوا مثلـه بالضبط أمام سرور.. ثـم نظر متولي تجاهـه، وأخذ ينبح مثـل الكلاب.. والجميع مـن أهل جهينة خلفه ينبحـون مثله.. تطرق سرور بنظـره سريعًـا إلى جهـة الوافد الجديـد بيومي الـذي تفاجأ بأنه اندمـج في تأديـة دوره بحرفيـة شـديدة وهـو يقلـد الـكلاب وينبـح مثلهـا بالضبـط ويتفنن في إصدار أصوات مشـابهة لنباحهـا «هوهو.. هوهوهـو. .هوهههههههوو.. هو. .هو....» ثم قام بتحريك مؤخرته يمينًا ويسـارًا وهـو ينبح.. أخذ سرور يضحك بشـدة على فعل بيومي وانسـكب بعض العصير من يده وهو يقهقه فصاح على بعض الرجال خلفه ضاحكًا: «أعطوا لهذا الرجل كل ما يريد بخصم كبير.. إنه يقوم بتأديـة دوره عـلى أفضل مـا يمكن..».. شـعر بيومي بالفـرح فاندمج بـدوره أكثر وأخذ ينبح وهو مبتسـم ويهز مؤخرتـه وخرج من الصف وظـل يتحـرك على يديه وقدميـه حول سرور وهو ينبـح ويهز مؤخرته مثـل الـكلاب.. وسرور يضحك بشـدة مـن فعله.. أخذ متـولي يتابع ما يفعله بيومي وهو يحدث نفسـه حانقًا «كنـت تخبرني بأنك محرج من فعل ذلك وها أنت تتباهى بنباحك يا ابن العاهرة يا بيومي».

قـام عدد مـن أهل جهينة بفعل مـا يفعل بيومي حتـى ينالوا رضاء سرور مثـل بيومـي وأخذوا يلتفون حـول سرور أيضًا وهم يتحركون وينبحون مثل الكلاب بينما ظل البعض في أماكنهم ينبحون فقط..

أخـذ شـعبان ورجاله يضحكون أيضًـا على فعل أهـل المدينة وقام شـعبان بالإشـارة إلى سرور بعلامـة ok وهو يضحك.. فشـعر سرور بالغـرور قليلًا من فعل شـعبان ذلك له.. وأخذ ينظـر إلى أهالي جهينة حوله بتمعن شـديد وهـم ينبحون مثـل الكلاب ويتحركـون مثلها.. وهنـا رنـت بأذنه كلمات زوجتـه: «أخاف عليـك أن يبتلعك كل ذلك الظلام الذي يحيط بك».. رنت تلك الكلمات باسـتمرار في أذن سرور وهو يشاهدهم وهم ينبحون أمامه وهو يضحك بشدة.. فأخذ يشرب العصـير بيده مسـتمتعًا.. وهو يحدث نفسـه: «يجـب أن أعترف.. هذا الظلام يبدو لذيذًا للغاية»..



(مواجهة)

في ظهـيرة اليـوم التالي كان عصـام وسراج يخترقان شـوارع جهينة باحثـين عن شـخص ما بكل مكان وهما ممتلئـان بالعزم والحماس وهما يلقيان بعض الكلمات فيما بينهما بهمة شديدة..

«هل أنت متأكد من نظريتك تلك يا عصام؟»..

«بنسـبة كبـيرة يـا سـيد سراج.. وإذا كنا عـلى خطأ فلـن نتضرر في شيء نهائيًّا ولكن إذا كنا على صواب فسـوف يتم رفع السـتار عن جميع الغموض الذي يحيط بالمدينة مرة واحدة ونهائية ولا تنسَ أننا معنا هذه المرة سلاح فعال»..

نظر إليه سراج مندهشًـا: «إنه ليس سـلاحًا فعالًا.. إنه سلاح دمار شامل.. لقد صدمت من هذا الأمر أكثر ممَّا صدمت من أحداث مدينة جهينة الغريبة»..

«هـو بالفعل شيء غريب ولكني سـمعت عن تلك الأمور من قبل ولكن معاينتها هكذا كانت شيئًا عجيبًا للغاية والميزة أننا تأكدنا بأنفسنا مـن قوة هذا السـلاح.. إذًا سـوف نكون على يقين تلك المـرة ولن يتم خداعنا مثلما يحدث كل مرة»..

تفلتت نظرة من سراج إلى خلفه فلكزه عصام بمرفقه بسرعة: «لا تنظر خلفك هكذا.. لا تفضح أمرنا»..

مسح سراج عرقه البارد من فوق جبهته: «اعذرني يا عصام.. أنا لم أعتد على أمور التسلل والمؤامرات تلك.. لقد كنت دائمًا ما أواجه أي شيء بصدر مفتوح وبقلب لا يعرف الخوف»..

«هذه المرة الأمر مختلف.. جهينة غير أي شيء قابلناه من قبل.. يجب أن نستخدم بها عقولنا قبل طيشنا»..

توقف عصام فجأة بالطريق وتحدث إلى سراج بقلق: «أحذرك من أن تفعل أي شيء يدمر خطتنا.. لقد قمنا ببنائها لعدة أيام سابقة، أي هفوة صغيرة ستضيع مجهوداتنا أدراج الرياح»..

هز سراج رأسه في الحال: «لا تخف.. لا تخف.. سوف أتحكم بأعصابي جيدًا»..

«أتمنى ذلك.. هيا بنا نكمل مسيرنا»..

ظل سراج وعصام ينهبان الشوارع بأقدامهما وعيونهما تلتهم المارة وتبتلع المتاجر بزائريها.. مرت عدة ساعات وهما على حالهم تلك حتى بدأت أقدامهما تؤلمهما وأصوات الغربان تنعق فوق رءوسهما لتضيف مشهدًا كئيبًا على من لم يعتدْ على العيش بداخل أسوار جهينة.. تسلل إلى أنفسهما اليأس كما تسلل الورم إلى أصابع أقدامهما وشعرا بأن جميع مجهوداتهما وتخطيطهما الأيام السابقة قد ضاعت أدراج الرياح..

صرخ سراج حانقًـا: « أيـن ذهب هذا اللعين؟ لقد كنـت أراه دائمًا أمامي وقت ما لم أرغب برؤيته.. لماذا حينما أحتاج شـيئًا بشدة لا أجده متاحًـا أمامي؟!. .يبدو أنها لعنـة أصابتني.. توقف فجأة وأخذ يصرخ غاضبًـا: «اللعنة عليكِ أيتها المدينة اللعينة!».. ثم انحنى وهو يمسـك بركبتيه وأخذ يلتقط أنفاسه.. نظر إليه عصام متوترًا وهو لا يدري ماذا يفعـل.. وأخذ يجـول بناظريه محلقًـا حوله في محاولة أخـيرة وكاد يطير فرحًا عندما التقت عيناه بأحد الشـوارع الجانبية الهادئة بجهينة وابتسم فرحًا وهو يربت على كتف سراج:

«انظر.. لقد وجدته.. لقد وجدته.. إنه هناك».. وأشـار بيده جهة الشـارع الجانبي فالتفت سراج سريعًا إلى الجهة التي أشـار إليها عصام ليجد رجلهما المنشـود.. كريم يقف مسـتندًا على الحائط بيده وينظر إلى الفراغ على الحائط أمامه ويضحك بشدة.. ابتسم سراج ابتسامة الظفر: «أخـيرًا وجدناك يـا ابن اللعينـة.». ولكنه تحدث إلى عصام مندهشًـا: «أرأيـت مـاذا يفعل؟ إنه يتحـدث إلى الحائط ويضحـك.. ماذا يفعل؟ هـل أصيب بالجنـون أم مـاذا؟». أجابه عصام سريعًـا: «لا.. لا أعتقد ذلك.. إن ما يفعله بالتأكيد له يد بطريقة أو بأخرى بما يحدث بجهينة».. مصدومًا: «ماذا؟ هل كريم له يد بما يحدث بجهينة؟ هل يعقل هذا؟»..

أجابـه بهـدوء: «نحـن أتينا إلى هنـا لكي نتأكـد من ذلك هيـا بنا.. لحظات قليلة وسنكتشف كل شيء»..

ثم تحرك صوب كريم.. لحقه سراج وهو يحدث نفسه بقلق: «اللعنة عليك يا كريم! ضحكاتك أشعلت القشعريرة بجسدي..»..

اقـترب سراج وعصام خلسـة من خلـف كريم وراقبـاه للحظات وهـو يهمس للحائـط أمامه ويضحك سـاخرًا.. فتبـادلا النظرات فيما بينهـما بريبـة ثم تحـدث سراج إليه بصوت قـوي جهـوري: «على ماذا تضحك يا كريم؟ فلتضحكنا معك»..

نظـر كريـم خلفه سريعًا ليجـد عصام وسراج واقفـين بالقرب منه فشـعر بالصدمـة الشـديدة ومحيت الابتسـامة من على وجهـه في الحال ووقـف ينظر لهـما ولم يعلم ماذا يقول.. وطال هـذا الأمر لعدة لحظات شـعر الجميع خلالهـا بالهواء البارد يلفح أسـفل أعناقهـم.. أخذ كريم ينظـر له بعينيـه الملونتين وهو يتلفت حوله ويجـول بناظريه بينهم.. رد فعله الغريب جعلهما يشـعران بالريبة أكثر فتحدث عصام إليه بالحال: «ماذا بك يا سـيد كريم؟ هل ابتلعت الهرة لسـانك؟! السيد سراج كان يتحدث إليك ويريد أن يعلم ما الذي جعلك تقف وحيدًا في مكان ناءٍ كهذا وتتحدث إلى الحائط وتضحك أيضًا»..

ابتسـم كريـم وهـو يحدثهـما: «العقيـد سراج والعالم الجليل السـيد عصام.. اهلًا بكما لم أركما منذ عدة أيام.. أخبراني لماذا أتيتما إلى هنا؟».

أجابه سراج بثقة: « هذا ما كنا سنسـأله لك يا كريم.. ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

ابتسـم كريم بثقـة: « لا شيء على وجه التحديـد.. لقد كنت أتجول كالمعتـاد بأنحـاء المدينـة.. فأنا لا أجد شـيئًا أفعله بالمدينـة غير ذلك .. ولكـن يبـدو أنكما لم تأتيا هنا لكي تسـالاني كيف أقـضي وقتي في تلك المدينة بالتأكيد.. أليس كذلك؟ بماذا أخدمكما يا سادة؟»..

أجابـه سراج بالحال: «حسـنًا سـأخبرك يـا كريم.. سـأخبرك.. أنا شرطـي كـما تعلم ولا أجـد وقتًا لكي أتسـكع بالمدينة مثلـك.. فكنت أفكـر بعـدة أمـور كثيرة حدثـت في المدينـة تلك الأيـام.. أمـور كثيرة للغايـة.. سرقة ونهب وتصارع على السـلطة.. وتفاقمـت الأمور أكثر ووصلت إلى القتل.. الجميع كان مشاركًا بتلك الأحداث سواء برضاه أم رغـمًا عنه.. الجميع بلا اسـتثناء حتى أنا وعصـام الغريبان عن تلك المدينـة والقادمان مـن خارجها واللـذان اختلطا برجـال سرور الذي يتحكـم بمتجـر عـزام الآن.. وأتعلم شـيئًا؟ لقد شـاهدت جميع أهل المدينة لمرة على الأقل يترددون على متجر عزام ذلك لأنه المتجر الوحيد في المدينة الآن.. ولفت انتباهي أني لم أرك ولو لمرة واحدة هناك.. وهذا أثار اندهاشي وجعلني أتسـاءل قليلًا: يبدو أن السيد كريم لا يحتاج أن يذهب إلى ذلك المتجر إلا لسـببين فقط.. الأول أنه لا يحتاج أن يتناول الطعام وهذا بالطبع مسـتحيل.. والثاني.. أن السـيد كريم لديه مخزونه الخـاص من السـلع والطعـام يخبئه بمكان مـا.. وإذا كان السـيد كريم يخبئ الطعام والسـلع هكـذا إذًا فإنه يعلم بأن المدينة سـيصيبها حصار طويـل هكذا.. إذًا السـيد كريم له يد بشـكل أو آخر بـما يحدث بالمدينة أو على أقل تقدير يعلم ماذا يحدث بها.. أليس كذلك يا سيد كريم؟»..

تغيرت ملامح كريم بشدة وارتسمت علامات الوجوم على وجهه وظل يحدق بهما بعيون جاحظة.. بينما تابع سراج حديثه وهو يبتسم بثقة ويستخدم أسلوب المحقق المتمرس الذي يتصيد مجرمًا تحت قبضته: «يبدو من ملامح وجهك أني قد لمست عرقًا دساسًا داخلك.. أخبرني يا صديقي.. ماذا يحدث بجهينة وما صلتك أنت بكل هذا؟»..

عقد كريم حاجبيه في عبوس وتحدث إليه ساخطًا: «أعتقد أن ما أفعله ليس من شأنك يا سيد سراج.. أنت ليس لك عندي أي حديث إلا إذا قمت باتهامي رسميًّا بتنفيذ جريمة ما.. وأنا متأكد من عدم فعلى لأي شيء مما تسمونه جريمة أبدًا»..

اندهش سراج وعصام من رد فعل كريم الغاضب هذا وقام عصام بالصفير في الحال: «اوووه.. كريم من يضرب به المثل في الثبات الانفعالي ومقابلة أي موقف يراه بابتسامة ضاحكة يغضب هكذا.. هذا شيء نادر».. ثم اتجه إلى كريم وأسند يده على رقبته وسحبه مبتعدًا وهما يعطيان ظهرهما لسراج وأخذ عصام يحدثه مبتسمًا: «اهدأ يا صديقي.. لا تغضب هكذا إن السيد سراج لا يقصد أي شيء من أسئلته تلك.. أنت تعلم بأن ما نراه جميعًا من أحداث بجهينة يجعل الجميع محملًا بالضغوط والأحمال الصعبة.. ويبدو أنك أيضًا قد لمسك بعضًا منها.. أليس كذلك؟ أين ذهبت ابتسامتك المعتادة يا صديقي؟».. نظر كريم إلى عصام الذي يتأبطه مرتابًا مندهشًا من رد فعلهما تجاهه فتارة يقابله سراج بأسئلة حادة مزعجة بينما عصام يحدثه بود وهدوء لم يعتدْ أن يفعله معه من قبل.. أخذ ينظر إلى عيني عصام الذي ظل يبتسم بوجهه

وهو يتأبطه ثم يسحبه إلى جهة أخرى مبتعدًا وهو يتحدث معه بحديث طويل غير مفهوم.. شعر كريم بوجود شيء خطأ.. شعوره هذا ارتفع فجأة في الحال وأحس بدنو خطر كبير.. فنفض يد عصام بقوة من على رقبته وأخذ يحدثه بعنف شديد: «ماذا تفعلان.. ماذا تخططان؟».. هنا ابتسم عصام في الحال: «يبدو أنك ذكي للغاية يا كريم.. لقد شعرت بما نفعل.. ولكن بعد فوات الأوان»..

نظر إليه كريم مندهشًا وهو يفكر بعمق: «ماذا يعني بفوات الأوان؟».. وهنا فهم ماذا يعني عصام بحديثه عندما وجد شيئًا دافئًا صغيرًا يلمس أصابع يده من خلفه.. فالتفت وراءه مسرعًا وهو ينظر إلى ما يلمس أصابعه.. ليجدها أصابع صغيرة شديدة البياض وناعمة الملمس رفع عينيه ببطء أمامه ليجد مفاجأة كبيرة بانتظاره.. أميرة تقف أمامه وهي ممسكة بيده بقوة وتنظر إليه بعيون بيضاء خاوية من الحياة.. شعر بصدمة شديدة للغاية وهو ينظر إليها واقفة أمامه.. لقد حدث ما كان يخشاه منذ أن علم بوجود ذلك الخطأ هنا كما يسميها دائمًا.. أميرة أمسكت بيده ولمسته أخيرًا.. استمر ذلك الأمر لعدة لحظات عندما عاد إلى رشده وحاول أن يسحب يده بسرعة ولكنه فوجئ بشيء غريب يحدث معه.. شعور لم يشعر به من قبل أبدًا أبدًا.. لقد شعر بارتعاشة قوية بجسده وقدماه ظلتا ترتجفان بقوة شديدة وانتابه إحساس بأن أميرة كأنها تسحب منه الحياة فأخذ يصيح بصوت عال للغاية.. وأميرة لم تكن أحسن حالًا منه.. فلقد تصلبت عضلاتها في الحال وهي تمسك يد كريم بعنف شديد وبياض عينيها هو الظاهر فقط وفمها مفتوح

علـى آخره وشـعرها ارتفع إلى أعلى وبقوة شـديدة وتحول إلى ما يشـبه الأسياخ الحديدية وكأنما مستها ملايين من الموجات الكهرومغناطيسية بلحظة واحدة.. مشـهد مخيف أقل ما يقال عنه.. جعل سراج وعصام يبتعـدان عدة خطوات إلى الخلف مرتاعين مما يشـاهدانه وما يصاحب هذا المشـهد من ضغط هوائي قوي كاد يزيـح جميع ما بجواره.. هنا ألم كريم بنفسه قليلًا وهو مازال يرتعش فضغط على قدميه بقوة بالأرض ليثبتهـما وهـو ينزع يده بقوة من يد أميرة واسـتمر يقـاوم لعدة لحظات حتـى نجح بالنهاية وسـحب يده منهـا.. أخذ ينظـر إلى يديه مصدومًا وهما ترتعشـان ثم نظر إلى أميرة التي عاد شـعرها في الحال إلى الأسفل مـرة أخـرى وعادت عيناها إلى محجريهما مرة أخـرى وأخذت تنظر إلى كريم مرتاعة خائفة وهي تتراجع إلى الخلف مصدومة لتلتصق بالحائط خلفها وهي تردد: «هذا مسـتحيل.. هذا غير معقول.. غير معقول».. نظـر لها كريم غاضبًا بشـدة وهـو يصرخ بصوت قـوي وجهوري كاد يصيبهـم بالصمم جميعًا: «ماذا فعلتِ؟ ماذا رأيـتِ؟ ماذا فعلتِ؟ أنتِ أيتهـا العاهرة.. ماذا فعلتِ؟.. صراخه كان قويًّا للغاية لدرجة جعلت الجميـع يضـع يـده على أذنـه.. وهنـا نظر كريـم خلفه بغضب شـديد ويـكاد يتطايـر الشرر من عينيـه وهو يتحدث إلى عصام ويمسـكه من رقبتـه غاضبًا: «إنهـا فكرتك أنت.. هذا من تدبـيرك.. أنت من خطط لـكل هذا.. أنت من أخـبر تلك العاهرة بفعل ذلك..».. شـعر عصام بالخـوف الشـديد وابتعد للخلف ليصطدم بالحائـط خوفًا وقفز سراج عـلى يد كريـم يحاول إبعادها عـن رقبة عصام التـي كادت تتحطم من

ضغط يده ولكن هيهات أن يحاول أن يحركها من مكانها وشعر الجميع بانها نهاية عصام بالتأكيد وأن تلك هي اللحظات الأخيرة من حياته.. ولكن حدث شيء غير متوقع نهائيًّا عندما وجدوا أن يد كريم تخف عن عصام وهو ينظر له مصدومًا مشدوهًا وفجأة سقط خط من الدماء من فمه.. شعر سراج وعصام بالصدمة ممَّا يحدث وكانت صدمتهما أكبر عندما وجدا بأن شيئًا يخترق صدر كريم من خلفه لينفذ من أمامهما.. وكانت مفاجأة عظيمة عندما وجداها سكينا كبيرة اخترقت صدر كريم لتخرج الدماء بكثافة منه.. نظر كريم وسراج وعصام إلى السكين وهي تتوسط صدره ثم سحبت سريعًا منه ثم اخترقته مرة أخرى بسرعة بجهة أخرى من صدره.. فأمسك كريم بمقدمة السكين وهي بصدره والدماء قد أغرقت ملابسه وفمه وتحرك بصعوبة إلى الخلف وهو يصرخ خلفه: «أنت أيها الوغد..».. وهنا نظر الجميع إلى من يحدثه كريم خلفه ولكم كانت مفاجأة قوية عندما شاهدوا أمامهم رامي إمام وهو أشعث الشعر متسخ الملابس وله لحية طويلة.. أخذ الجميع ينظر إلى رامي وهم لا يعلمون من هو للحظات.. ورامي ينظر إلى كريم وهو يسقط على ركبتيه منهارًا وهو ينظر إلى السكين بصدره ويحدثه بحنق: «لقد فعلتَها مرة أخرى أيها اللعين!..»

وهنا قام رامي بركله بقوة بقدمه ليسقط كريم على الأرض منهارًا غارقًا في دمائه.. وما هي إلا لحظات حتى فارق الحياة.. فأخذ رامي يركل جثته بغضب شديد: «فلتمتْ وتتعفن في الجحيم أيها الوغد

الوسـيم!».. هنا نظـر إليه عصـام وسراج وأميرة باندهـاش.. فصرخ سراج إليه غير مصدق: «أيعقل أنك أنت؟!»..

فتابعـت أميرة حديثه وهـي مصدومة: «رامي إمام».. هنا نظر إليها رامي مرتابًا وهو يحدث نفسـه: «ياااه.. لم أسـمع هذا الاسم منذ زمن بعيـد.. يبـدو أننـي بـدأت أتوهم مـرة أخـرى».. فـصرخ سراج وهو يقـترب مـن رامـي: «ماذا فعلت يـا رامي؟ لقـد قتلتـه.. أجننت؟ لقد قتلت كريم».. فابتسـم رامـي ضاحكًا: «لا تقلق.. لا تقلق.. سـيعود للحياة مرة أخرى»..

فـصرخ بـه سراج معنفًـا: «أجننـت يـا أحمـق؟ وهـل يعـود الموتى للحيـاة؟!».. نظر رامـي إلى سراج بضيق وأخذ يحدث نفسـه: «سراج أيهـا الأحمق.. هل مازلت تتصنع أنك تعلـم الصواب من الخطأ وأنك أفضل من الجميع؟ أنت مجرد وغد متعجرف تعتمد على والد زوجتك وتنظف أسـنانك خوفًا من أبيك الذي جعلك تبلل بنطالك».. أمسك سراج رامـي مـن تلابيبه وهو يصرخ به غاضبًـا ويرجه بين يديه بعنف شـديد.. حـاول عصـام أن ينقذ رامـي من قبضـة سراج بصعوبة وهو يصرخ عـلى رامي ويدفعه بعيـدًا عن سراج ليرتطـم بالحائط.. فصرخ عليـه عصـام: «ما الـذي فعلته هذا يـا رامي.. هل جننـت لتقتل كريم وتتحدث بالسوء هكذا عن السيد سراج؟»..

.. نظر إليهم رامي مندهشًا وهو ينظر إلى ملابسه التي مزقها سراج بيده فأخذ ينظر حوله بكل مكان إلى جهة أميرة وسراج ورامي.. وهو

يحدث نفسه مرتابًا: «ماذا؟ هل يرونني؟ هل دفعتني الآن يا سراج لأنك تراني؟».. تحدث إليه سراج بضيق شديد: «نعم أراك أيها الوغد المتعجرف.. من أخبرك عن والدي؟ هل أنت يا عصام.. هل أخبرته بما حدثتك به أيها الوغد؟»..

أومأ عصام برأسه نافيًا: «لا.. أقسم لك يا سيد سراج لم أتحدث بهذا الأمر مع مخلوق من قبل»..

قاطع رامي حديثهما فرحًا: «هل ترونني؟ هل بالفعل ترونني؟ هل تسمعونني؟ وأنت يا أميرة.. هل تسمعينني.. وترينني أنت أيضًا؟»..

أومأت أميرة برأسها مبتسمة له: «نعم أراك وأسمعك.. وأشتم رائحتك النتنة أيضًا..».. هنا أخذ رامي يضحك ويصرخ فرحًا ويتقافز يمينًا ويسارًا: «إنهم يرونني.. إنهم يرونني.. أنا حي.. أنا موجود.. لقد أصبحوا يرونني مرة أخرى».. نظر عصام إلى سراج مرتابًا وهو يشير إلى جهة رامي بعلامات الجنون.. فأومأ سراج إليه بالموافقة.. وهنا أخذ رامي يتقافز بكل مكان سريعًا حتى ارتطم بجسد كريم فسقط على الأرض فوقف سريعًا وهو ينظر إليه ممددًا على الأرض وهو مرتاع فصرخ بهم وهو يركض جهتهم: «هيا بنا الآن لنبتعد من هنا قبل أن يعود مرة أخرى للحياة».. فصرخ عليه سراج غاضبًا: «أنت بالتأكيد جننت.. لقد قتلته بيدك الآن فكيف سيعود حيًّا أيها الوغد؟ لا تعتقد لوهلة واحدة أني سوف أتركك تنجو بفعلتك تلك.. لقد تجرأت وقتلت شخصًا أمام ضابط شرطة»..

.. فأمسـكه رامي من يده وهو يشده مبتعدًا: «هيا بنا من هنا الآن.. استمع لحديثي إنه سيعود للحياة مرة أخرى إنه يفعلها دائمًا.. لقد قتلته حتـى الآن عشرات المرات ودائمًا مـا كان يعود مرة أخرى».. صرخ به عصام في الحال: «يبدو أنك أصبت بالجنون بالفعل يا رامي»..

قاطعتـه أمـيرة بالحال: «لا إنـه يسـتطيع فعلها.. يسـتطيع أن يعود للحيـاة بل يسـتطيع أن يفعل أكثر من ذلك بكثـير أيضًا..».. نظر إليها سراج وعصام مندهشـين: «ماذا تعنين بذلك؟ ماذا رأيتِ عندما لمستِ كريم؟ أخبرينا».. سألها عصام بفضول شديد..

« لا أستطيع أن أعبر عما شاهدته بكلمات.. إنه شيء لا يصدقه عقل»..

حدثهـم رامـي بلهفـة: «لا يهم هـذا الأمر الآن سـوف أشرح لكم كل شيء بالتفصيـل فيما بعد ولكن يجـب أن نبتعد من هنا الآن لا أريد أن أنسـى مرة أخـرى ولا أحد يتذكـرني.. لا أريد أن أصبـح منبوذًا.. هذا أسـوأ من الموت ألف مرة.. اتبعوني لقـد وجدت مخبأ لا يعلم عنه كريم شـيئًا نسـتطيع أن نحتمي به.. أو أتمنى ألا يكون يعلمه ويخدعني كـما يفعل.. لا يهم الآن هيـا اتبعوني.. تحرك الجميع خلفه وهم يتبعونه إلا سراج الذي أخذ ينظر إلى جسد كريم الممدد أمامه وهو يفرك جبهته يحـاول أن يعقل حديث رامي ولكنه لا يسـتطيع.. فعـاد رامي مسرعًا إليه وسحبه من يده بقوة وهو يحدثه محذرًا: «هيا بنا قبل أن يعود»..

تحرك سراج وراءه وهو ينظر إلى جسد كريم خلفه ويشعر بالذهول مما يحدث..

مـرت عدة سـاعات عـلى الموقف السـابق وبدأ الظلام يتسـلل بين جنبـات النور ليحتل مكانـه بروية ليعلن للجميع انتهـاء عشرين يومًا منـذ أن بـدأ حصـار المدينة مـن الضبـاب، وأصبحت تلك السـاعات البدايـات الأولى لليـوم الحـادي والعشريـن من الحصار الـذي أصبح تقويـمًا متـداولًا وشـائعًا بين أهالي جهينـة أقرب مـن التقويم الميلادي والتقويـمات الأخرى المعروفة.. كان هناك شيء ملحوظ في هذه الليلة بشـكل خاص.. أجـواء التوتر كانت تملأ المكان.. شـعور الاضطراب يجتاح الجميع.. شـعور بأن هناك شـيئًا خاطئًا بالتأكيد سوف يحدث إن لم يكـن حدث بالفعل الجميع بلا اسـتثناء اجتاحته تلك المشـاعر حتى الحيوانـات والطيـور التي كانـت بالمدينـة والتي لم تكف عـن الصياح والاضطراب وأخذت الغربان تنعق وهي ترفرف فوق منازل المدينة.. الجميع شعر بالاسـتياء من تلك الأصوات حتى كريم الذي كان ينظر لها بضيق وهـو يلهب الأرض بخطواته السريعة وعلى وجهه علامات الوجـوم والتفكـير العميق التي لم تؤثر إطلاقًا على وسـامته المعهودة.. لم يكن حينها غاضبًا من قتل رامي له.. لم يكن مندهشًا من فعل عصام وسراج تجاهـه.. ولكـن كان كل سـخطه أن قامت أمـيرة تلك المنبوذة بلمسـه؛ فهذا كان بالنسـبة له مـن أعظم الأمور التي قـد تصل إلى حد الخطايـا أن سـمح لها بغفلة أن تفعـل ذلك.. ولكنـه كان يفكر بطريقة كي يتدارك هذا الخطأ الفادح الذي وقع به.. وهداه طريقه إلى شخص واحـد كان يـضيء كالمصباح في رأسـه هو الوحيد الذي سيسـتطيع أن يسـتفيد منـه تلك اللحظة وهـو يتوجه إليه الآن.. عـدة دقائق ووصل

إلى منزله الذي كان ملطخًا بعبارات السب والشتائم النابية وموضوع عليه علامات النازية وبعض الرسومات الأخرى وملقى أمامه الكثير والكثير من النفايات والقمامة.. أخذ كريم ينظر إلى المنزل مندهشًا من هذا الأمر.. لم يكن يتصور أن يرى منزل العمدة مازن يحدث به ذلك الأمر أبدًا.. اخترق القمامة بحرص وتوجه إلى باب المنزل الذي كان محطمًا ودلف إلى المنزل ليجده شبه فارغ من الأثاث وعلى الحائط بعض السباب والرسومات بداخل المنزل وبعض قطع الأثاث محطمة ومتراكمة في أرضية المنزل.. ويبدو أنه تعرض للنهب.. أخذ كريم يقلب في أرجاء المنزل بحثًا عن مازن فلم يجده.. انطلق إلى الغرف بالأعلى ليجدها قد نالها ما نال باقي المنزل من النهب والتحطيم.. ترك الغرف سريعًا ثم هبط عائدًا على درج السلم مرة أخرى ليجد على الحائط لوحة زيتية ممزقة وملقاة على الأرض وعلى الحائط مكان اللوحة جهاز إلكتروني صغير بعض أزرته منزوعة من موضعها ويبدو أن أحدًا ما قد حاول تدمير ذلك الجهاز فلم يستطع.. أخذ كريم يتأمل الجهاز وهو مندهش وأخذ يتلمسه بيده.. وهنا ترامت إلى أذنه بعض الأصوات الخفيفة للغاية.. فشحذ حواسه في الحال وأخذ يتسمع بتركيز شديد لتلك الأصوات ليجد أن هناك عدة أصوات لشخصيات كثيرة خافته وهي صادرة من جهة أحد الأبواب بالقرب منه فتوجه إليه سريعًا وهو يفتحه بفضول ليجد أنه حمام قد تم تحطيم محتوياته وهناك مكان واضح لسخان صغير مسروق.. ثم سمع بوضوح أكثر قليلًا الأصوات من خلف إحدى حوائط الحمام.. فاقترب سريعًا وألصق

أذنه جهة الحائط ليسمع الأصوات الصادرة بالتأكيد من هناك.. أخذ كريم يتلمس الحائط بيده فشعر بوجود بعض الفراغ الصغير للغاية بينها فضغط على الحائط بقوة شديدة كادت تحطمه فوجد أن هناك بابًا قد فتح ولكن بصعوبة، فضغط بقوة أكثر ليفتح الباب بقوة ليفاجأ بوجوده داخل غرفة سرية مخبأة خلف الحمام.. كانت الغرفة دافئة.. يكسو بعض أركانها الغبار.. بها سرير صغير تراه عندما تدخل الغرفة أمامك.. وبالجهة اليسرى من الغرفة كان هناك حاسب آلي صغير موصل بشاحن كهربائي بسلك طويل.. ومسجل ضخم أعلى دولاب خشبي متوسط الحجم بجوار الحاسب.. ومقعد مريح مسجى أمام الحاسب يستطيع من يجلس عليه أن يغير من وضعية جلوسه إلى استخدامه كسرير للنوم بسهولة ومازن يجلس عليه.. لم يشعر مازن بوجود كريم نهائيًّا فقد كان يحمل بيده بعض الصور وهو يمزقها بعنف وبحنق شديد.. اندهش كريم من تلك الغرفة ومن وجود مازن بها وأنه لم يخبره عنها إطلاقًا وأخذ يبتسم ساخرًا لأنه كان يعتقد بأنه يعلم أسرار الجميع ولكن اتضح أنه كان على العكس من ذلك تمامًا.. أخذ كريم يجول بناظره في الغرفة ليجدها غير مرتبة على الإطلاق ويعلوها الغبار في كل مكان وبها الكثير من الأجهزة الالكترونية بكل مكان على الرغم من صغرها ولكن ما كان يثير الدهشة ليس هذا كله بل ما كان يحدث أثناء ذلك؛ فقد كانت إضاءة الغرفة مطفأة والحاسب الآلي يعمل ومفتوح عليه المئات من الملفات الصوتية التي سجلها مازن لأهل المدينة وجميعها تعمل بنفس الوقت لتصدر أصواتًا نشازًا

متداخلة لا تفهم منها شيئًا ولا تسمع شيئًا مفهومًا سوى الصخب والأصوات الضخمة لعدة أناس يتحدثون في نفس الوقت.. وفي أثناء ذات الوقت كانت تعمل 4 طابعات وتطبع صورًا سريعة لعدد كبير من أهل المدينة وهم يتموضعون بأشكال وبأماكن مختلفة بجهينة وبعضها مع مازن والكثير منها مع عائلاتهم.. وأخذت تلك الصور من كثرتها تتساقط على الأرض وعلى السرير وبكل مكان تقريبًا.. كان المشهد سرياليًّا للغاية وصوت التسجيل الذي يكاد يصيب من يسمعه بالصمم يعلو بالخلفية، وصور أهل المدينة بكل مكان حول مازن وهو يمزق بعضها بعنف وتتساقط الأيدي والوجوه والشفاه الممزقة أسفل أقدامه وهو يرفسها بقوة أسفله ويبدو كأنه يريد أن يمحو تلك اللحظات والذكريات من الوجود وليس من ذاكرته فقط.. اقترب كريم قليلًا من مقعد مازن الذي كان يرتدي فانلته الداخلية مع بنطال منزلي وهو يمزق الصور بعنف..

وهنا انتبه مازن لوجود كريم خلفه فقفز سريعًا مرتابًا وهو يحمل الصور بيده.. وعندما شاهد كريم أمامه تغيرت ملامحه من الغضب إلى الغضب الشديد وهو يفرك بقوة الصورة الممزقة بين يديه: «أنت.. هل لك عين أن تريني وجهك القذر مرة أخرى أيها الخائن؟..»

أخذ كريم ينظر حوله بالغرفة وهو يجول بها سريعًا ليقف ببصره على وجه مازن الذي كانت تعتليه الكدمات الزرقاء وأخذ يبتسم بوجهه ضاحكًا: «أهلًا بك.. يا عمدة جهينة.. من الآن سوف أصبح

مساعدك من جديد».. نظر إليه مازن مندهشًا بينما أخذ كريم يبتسم ضاحكًا بخبث شديد..

* * *

أثناء ذلك الوقت كان رامي وعصام وسراج بمنزل أميرة بعد أن رفضت أن تذهب معهم إلى مكان آخر.. وأخذ رامي يتحدث إليهم ويشرح لهم ما كان يحدث معه بالأيام السابقة.. وأخذ الجميع يستمع إليه بإنصات حتى انتهى من سرد ما حدث.. فتبعه عصام بسؤاله بفضول شديد: «إذًا هذا الشبح المزعوم الذي كان يخيف المدينة ويبث بها الرعب كان أنت!.»

أجابه رامي مبتسمًا: «نعم.. إنه أنا.. ولكن لم أرغب بأن أخيفهم أو أظهر لهم بأني شبح أو ما إلى ذلك.. كل ما هنالك أني كنت قد وصلت إلى مرحلة من اليأس جعلتني أتمنى أن يراني أحد أو يتحدث معي أو حتى يتذكرني.. لقد تم سلب هويتي بالكامل.. لم أكن أعلم هل أنا حي أم قد مت والناس أصبحت لا تراني بسبب هذا.. كنت أفعل تلك الأمور حتى أعبر عن نفسي وأشعر أني مازلت حيًّا وكنت أتمنى أن يلتفت الناس لي ويتذكروني.. وبالطبع لم أكن أركز على أهل المدينة بل كنت أريد أن ألفت نظرك أنت وأميرة والعقيد سراج؛ لأنكم كنتم تعلمون من أنا.. وبعد عدة محاولات نجحت بالفعل بأن أجعلكم تتذكرونني عدة مرات.. ولكن عندما كنتنم تتذكرونني

وتعلمـون هويتـي.. لا أعلم ما يحدث حينها حيث سرعان ما تنسـوني مرة أخرى بعد مرور وقت قليل» ..

ابتسـم عصام إلى سراج: «هل رأيت؟! لقـد أخبرتك بأنه لا يوجد أشباح.. لقد كنت على حق»..

أشاح سراج بيديه متعجبًا «.. ياليته كان شبحًا.. لقد كنت أتمنى أن يكون هناك شـبح بالفعل أفضل مائة مـرة من مجرد تفكيري بهذا الهراء الـذي تتحدثون به.. وكيف يسـتطيع كريـم هذا منذ البدايـة أن يفعل ذلك ويجعلنا ننسـاك.. يبدو أن هناك شيئًا خاطئًا.. لا يمكن لكريم أن يمتلك تلك القدرات أبدًا.»

أجابـه رامي سريعًا: « لا.. إنه كريم أنا متأكد.. لقد أخبرني بنفسـه أنه فعل ذلك بي بل إه يستطيع أن يفعل أكثر من هذا بكثير.. هو سبب كل ما يحدث بالمدينة ووراء كل تلك الأمور الغامضة.»

هنـا وقـف سراج بمكانه في الحال واقـترب من رامـي: «اممم.. إذًا أنـت كنـت تعلم من البداية بأن كريم هو الـذي يفعل كل تلك الأمور ولم تخبرنا وجعلتنا نمر بكل تلك المصاعب أيها اللعين»..

رامي مرتبكًا: «لا.. لم أُخفِ عنكم شيئًا.. أنا لم أكن أعلم من هو في البداية.. صدقني.»

أمسـك سراج قبضتـه بقـوة: «إذا لم تكـن تعلم من هو منـذ البداية فلماذا قتلته أول مرة من قبل؟..»

ابتلع رامي ريقه بقلق وهو يفكر بإجابة مقنعة لسراج فلم يستطع.. فألقى سراج بيديه غاضبًا: «أنا أعلم منذ البداية أنك كنت تخفي عنا كل شيء.. وأنك تعلم معظم ما يحدث بالمدينة إذا لم تكن تعلمها كلها.. وأنك تعلم لغز ظهور جثتك ولغز الذهب وكل ألغاز تلك المدينة اللعينة»..

انتاب رامي الخوف الشديد وسراج يضيق عليه الخناق بأسئلته المحترفة التي تصدر من عقل محقق مخضرم مثله وأنه يعلم بأنه يخفي شيئًا.. ابتلع ريقه مرة أخرى وأخذ يدافع عن نفسه: «صدقني أنا لم أعلم أي شيء من قبل ولكن الآن سوف نتعاون معًا لكي نخرج من تلك المدينة ومن تحت قبضة كريم».

أومأ سراج برأسه رافضًا: «لا.. لن أعتبرك عضوًا بمجموعتنا مرة أخرى مادمت لا تخبرنا بكل الحقيقة وبكل ما تعلمه عمَّا يحدث بجهينة.. أنت منذ اليوم ليس لك مكان بيننا.. وستظل منبوذًا هكذا للأبد»..

أمسك به رامي مترجيًا وهو خائف بشدة: «لا.. أرجوك يا سراج باشا لا تفعل ذلك معي.. لن أستطيع أن أعيش منبوذًا منسيًّا بين الجميع وبلا وجود هكذا.. أرجوك.. أقسم لك بأني لم أُخفِ عنك شيئًا آخر»..

هنا نهرته أميرة بغضب شديد: « لا.. أنت تخفي عنهم كل شيء يا رامي.. أخبرهم الحقيقة، ولا تنسَ أني شاهدت كل شيء من قبل»..

هنـا نظر إليها رامـي غاضبًا وهو يحاول أن يدافع عن نفسـه: «ماذا تقولـين يا أمـيرة؟ لقد أحببتك من كل قلبي.. هـل تريدينني أن أعيش منبوذًا للأبد؟!»..

«أنـا لا أريدك أن تكون منبوذًا.. أنا أريد أن أراك صادقًا.. أخبرهم بما حدث وسـوف يسـتمعون إليك ويصدقونك بعـد ذلك.. أخبرهم يـا رامي.. أخبرهم بالحقيقة وإلا سـوف أخبرهم أنـا، وحينها حتى أنا لـن أجعلك تراني مـرة أخرى لأني لا أريد أن أرتبـط بكاذب أو مخادع كـما كنت.. أريدك أن تتطهر من كل ما سـبق وتسرد لهم الحقيقة كاملة وتذكر أني أعلم بالفعل كل شيء.»

أخـذ رامي ينظـر إلى ملامحها المليحـة التي جعلت قلبـه يذوب كما يذوب الملح بالماء الفاتر.. لقد علم في تلك اللحظة بأنه لن يستطيع أن يجعل هذا الكائن الرائع يشعر بالضيق منه.. إنه وصل لمرحلة من العشق جعلته كالعبد المطيع لا يسـتطيع مخالفة سـيده لكي يرضى عنه.. فأومأ على الفور برأسه وهو يحدثهم بيأس: «سوف أخبركم بكل شيء وبكل صدق.. لقد بدأ هذا الأمر معي منذ 6 أشهر تقريبًا.. عندما سافرت إلى المغرب.. أو قبل أن أسافر.. سوف أحكي من البداية.. أنا...

❋ ❋ ❋

(مهرجان الضحك)

لقد كنت وسط أيام سعدي تلك الفترة.. حيث خلال تلك الأيام تمت ترقيتي بالعمل عدة مرات وأصبحت صحفيًّا معروفًا وذا شأن عمّا كنت منذ ثلاث سنوات وتغيرت مكانتي في الصحيفة التي أعمل بها وأصبحت أقرب إلى مالكها وإلى رئيس تحريرها، وكان الصحفيون الآخرون يتوددون إلي لكي أصبح طريقًا لهم يعبرون به إلى ذوي النفوذ بالجريدة، وكنت أعلم أنهم يتملقونني لمصلحتهم ولكن طالما راق لي هذا التملق دائمًا؛ فالجميع يحب أن يتملقه الآخرون مهما كان يعتقد غير ذلك.. المهم.. كنت في خضم سبق صحفي كبير عن قضية كبيرة لأحد الوزراء؛ بشكل أدق وزير التموين حينها.. ويبدو أن هناك شخصًا ما أراد فضحه وإبعاده عن طريقه ولهذا أُرسلت لي بعض الأوراق التي تدينه وفضائح كاملة بالوثائق والمستندات وبالفعل لم أكذب خبرًا وقمت بحملة قوية عليه ظهر صداها بالإعلام في أقل من ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع تم ما أرادوه حيث تم عزل هذا الوزير من منصبه.. وعلى الرغم من كل تلك الفضائح والمستندات التي تدينه وطرده من الوزارة فإنه لم يتم توجيه أي اتهام رسمي له حتى الآن.. أي إني قد تم استخدامي من قبل أحدهم لتحقيق منفعة شخصية له ولكني لم أعبأ كثيرًا لأني إذا قمت بالرفض فالمئات غيري سوف يفعلونها بكل

تأكيد.. ارتفعت أسـهمي بالجريدة مرة أخرى وذاع صيتي بين الوسط الصحفـي والإعلامي ولمع اسـمي ونجمي في أوسـاط علية القوم كما رغبـت دائمًا، ولكن حدث أمر غريـب لم أتوقع أن يحدث لي أبدًا.. لقد شـعرت بالمـرض.. ليـس مرضًـا بدنيًّا بالتأكيـد ولكنه مـرض عقلي.. لا تفهمـوني خطأ ليس مرضًـا عقليًّا بمعنى الجنون ولكن شيء آخر قد يبدو بسيطًا ولكنه كان كارثة بالنسبة لي.. لقد أصبت بمرض النسيان.. أصبحت أنسـى كثيرًا.. أنسـى مواعيدي التي أحددها.. أنسى مفاتيح سيارتي.. أنسـى هاتفي.. أنسى أسماء رؤسـائي.. ولكم أن تعلموا أنه من هول أن تنسـى اسـم رئيسـك بالعمل أنه شيء أقـرب إلى أن تحطم قاربـك وأنت تعبر المحيط.. أصبحت تحدث لي المشـاكل تلو المشـاكل لم أكن أتوقع أن الإنسـان بدون ذاكرتـه يصبح أحمق هكذا لقد تعلمت درسًـا مهمًّا وهو أن بعض الأشياء التي نستهين بها قد تكون هي مفتاح الباب لهلاكنا بالفعل.. لقد خشيت أن أكون قد أصبت بالزهايمر[1] هذا المرض الذي ذاع صيته منذ فترة قريبة.. هذا المرض الذي يجعلك تنسى كل شيء حتى اسمك أو حتى أنك قد قمت بتناول الطعام منذ لحظات فتذهب لتأكل مرة أخرى وأشـياء أخرى تجعلك أشبه بالطفل الصغير بهذه الدنيا.. لقد خشيت على نفسي بشدة.. وذهبت إلى أكثر من طبيب لكي أجري بعض الفحوصات والأشـعة المقطعية على رأسي وجميعهم أجابـوا بأنـه لا توجـد أي أمـراض عضوية لدي وأن سـبب ما يحدث لي هـو شيء نفـسي أو بسـبب شيء آخر يجهلونه وطمأنـوني بأن مرض الزهايمر لا يأتي إلا بعد أن يتعدى الإنسان العقد السادس من عمره.. لقـد اطمأننت بأنـه ليس لدي مرض الزهايمـر ولكني أصبت بخوف

أكبر.. لماذا على الرغم من أني لا أشتكي من أي مرض عضوي وعلى الرغم من هذا يصيبني النسيان كثيرًا؟! ما الذي يحدث لي؟! لقد انتابني الخوف والفزع لأني أرى ذلك دائمًا بالأفلام والدراما البطل لا يشتكي من شيء ولكنه فجأة يصبح لديه مرض نادر لا يأتي إلا لإنسان واحد فقط في هذا العالم والذي يكون دائمًا هذا البطل سيئ الحظ.. ولكني لست بطل فيلم ما.. فلماذا يحدث ذلك معي؟! ذهبت إلى أكثر من طبيب نفسي منهم من أخبرني بأن هذا الأمر بسبب عقدة قديمة لدي من حب ما لفتاة من المرحلة الابتدائية وآخر يخبرني بأنه بسبب صدمة نفسية لأن والدي كان يضربني عندما كنت ألعب الكرة ولا أستذكر دروسي.. وآخر يخبرني بأنه بسبب أني لم أتزوج حتى الآن وأن هذا يؤثر على عقلي الباطني والكثير الكثير من الهراء الذي لا أعتقد بوجوده أصلًا بالحياة الحقيقية.. كنت قد كونت اعتقادًا يصل إلى حد اليقين بأن جميع الأطباء النفسيين نصابون ويملئون رأسنا بالهراء ليبتزوا أموالنا.. حتى وجدت طبيبًا واحدًا فقط.. كان يمتلك العلم بالفعل وأثبت لي أن التعميم خاطئ وأن كثرة المضللين -للأسف- قد توهمنا بعدم وجود علم ولكن من يمتلك العلم يبرز بسهولة بين كل هؤلاء المدعين.. لقد قام بعمل أكثر من اختبار معي وأخبرني أن مشكلتي ليست حتى نفسية؛ كل الأمر أن مستوى هرمون بعقلي أقل قليلًا من المعتاد بسبب الإرهاق وعدم النوم وهذا سبب عدم التركيز الذي يصنع اضمحلالًا كبيرًا في الذاكرة طويلة الأمد.. وشرح لي بأن الذاكرة تنقسم إلى ثلاث مراحل: الأولى هي سماع المعلومة عن طريق الحواس الخمس ثم تحول تلك المعلومات إلى الذاكرة القصيرة التي تحفظها لوقت قصير

ثـم يقوم العقـل بتحويلها إلى الذاكـرة طويلة الأمد التـي تحتفظ بتلك المعلومـة للأبـد في ذاكرتنا ولكـن كل هذا يرجع إلى نسـبة التركيز على تلـك المعلومات التي تخـبر العقل بأن تلك المعلومـة هامة فيحفظها في الذاكـرة طويلـة الأمـد أو إذا لم يتم تنبيـه العقل من خلالهـا يعتقد بأن تلك المعلومة ليسـت هامة فيمسـحها من الذاكرة.. هذه هي آلية عمل الذاكرة بشـكل مبسـط أو كما فهمتها منه.. وأن مشـكلتي تتلخص في عملية التركيز التي لا تجعل عقلي يعتقد بأهمية تلك المعلومات فأنساها سريعًـا وقام بإعطائي بعض الدروس العملية التي تزود نسـبة التركيز وبعـض أنواع الطعـام التي تزيد من التركيز العقلي للإنسـان مثل الموز والزبيـب ومضـغ العلكة وبعـض الأمور البسـيطة التـي فعلتها ولقد كانـت دهشـتي كبيرة جـدًّا عندما لمسـت تحسـنًا ملحوظًـا في تركيزي وذاكـرتي أيضًا بفترة صغيرة للغايـة.. لقد داومت على تلك التدريبات لفـترة قصـيرة وبفضلها أصبحت ذاكـرتي قوية لدرجـة تجعلني أحفظ أرقـام الهواتف بعقلي إذا رغبت وأرقام السـيارات والعناوين المختلفة وأي معلومـة أرغـب بحفظها.. لقـد تغيرت حياتي للأحسـن في فترة وجيزة للغاية.. عندما تنبهت لأهمية تدريبات التركيز والذاكرة تلك.. قـررت أن أجعلها عادة يوميةلدي.. والحمـد لله بعد قلق وحيرة لأيام كثيرة عـدت إلى عملي سريعًا وأخذت وضعي بين زملائي ورؤسـائي بـدون أي مشـكلة تذكـر.. وكنت أقوم بعمـل تدريبين يوميًّـا بمكتبي أثنـاء عملي وهما تدريـب الوردة الحمراء وتدريب القـراءة بالمقلوب.. وتدريـب الوردة الحمراء هذا عبارة عن إحضار وردة حمراء والجلوس جلسة اللوتس الشهيرة والنظر إلى تلك الوردة بكل تفاصيلها ثم تخيلها

بذاكرتك فيما بعد ولعدة دقائق.. هذا التدريب ينمي قدرات كثيرة جدًّا أهمها التخيل والإبداع والتركيز وتقوية الذاكرة.. والتدريب الآخر كما يظهر من اسمه هو قراءة أي شيء بالمقلوب، تفتح أي كتاب أو صحيفة وتمسكها بالمقلوب بيدك وتقرأ السطور من خلالها ستجد صعوبة في البداية ولكن بعد ذلك ستجد أنك تقرأ بسهولة شديدة كما تقرأ أي شيء أمامك وهذا التدريب يقوي التركيز بشكل قوي للغاية.. وهناك عدة تدريبات كثيرة مفيدة بدرجة لا تتصورونها ولكني كنت أستخدم هذين التدريبين لأني كنت أقوم في نهاية كل تدريب بإعطاء الورود الحمراء إلى الفتيات بعد انتهاء التدريب فأكسب قلوبهن بسهولة.. والتدريب الآخر كان سهلًا للغاية لأفعله في أي وقت وبأي مكان.. هنا نظر رامي إلى الجميع فوجد أميرة تنظر له شزرًا وتكاد النيران تخرج من عينيها.. فشعر رامي بأنه قد أفصح عن معلومات أكثر من اللازم فابتسم ببلاهة وهو يحدثها: «هذا بالطبع كان بالماضي قبل أن أجدك يا أميرة.»

أبعدت أميرة عينيها عنه بدلال شديد ونظرت إلى جهة أخرى.. شعر رامي بأن قلبه كاد يتهشم من تلك النظرة الغاضبة تجاهه.. وحاول أن يتحدث إليها.. فصرخ به سراج بحنق شديد وهو يشيح بيده بعصبية: « دعك من هذا الآن.. أكمل.. أكمل..».. شعر رامي بالاضطراب من غضب سراج فحاول تهدئته وهو يشير إليه بيديه:

«حسنًا.. حسنًا.. لا تغضب.. سوف أكمل.. لقد قمت بسرد كل تلك الأمور تمهيدًا لحدوث شيء فيما بعد.. فقد كنت في أحد الأيام بمهمة خارج الصحيفة وعدت بعد ذلك لكي أتابع المقالات وأمارس

تدريباتي اليومية كالمعتاد وأخذت أقرأ صحيفة أمامي بالمقلوب كما أفعل دائمًا.. دلف إلى مكتبي سريعًا السيد وجيه أمين مسئول القسم الفني بالجريدة دون أن أشعر.. وظل يناديني ولم أفق من تركيزي إلا بعد عدة مرات فقد كنت منهمكًا بالقراءة بقوة لأن القراءة بتلك الطريقة تستلزم تركيزًا كبيرًا بالفعل.. تنبهت له فاعتدلت بجلستي ورحبت به بحرارة.. طلبت له قهوة وأخذنا نتحدث معًا عن بعض الأمور وسألني لماذا يراني دائمًا أمسك الأوراق بالمقلوب، فابتسمت محرجًا وشرحت له الأمر كله فبدا عليه عدم اقتناعه بحديثي فقمت في الحال بقراءة عدة مقاطع من مجلة يحملها بالمقلوب ووجدت علامات الذهول الشديد على وجهه وأخذ يتندر على هذا الأمر لفترة طويلة.. أكملنا حديثنا الودود لما يقارب الساعة، ثم بادرني بسؤال بنهاية الجلسة قبل أن ينصرف: «هل ترغب بالسفر معي؟»..

«ماذا؟ هل ستسافر؟.. ستسافر إلى أين؟.. والعمل ماذا ستفعل به؟»..

ابتسم سريعًا وأجابني: «سوف أسافر للعمل.. سوف أذهب إلى المغرب لتغطية مهرجان الضحك هناك.»

«ماذا؟ مهرجان الضحك؟ ما هذا؟ أول مرة أسمع به»..

«إنه مهرجان للضحك كما يبدو من اسمه وهو تجمع كبير لنجوم الضحك والكوميديا من كافة أنحاء العالم يقام منذ عدة سنوات بدولة المغرب الشقيق.. وسوف أذهب لتغطيته وعمل عدة لقاءات مع ضيوفه.»

«أنت ستذهب بنفسك؟ لماذا لا ترسل محررًا أو صحفيًّا بدلًا منك وتريح نفسك؟»..

«أيها الأحمق.. هل هناك شخص عاقل سوف يترك سفرًا لدولة رائعة مثل المغرب وتكاليف السفر بأكملها على العمل ويرسل شخصًا آخر بدلًا منه؟!»..

«لهذه الدرجة المغرب جميلة لكي تذهب إليها بنفسك برحلة عمل؟.»

«أوووووه إنك تتحدث هكذا لأنك لم تزرها من قبل.. هاهي لاحت فرصتك لكي تزورها.. أخبرني.. هل ستأتي معي لكي أحضر لك تذاكر السفر والتأشيرات أم لا؟»..

أخذت أفكر قليلًا وأنا متردد.. أنا لا أحب الأمور التي أكون غير محضر لها مسبقًا ولكن اسم مهرجان الضحك.. والسفر إلى المغرب أثارا شغفي وقلت لنفسي: لمَ لا؟ لا يوجد فيما أفعله هنا جديد عمَّا أفعله دائمًا.. فأومأت برأسي مبتسمًا: «حسنًا.. سوف أذهب معك.. فرصة جيدة لكي أقضي بصحبتك بعض الأيام.»

«جيد للغاية.. على بركة الله.. أعدك بأنك سوف تعيش أيامًا لن تنساها بحياتك أبدًا.»

قال تلك الكلمات وهو يصافحني وينصرف خارجًا.. ولقد كانت نبوءته تلك صحيحة للغاية فتلك الأيام لن تنمحي من ذاكرتي أبدًا»..

.. مرت عدة أيام وسافرنا أنا والسيد وجيه معًا إلى دولة المغرب.. هبطت طائرتنا بمطار محمد الخامس بالعاصمة الدار البيضاء.. لفت

انتباهي حينها أن جميع من قابلنا لقينا بسن ضاحكة وبوجه بشوش عندما علموا أننا مصريون.. ركبنا سيارة تاكسي بيضاء تدعى جراند تاكسي وأثناء ذهابنا إلى الفندق وجدت عدة سيارات حمراء اللون صغيرة علمت أنها سيارات أجرة هي الأخرى واسمها بْتِيت تاكسي وأنها سيارات أجرة مثل الجراند ولكنها أصغر قليلًا ولا تذهب إلى المطار.. انطلقنا بشارع محمد الخامس الذي يعتبر من أهم الشوارع بمدينة الدار البيضاء وأخذت معالم المدينة تجذب انتباهي بين الخليط المعماري الرائع لأحياء من الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات وأيضًا بعض العمائر الضخمة التي تقارب ناطحات السحاب.. وهنا شاهدت مبنًى ضخمًا للغاية يتم بناؤه.. علمنا من سائق الجراند تاكسي بأن هذا المبنى هو برج دبي كازابلانكا تاورز وهو عبارة عن برج ضخم أشبه بمجمع متكامل للأعمال والتسوق والسياحة والترفيه، يتكون من فندق فاخر ومجمع للشقق المفروشة والسكنية، وهو يمتاز بتصميم هندسي فريد، مما يتوقع معه أن يصبح فور إنجازه أحد أروع المعالم على مستوى شمال إفريقيا.. أخذنا نستمتع بحديث السائق وهو يشرح لنا بعض المعالم المشهورة بمدينة الدار البيضاء ومنها مسجد الحسن الثاني الذي يفتخر أهل المغرب به بطول البلاد وعرضها وهنا طلب منه السيد وجيه أن يذهب بنا إليه لكي نصلي به ونشاهد معالمه.. وبالفعل توجهنا إليه ولكم اندهشت مما شاهدته بينما أخذ السيد وجيه يشاهدني مبتسمًا وهو يشرح لي معالم المسجد الذي علمت أنه زاره من قبل أكثر من مرة ولكم كان المسجد رائعًا بالفعل! فمسجد الحسن الثاني هو أكبر مسجد في المغرب وسابع أكبر

مسـجد في العالم، مئذنته أندلسية الطابع ترتفع 210 أمتار فوق الأرض وهي أعلى بناية دينية في العالم وشـيدت صومعة مسـجد الحسـن الثاني طبقًـا للمعمار المغـربي الأندلسي، تمتـاز بالرخام الذي يكسـوها، وهي مزودة بمنارة بثلاث تفافيح نحاسـية. ويشـد انتباهك ليلًا شعاع ليزر موجـه من قمتها نحو الكعبة الشريفة لبيان اتجاه قبلة المسـلمين، يصل مـداه إلى 30 كلـم. توحـي الزخارف المنقوشـة على الواجهـة الرخامية لصومعة المسـجد بالصوامـع المرينية. أما الألواح المزينـة للجهة العليا للصومعة فهي مكسـوة باللونين الأبيض والأخضر، وهما يشـيران إلى ألوان السـلم والحياة.. قمنا بالصلاة بداخل المسـجد واشـترينا بعض التـذكارات مـن الباعة حولـه وأخذنا بعـض الصور التذكاريـة أمامه ثـم ركبنا سـيارة أجـرة أخـرى واتجهنـا إلى فندقنا الذي حجزه السـيد وجيه بمنطقـة كورنيش عين الذياب تلك المنطقة الرائعة التي تمتد على طول الشـاطئ وهي واجهة بحرية تضم سلسلة مسابح وفنادق ومقاه ومطاعـم جميلـة ويتمتع السـائح فيها بكل ما يطلبه من شـمس ورمال وشـواطئ وكل ما يشتهيه من المناظر الطبيعية.. لقد استمتعت بالفعل بتواجـدي في تلـك المنطقـة هذا اليـوم وكانـت رحلة ممتعـة ولم أتوقع أنني سـوف أشـعر بتلـك الراحة بدولـة المغرب التـي أصبحت بلدي الثاني.. أخذنا نسـتمتع بالمشاهد الرائعة والدفء والاستقبال الحار من أهـل المغرب لنـا لمدة يومين حتى أتـى اليوم الثالـث وذهبنا إلى مسرح محمـد السـادس لكي نغطـي مهرجان الضحـك الدولي المقـام هناك.. ولم أفعل شـيئًا سوى تتبع السـيد وجيه؛ لأنه هو الذي كان لديه الخبرة والبـاع الطويل هنـاك.. أخذنا نصور المهرجان ونغطـي أخبار الفنانين

والحضور من جميع أنحاء العالم وتعرفت من خلال ذلك المهرجان على عـدة فنانين كوميديين رائعين لم أحظَ بمتابعتهم من قبل للأسـف مثل السـيدة «دونيا بوتازوت» والسيد «عزيز حطاب» و«جليلة التلامسي» والشاب الرائع «رشيد رفيق» ومجموعة أخرى كبيرة من النجوم الذين كنت أجهلهم وأخذنا نتحدث معهم لساعات طويلة عن مشاكل الفن بشـكل عام والكوميديا بشـكل خاص في الوطن العـربي وأمور كثيرة لا يوجـد وقت لذكرها الآن.. مر اليومـان الأول والثاني بطريقة ممتعة واعتياديـة حتـى أتى اليـوم الثالـث للمهرجان، كنت أتابـع العروض باهتمام وفضول وأسـجل بعض الملاحظات على هامش المهرجان لكي أسـاعد السـيد وجيه بعمله.. لم تمض فترة طويلة حتى وجدت السـيد وجيه يقف بجواري ومعه فتاة شـديدة الجمال صافحتني وهو يعرفها بي وأخبرني أنها سـيدة أعمال مغربيه تدعى عائشة المهدي.. وأنها سيدة أعمال مشهورة بمدينة الرشيدية وأنها تحضر المهرجان منذ عدة سنوات ولها اسـتثمارات بمجال قطع غيار السـيارات بعدة دول ومنها مصر.. فصافحتهـا بحـرارة وأنا أتعجـب كيف لسـيدة جميلة مثلهـا أن تعمل بمجـال مثل قطع غيار السـيارات.. أخبرتني أنها تعمـل بعمل العائلة منذ عدة عقود وهم يتاجرون بالسـيارات وقطع غيارها.. هنا أشار إلي السـيد وجيه: «لقد حدثت السـيدة عائشـة عنك يا رامي وأخبرتها أن لديك علاقات ومعارف كبيرة بالسياسيين ورجال الشرطة بمصر على عكـسي أنا جميع معارفي وعلاقاتي من الفنانين.. وهي تريد منك خدمة».. اندهشت من طلب وجيه المفاجئ هذا ولكني ابتسمت لهما على أي حال: «مُريني يا سيدتي.. كيف أستطيع مساعدتك؟»..

بادلتني الابتسامة وهي تومئ لي برأسها: «أشكرك يا مستر رامي.. هو طلب سخيف قليلًا ولكني لا أذهب إلى مصر كثيرًا للأسف ولذلك أحتاج مساعدتكم..».. أجبتها في الحال: «ما طلبك؟ إذا كنت أستطيع مساعدتك به سأفعل دون تردد ..»..

«حسنًا.. إن جدي -رحمة الله عليه- كان يذهب إلى مصر كثيرًا للسياحة وللعمل أيضًا، وكان له صديق رسام مشهور بمصر يدعى مدحت فراج.. هل سمعت عنه؟».

«لا للأسف.. لم أسمع عنه من قبل».

«حسنًا.. لا يهم.. إنه كان في رحلة هو وجدي منذ سنوات بعيدة وتاها بالصحراء وماتا رحمة الله عليهما»..

رددت أنا ووجيه بعض الأدعية لهم: «رحمة الله عليهما.. رحمهما الله»..

تابعت حديثها: «رحمهما الله.. لقد ظل والدي يبحث عن جدي كثيرًا لعدة سنوات بمصر وصحرائها وذهبنا إلى أحد البدو الذين كانوا مع أبي برحلته وذهبوا يبحثون معنا لعدة أشهر لكن لم نعثر لهما على أي أثر إلا سيارتهما وكان بها بعض حاجياتهما.. وهنا أقنعنا أهل البدو بأنهما بالتأكيد قد ضلا بالصحراء وماتاا واختفت جسداهما أسفل الكثبان الرملية أو التهمهما أحد الضواري بالصحراء.. لقد اقتنعنا جميعًا بأنهما ماتا بالفعل.. مرت سنوات طويلة بعد ذلك الحادث وفوجئنا بأن أحد أقارب البدوي الذي كان مع جدي قد حضر إلينا بالمغرب وسلمنا

بعض الحاجيات التي كانت تخص جدنا لأنهم وجدوا رفاتهما فجأة مع أحد الاكتشافات بالصحراء بمصر منذ فترة طويلة»..

هنا سألتها بفضول: «اكتشاف ماذا؟»..

« للأسف أنا لا أعلم التفاصيل لأن هذا الأمر حدث منذ فترة طويلة.. كل ما هنالك أنه بعد ظهور تلك الأشياء مرة أخرى وأخذ والدي لها من ذلك البدوي أخذ يشعر بالحزن الشديد لأنه كان يتمنى أن يكون والده مازال حيًّا بمكان ما لكن بعد أن تأكد من وفاته أصيب بالمرض وظل ملازمًا الفراش لفترة طويلة.. وقمت أنا بمتابعة أعمال العائلة من حينها.. المهم حتى لا أطيل عليك.. والدي عندما قام بفرز تلك الأشياء التي وجدوها مع رفات جدي وجد أن بعضها لا يخص جدي بل يخص صديقه الرسام مدحت فراج.. وأنه يجب أن يرسل تلك الأشياء إلى أهله بمصر حتى نعيد الحق إلى أصحابه كما يقول.. ومن حينها وأنا أحاول الذهاب إلى مصر لكي أبحث عن أهل السيد مدحت فراج فلا أجدهم وأيضًا نظرًا لكثرة مشاغلي لا أجد وقتًا لكي أتفرغ للبحث عنهم ووالدي مازال يصر كلما شاهدني بأن أرسلها إلى أهله.. لقد قمت بإحضارها إلى السفارة المصرية ولكنهم أعادوها إلي بعد عدة أشهر وأخبروني أنهم لم يستدلوا له على عنوان.. ولهذا قررت أن أستغل معرفتي بالسيد وجيه بأن أطلب منه أن يساعدني بالبحث عن مدحت هذا ولكنه أخبرني أنه لن يستطيع أن يساعدني وأخبرني أنك ممكن أن تساعدني..»..

ابتسمت لها في الحال: «هذا أمر يسير.. إن الشرطة المصرية تستطيع العثـور على أي شـخص.. لا تقلقي.. هذا أمر يسـير للغاية... ولكن ما هي تلك الحاجيات؟.»

« بعض المذكرات والأوراق والرسومات الخاصة به.. سوف أكون شاكرة لك إذا ساعدتني بتحقيق هذا الطلب.. لا تعلم كم سيفرح أبي بهذا الأمر إذا تحقق وسوف أكافئك بأي مبلغ تطلبه»..

«أفضـل مكافـأة لي يا سـيدتي أني قد حظيـت بمعرفتـك.. أنا رهن أمرك بأي وقت.»

وهنـا صافحتني وهي فرحة بشـدة: « أشـكرك.. أشـكرك يا سـيد رامـي.. لقد أنقذتني من ورطة كبيرة، لدي عمل بكندا وكنت سـوف أؤجلـه حتـى أسـافر إلى مـصر لأبحث عـن مدحـت هـذا.. ولكنك ستريحني من هذا العناء.. أخبرني كيف سترسل لك حاجياته؟».

تحدث إليها وجيه بالحال: «أنا سـوف أعطيكِ عنوان الفندق الذي نقيم به.. لا تقلقي..».. ابتسـمت لنا شـاكرة وانصرفت مبتعدة.. بعد هذا قمنا بقضاء سـهرتنا كـما هو المخطط.. وبصباح اليـوم التالي كنت أجلـس في غرفتـي بالفنـدق وقـت الظهـيرة أمـارس تدريـب الوردة الحمراء الخاص بالتأمل والتدريب وأنا بتركيز شديد لم يقطعه إلا طرق عـلى بـاب الغرفـة.. تركت التدريـب ووضعـت الوردة الحمـراء على المنضـدة أمامـي وذهبـت سريعًا إلى الباب لأجد شـخصًا مـن الفندق يعطينـي طردًا مكتوبًا عليه اسـمي فقمت بأخـذه وذهبت بفضول إلى السريـر وفتحته لأجد رسـالة من عائشـة المهدي تشـكرني بها وتخبرني

بأنها أرسلت الحاجيات الخاصة بمدحت فراج.. قمت بوضع الرسالة على السرير وأخذت أنثر محتويات الطرد بجواري لأجد كراسات رسم كبيرة مهترئة و6 أجندات كبيرة الحجم بألوان مختلفة مكتوب على بعضها أجندة عام 1984 وأخرى 86 وأوراقها صفراء للغاية تظهر مدى عبث الزمن بها.. أخذت أقلب بأوراقها سريعًا لأجد كتابات كثيرة عليها بعضها بخط جيد ومفهوم والكثير منها بخط يكاد يكون آليًّا.. حيث أصبحت الخطوط والكتابات غير مفهومة.. ظللت أعبث بالأوراق قليلًا لأجد أي شيء يدل على هذا الرسام الغامض فلم أجد.. أمسكت هاتفي وقمت بالبحث على الإنترنت عن الرسام مدحت فراج فلم أجد أي شيء عنه.. ظللت أبحث قليلًا فلم أجد أي شيء يذكر إلا خبرًا صغيرًا بمدونة مجهولة تتحدث عن الفن ذكرته بشكل سريع أنه كان رسامًا متميزًا ولكنه اختفى فجأة بمنتصف الثمانينيات وبعد ذلك وجدوا رفاته بالصحراء عام 2002 وأكثر من ذلك لم أجد أي شيء.. فابتسمت وأنا ألقي الهاتف من يدي: «يبدو أن مدحت فراج هذا لم يكن هناك أي شيء مثير بحياته إلا نهايته..».. قررت أن أعطي تلك المهلهلات إلى أحد معارفي بالشرطة ويبحث عنه هو وإن لم يجده لا يهم فقد فعلت ما وعدت به وانتهينا.. قمت بوضع المجلدات بجوار بعضها على المنضدة وهنا سمعت صوت شيء يسقط على الأرض فتلفت إليه سريعًا لأجده قطعه بيضاء صغيرة مثل الطبشور.. تعجبت من وجودها في الفندق.. أمسكتها بيدي وكان ملمسها باردًا أقرب إلى المعدن فوضعتها بلامبالاة بجوار باقي أخواتها من المهلهلات وذهبت إلى التدريب مرة أخرى.. أخذت وضع جلسة

اللوتس من جديد وأمسكت الوردة الحمراء بيدي اليمنى وأخذت أتأمل بها بتركيز شديد.. جميع التفاصيل.. ثنيت أوراقها.. الأشواك الصغيرة على ساقها الخضراء النضرة.. رائحتها الخفيفة التي يميزها الأنف بسهولة.. الورقتان الخضراوان بجانب ساقها.. الخطوط الصغيرة ما بين تلك الأوراق.. أدق أدق التفاصيل التي تتخيلها كنت ملمًّا بها وأصبحت بالنسبة لي شيئًا سهلًا للغاية.. ثم وضعت الوردة بجواري وأخذت أضم أصابعي وأشبك أناملي وأخذت نفسًا قويًّا ثم أخرجته ببطء وأخرجت معه جميع توتري وهمومي وبدأت بالتركيز الشديد بعقلي.. أنا بمكان فارغ الآن لا يوجد به إلا الوردة الحمراء وجميع ما حولي أبيض اللون.. فقط الوردة الحمراء أمامي بجميع تفاصيلها التي تخيلتها من قبل أقوم بلفها لكي أنظر إلى جميع حوافها وتفاصيلها... ها أنا الآن أشتمُّ رائحتها بسهولة.. أتلمس ملمسها بيدي.. أداعب أوراقها الصغيرة بأناملي.. أفعل ذلك كله من خلال تخيله بعقلي.. شعرت أن التدريب تم بنجاح.. فتحت عينيّ سريعًا وأمسكت بالوردة الحمراء وأخذت أنظر إليها لكي أرى كيف تخيلتها وهل كان تخيلي دقيقًا أم لا، وكلما كانت التفاصيل التي تخيلتها دقيقة كان التدريب ناجحًا وهنا شعرت بالفرح الشديد لأنه ولو أول مرة منذ أن قمت بتدريب الوردة هذا قد تخيلت جميع تفاصيلها بالضبط كما كانت بالحقيقة.. لقد كنت فرحًا بشدة.. أخذت أصرخ وأنا أنعت نفسي بالعبقرية والذكاء الشديد وشعرت برضاء كبير عن نفسي.. وقررت أن أكافئ نفسي بأكلة طعام فاخرة من الفندق بمناسبة نجاحي المبهر بتدريب اليوم.. قمت بوضع الوردة على المنضدة وذهبت إلى

الهاتـف وطلبـت وجبة غداء فاخـرة.. بعد أن انتهيـت أغلقت الهاتف فرحًـا وذهبـت إلى الحمام وأخـذت حمامًا دافئًـا لمدة 15 دقيقـة تقريبًا.. ثم سـمعت صوت طـرق على باب الغرفة فارتديـت ملابسي وفتحت البـاب لأجدهـم احـضروا الطعـام الذي طلبتـه.. جعلتهـم يدخلونه الغرفة وكافأتهم ببعض الإكرامية الجيدة ثم ذهبت إلى جهة السرير وأنا أجر عربة الطعام لكي أتناوله وأنا جالس على السرير لأشاهد التلفاز.. فضغطت بقدمي على شيء ناعم أسفلها.. رفعت قدمي سريعًا ونظرت إلى ما دهسته وهنا فوجئت بأنها الوردة الحمراء التي كنت أتدرب بها.. أمسـكتها بيدي وأنا متعجب كيف سـقطت من على المنضدة إلى هنا.. ثم قمت بوضعها عـلى المنضدة مرة أخرى وهممت بالانصراف ولكن مـا شـاهدته جعلنـي مصدومًـا.. لقد وجـدت وردتـين حمراوين على المنضدة.. أمسـكت بالوردة الحمراء التـي كانت على الأرض ونظرت إليها وأنا مندهش.. ثم أمسـكت بالوردة الأخرى وهنا فجأة تلاشـت الـوردة من بين دي.. نفضت يـدي فزعًا وأنـا اصرخ مرتاعًا: «ما هذا بحـق الجحيـم؟! مـا الذي حـدث؟! لقد اختفـت الوردة بـين يدي.. لا أعلم كيف اختفـت.. أنا لا أتذكر من البداية بأني أحضرت وردتين لتدريب هذا اليوم.. لقد أحضرت وردة واحدة فقط وأسـتخدمها منذ ثلاثـة أيام بتدريباتي.. جلسـت عـلى السرير وأنا مصـدوم مما حدث.. هـل كنت أتوهـم بأن هنـاك ورديتن أم كانـت وردة واحـدة؟ لم أعلم ولكـن هذا الموقف جعلني أشـعر بعدم الارتياح.. ظللـت أفكر كثيرًا فيـما حدث ولكن لم أهتـدِ إلى شيء.. وهنا انتابني الجـوع فتركت أمور العقل وذهبت إلى الطعام وأخذت أتناوله باسـتمتاع شـديد.. انتهيت

من الأكل وجلست أشاهد التلفاز لفترة وجيزة وهنا شعرت بمفعول الطعام يتسلل إلي وبدأت جفوني تشعر بالثقل.. تركت نفسي إلى سلطان النوم لأغفو قليلًا.. أنا أعلم بأني لن أنام بالكامل ولكني سأظل مسترخيًا ما بين النوم واليقظة لفترة قصيرة.. هذه الحالة طالما لازمتني بعد أن أتناول الطعام وأسترخي على الأريكة.. أصوات التلفاز تصل إلى أذني ولكني غير مهتم وبدأت أشاهد بعض الأحلام بتلك الغفوة الصغيرة.. لقد حلمت أني نائم على سرير أبيض كبير للغاية وتتساقط علي من سقف الغرفة ورود حمراء كثيرة وأنا مستلقٍ أشاهدها مبتسمًا.. ظللت أتابع حلمي بدون قلق.. ولكن شعرت بأشياء ناعمة تسقط على وجهي وعلى عيني وأنفي.. فقمت بمسح أنفي سريعًا لأني شعرت بالحكة.. وفتحت عيني ببطء لأجد شيئًا يسقط جهة عيني فأغمضتها سريعًا وقمت من على السرير فزعًا لأرى مشهدًا غريبًا للغاية.. السرير ممتلئ بالورود الحمراء التي تتساقط من سقف الغرفة كما شاهدتها بحلمي منذ قليل.. أخذت أنظر إلى السرير وإلى سقف الغرفة وأنا غير مصدق أحرك عينيَّ مع الورود التي تسقط على السرير من السقف.. ما هذا؟! يبدو أنني مازلت أحلم.. أنا بالتأكيد أحلم.. قمت بصفع وجهي وفرك عيوني.. يبدو أنني مستيقظ.. ولكن كثيرًا ما كنت أعتقد بأن الحلم حقيقة.. بالتأكيد أنا أحلم الآن وأنا أعلم بأني أحلم.. هذا ما يسمونه بليكويد دريم.. ذهبت إلى الحمام سريعًا ووضعت رأسي تحت الصنبور وأغرقت رأسي لكي أستيقظ.. وهنا ذهبت إلى الخارج مرة أخرى لأجد الورود مستقرة على السرير وبعضها ملقى على الأرض.. ورود حمراء كلها نفس اللون والطول

والتفاصيـل.. إذًا أنا لم أكن أحلم.. أمسـكت ببعضها وفحصتها.. إنها بالفعـل نفس الورود بالضبط.. ماذا يحدث؟ نظرت إلى سـقف الغرفة وأنا أظن أن شـخصًا بالتأكيد قد وضعني بمقلب سخيف بأحد برامج التلفاز وأنه بعد قليل سـوف يخرج علي رامز جلال وهو يبتسم ساخرًا مرتديًا فسـتانًا أحمر ويتصنع أنه بائعة ورود.. ولكن كان السقف عاديًّا للغايـة ولا يوجـد أي شيء غريـب بـه.. مـاذا يحـدث بحـق الجحيم؟ ما هذا؟ هنا صدر صـوت غريب بالغرفة جعلني أقفز خوفًا للحظات ثـم تداركـت سريعًا أنـه صوت هاتفـي.. فتوجهت إليـه سريعًا لأجد المتصـل السـيد وجيه يخبرني بأنه قد حجـز بطائرة الغد لكـي نعود إلى مصر بعد انتهـاء مهرجان الضحك اليوم فصدقت على حديثه وأنهيت المكالمـة سريعًـا وتوجهت بقلـق إلى السرير وأمسـكت بعـض الورود وأخـذت أشـمها فوجدتها بدون رائحة.. جميعها بـدون رائحة. عندما عاينتها عن قرب تلك المرة وجدتها بالفعل تشبه الورود ولكنها ليست ورودًا، إنها أشبه برسـمة ثلاثية الأبعاد لورود وليست وردودًا طبيعية بالتأكيـد.. إذًا هذا من صنع شـخص مـا.. إذًا بالتأكيد هناك شـخص يراقبني ونفذ علي ذلك المقلب السـخيف.. شـعرت بالغضب الشديد ونويت أن ألقن هذا الوغد درسًا هو ومسئولي هذا الفندق الذي سمح بحدوث مثل هذا الأمر.. ارتديت ملابسي وقفزت سريعًا إلى استقبال الفنـدق وظللت أرعـد وأبرق غضبًا على العاملـين بالفندق وأصحابه فالتـف حـولي الزائرون والعاملـون يحاولون تهدئتـي وانتهى الأمر إلى منعـي من اسـتكمال صراخـي بداخل الفنـدق ونقلـه إلى مكتب المدير الـذي ظللـت أهدده بأني صحفي وأني سـوف أفعل بهـم الأفاعيل إذا

لم يكشـف لي عمن قام بهذا الأمر السـخيف.. تأسـف لي الرجل كثيرًا وأبـدى تفهمه لغضبي وطلب منـي أن أذهب معه وبعض العمال لكي يروا هذا الأمر بأنفسهم.. أخذتهم متوعدًا إلى غرفتي وفتحت لهم بابها وأنـا أصرخ عليهم ليشـاهدوا ماذا يحدث بفندقهـم اللعين.. وهنا نظر لي مديـر الفندق نظرات مريبة وهو يحدثني متحفزًا: « أين تلك الورود التي حدثتنا عنها يا سيدي؟!»..

نظـرت لـه بضيق وأنـا أصرخ عليـه غاضبًـا وأنا أتوجـه إلى داخل الغرفـة: «هـل تتصنع الغباء أم مـاذا؟ إنها هنا أمامـك».. وفوجئت في تلك اللحظة بأن السرير لم يكن عليه أي شيء نهائيًّا ولا حتى ورقة ورد واحـدة.. نظـر إلي المدير بضيـق وهو يحدثني بعنف: « مـاذا يحدث هنا يا سـيدي؟! لقد قمت بصنع جلبة وفعل أمور غير مقبولة أمام النزلاء الآخرين ولا يوجد شيء هنا كما تدعي».. ظللت أبحث أسفل السرير وحوله وأنا غير مصدق وأنا أصيح مندهشًا: «إنها كانت هنا.. بالتأكيد أنتـم قمتم بأمر ما.. أنتم قمتم بتنظيـف الغرفة عندما كنت بمكتبك.. أنا متأكد من ذلك»..

أجابنـي بنـبرة غاضبـة: «أمازلـت مصرًّا عـلى حديثك غـير اللائق هذا؟! إن فندقنا هذا خمس نجوم يا سـيدي مستحيل أن يحدث به شيء كهـذا.. وإذا أردت أن تتأكـد بأنه لم يدخل أحد غرفتك وأنت بالخارج نسـتطيع أن نجعلـك تشـاهد الكامـيرات بنفسـك».. هنـا صرخـت متحمسًـا «نعـم.. نعـم الكامـيرات.. أريـد أن أشـاهد الكاميرات».. أخـذني مدير الفنـدق ومعه بعـض العاملين إلى غرفـة الأمن وجعلني أشـاهد الكامـيرات.. ومنذ لحظة دخول الغـداء إلى غرفتي حتى لحظة

خروجي من غرفتي غاضبًا لاشتكي لهم ما حدث معي بالفعل لم يدخل أي شخص إلى الغرفة أو يخرج منها حتى لحظة عودتي بالمدير إلى الغرفة.. وهنا ابتلع الهر لساني ولم يكن لي عين أتحدث إلى المدير الذي نظر إلي نظرة غاضبة وتحدث إلى مساعده بجواره: «أخلوا غرفة السيد المحترم رامي واتركوا متعلقاته خارج الفندق الآن».. ثم تركني وانصرف وأنا أجمع حطام كرامتي التي تبعثرت منذ أن تم طردي لأول مرة بحياتي من فندق ما وعلمت بعد ذلك أنه تم وضعي على القائمة السوداء ومنع دخولي إلى ذلك الفندق مدى الحياة.. حدثت عدة أمور تلك الليلة أنستني جميع ما حدث وانتهى الأمر بسفري عائدًا إلى مصر مرة أخرى.. جلست بغرفتي تعبًا من السفر وأنا أفكر بما حدث معي بالمغرب وما إذا كنت أتوهم كل ذلك؛ ولهذا خشيت أن أذكر أي شيء مما حدث معي حتى لا يعتقد أي شخص اعتقادًا خاطئًا عني.. تناسيت الأمر ومرت عدة أيام توقفت خلالها عن استخدام تدريب الوردة نهائيًّا وظللت أستخدم القراءة بالمقلوب.. كنت بعملي في أحد الأيام فوردتني مكالمة من رقم خارج مصر.. رقم غير مسجل لدي.. رددت على المكالمة لأجد المتصل هي عائشة المهدي هاتفتني لكي تستفسر عما فعلته بحاجيات مدحت فراج ذاك.. فطمأنتها وأخبرتها أني سوف أذهب في الغد إلى أحد معارفي بالشرطة وهو سيقوم باللازم وأخبرتها أن تعتبر الموضوع انتهي تمامًا.. أنهيت معها المكالمة ثم تحدثت إلى أحد الضباط من أصدقائي وأخبرته عن الأمر وأخذ مني اسم مدحت فراج وأخبرني أنه سيقوم بالبحث وعمل التحريات اللازمة وطلب مني أن أهاتفه مرة أخرى بعد عدة أيام.. أنهيت المكالمة وظللت

أسـترجع ما حدث معي منذ أن كنـت بالمغرب وهنا جال بخاطري أن أقـوم بتدريب الوردة الحمراء مرة أخرى وبالفعل قمت بإرسـال أحد العاملين ليحضر وردة لي وبعد سـاعة كنت بمكتبي بمفردي وأخذت وضـع زهـرة اللوتس وقمـت بتدريب الـوردة لعدة دقائـق ثم فتحت عينـيَّ بقلق وترقب شـديد ولكـن لم أجد شـيئًا غريبًا.. قمـت بتكرار التدريـب مـرة واثنتين وثلاثـًا وبالفعـل لم يحـدث أي شيء غريب عمَّا يحـدث معـي عـادة.. إذًا الأمر كان مقلبًـا بالتأكيـد أو أني كنت متوهمًا أو كنـت متأثـرًا بالحلم الـذي شـاهدته حينها.. أخـذت أضحك على نفـسي كثيرًا وقد كنـت أعتقد بأن ما حدث كان حقيقيًّا وظللت أصف نفـسي بالغبي.. عـدت إلى منزلي هذا اليوم وقمـت بتحضير مهلهلات هـذا الرسـام المكلـوم الذي مـات وحيـدًا بأقـاصي الصحـراء.. وهنا للمرة الأولى فتحت رسـوماته وشـاهدتها بعناية. إنها رسومات بديعة بالفعـل لبعـض الجبال والمناطـق بالصحراء وبعض البـدو وحيوانات الصحـراء.. أخـذت أقلـب قليلًا بالرسـومات فشـاهدت رسـومات لسـيدة وثلاثة أطفال متفاوتي الأعمار، ثم رسومات كثيرة لجسد رجل وجسـد امـرأة عاريين ثم رسـم لأعضـاء البـشر بالتفاصيل الشـديدة ورسـومات لشـوارع وسـيارات وأشـياء كثيرة تكاد تنبـض بالحياة.. ولفت ناظري رسمة بحجم كبير لطفل صغير مرسومة بإتقان شديد.. وهنا شعرت بالحزن على وفاة هذا الرسام الرائع الذي بالتأكيد لم يسلط عليـه الضوء أو على أعمالـه الرائعة تلك.. وهنا أخذت قراري بأن هذا الرجل يستحق أن يسلط عليه وعلى أعماله الضوء.. وإذا لم يلق التقدير الجيد بحياته هذه فسوف يتم تقديره بعد مماته.. وانتويت أن أقوم بسبق

صحفـي عنه وعن عائلته وعرض رسـوماته تلك لكي أسـاعد الناس على تذكره قليلًا.. قمت بوضع حاجياته بحرص شديد وباحترام تلك المرة على مكان مرئي بالنسـبة لي حتى أتذكره ولا أنساه في ظل انشغالي المعتـاد.. وهنـا شـاهدت كتابًـا بالإنجليزيـة مكتوبًـا عليـه «الفايكنج والأسـاطير الإسـكندنافية» لكاتب يدعى روبرت باول Robert poul طبعـة عام 1979 أخذت أتفحصه قليلًا وبحرص شـديد لأنه قد اهترأ تقريبًا فوجدت ورقة تمزقت به وأنا أقلبه فتركتها سريعًا مكانها وقمت بإغـلاق الكتـاب حتى لا أمزقـه تمامًا.. ثم قمـت بتفحص الأجندات التي كانت تحمل غطاء جلديًّا سـميكًا أنقذهـا قليلًا من عوامل الزمن التـي لا ترحـم.. وجـدت بها كتابـات مكتوبة بشـكل أشـبه إلى مشي الطيـور.. والخطـوط مائلـة إلى أعلى وإلى أسـفل.. يبـدو أن من يكتب لا يهمه أن يقرأ أحد ما يكتبه.. ولكن وجدت بأجندة منها خط واضح وقابل للقراءة بطريقة جيدة.. فأخذت أقلب بها قليلًا ثم قمت بفتحها من الصفحة الأولى وقمت بقراءتها..»

« لا أعلـم بالضبـط كـم مكثت هنـا.. لا أعلـم الليل مـن النهار.. لا يوجد من نجا سواي أنا ويونس ولكنه مصاب إصابة شديدة للغاية بقدمه.. إنه يتألم بشـدة لا أسـتطيع أن أتحدث معه لئلا أشق عليه.. كل الحديث الذي يدور بيننا من طرفي أواسـيه فقـط.. لقد قمت بمحاولة البحـث عـن مخرج خـارج هذا الكهـف فلم أجـد.. المدخـل الصغير الوحيـد قد أغلق بسـبب الانفجار الذي حـدث.. لا أعلم ماذا حدث بالضبـط.. في أوقـات كثيرة يراودني شـك كبير.. هـل نحن محظوظان أنا ويونس أننا لم نمت من الانفجار أم لا؟ أعتقد أننا محظوظان بالنسبة

لسالم وهانز.. لقد وجدت بعض أشلائهما وقطعًا من ملابسهم بداخل الكهف.. ولكن كيف أظن أننا محظوظون إذا كنا سنموت بداخل هذا الكهف بالنهاية؟ كان من الأفضل لنا أن نموت جميعًا ولا نعيش بمثل هذه الأيام العصيبة.. لا.. أعتقد أننا نجونا أنا ويونس لأننا مازال لدينا عمر معًا.. يجب ألا أيأس.. بالتأكيد سوف نجد مخرجًا من هنا.. أو سيأتي لنا أشخاص ليبحثوا عنا وسيجدون سيارتنا وسيأتون لينقذونا.. يجب أن نتمسك بالأمل فبالتأكيد سوف نخرج أحياء أنا ويونس من هنا.. إن يونس يتألم للغاية الآن.. سوف أذهب لأعطيه بعض الطعام والمياه»..

أصابني الفضول الشديد وأنا أقرأ تلك الكلمات.. أيعقل أن تلك مذكرات مدحت فراج؟! ولكنه يذكر كهفًا.. ألم يموتا بالصحراء؟ إذًا لقد وجدا كهفًا ويبدو أنه كان معهما شخص يدعي سليم وشخص يدعي هانز.. هل هو أجنبي؟ هل هو صاحب كتاب الأساطير الإسكندنافية تلك.. وماتوا بالانفجار؟ أي انفجار هذا؟ ماذا حدث هناك بالضبط؟ لقد خرج مارد الفضول بداخلي وقمت بالتهام صفحات تلك المذكرات بمتعة شديدة فوجدت بعض الصفحات مكتوبًا بها بعض الجمل ولكن يتم محوها بالقلم مرة أخرى ثم يتم وضع علامة إكس كبيرة على الصفحة وهكذا على مدى أربع صفحات.. ثم وجدت بالصفحات التالية باقي مذكرات مدحت..

«لقد مات.. لقد مات يونس بالأمس.. لم يجلس معي كثيرًا.. لقد تركني رفيقي يونس.. لا أدري ماذا أفعل الآن»..

وهنـا وجـدت بعض الحـبر قد مسـح بشيء يشـبه الميـاه.. يبدو أن مدحـت كان يبكـي عـلى رفيقـه يونـس وهو يـدون تلـك الكتابات.. وهنا تحركت مشـاعري ودمعـت عيناي حزنًا على أناس لم أشـاهدهم بحياتي أو أسمع عنهم ولكن تخليدًا لتلك الذكرى الأليمة بكيت معهم بمفردي.. أكمل مدحت كتابته:

«أنـا الآن لا أدري مـاذا أفعل.. لقد أصبحت وحيـدًا بالكهف مع جسـد صديقـي يونـس.. لا أدري مـا عدد الأيـام التي قضيتهـا هنا.. أنا أعلـم الليـل من النهـار بسـبب ثقب صغـير للغاية بأعـلى الكهف تتسـلل إليه أشـعة الشـمس بالنهـار والهـواء الذي يسـمح لي بالتنفس والعيش بداخل ذلك الكهف أو الحفرة الآن بتعبير أدق.. يبدو أن هذا المكان سيكون قبري أنا أيضًا.. لقد كنا نمني أنفسنا بالمغامرة والأموال والشـهرة ولكننا سنموت جميعًا هنا بسبب تلك الصخرة اللعينة.. لقد فـرح يونس وهانز للغاية عندما شـاهداها وها هـي الآن تمكث أمامي تذكرني بمدي غبائنا وحمقنا.. لمن أستطيع أن أشاهدها بعد الآن سوف أحركهـا بعيـدًا عن ناظـري بأي ركن مظلـم بالكهف بعيـدًا عن ذلك الضوء الضئيل الذي يزيدها وهجًا كما أتخيل دائمًا»..

هنـا أثارت تلك الجمـل انتباهي.. صخـرة.. أي صخرة تلك التي كانـوا يفرحـون بمشـاهدتها؟ وأي أمـوال وشـهرة؟ يبدو أنهـم كانوا يسعون خلف شيء ما.. هل كان كنزًا أم مقبرة فرعونية يا ترى أم ماذا؟ لا يوجد أي تفسير آخر إذ يبدو أنهم بالفعل كانوا يبحثون عن آثار من نوع ما.. تابعت قراءة المذكرات مرة أخرى:

«لقد حدث شيء مدهش منذ قليل عندما كنت أحرك تلك الصخرة بعيـدًا.. لقـد قمـت بإزاحتهـا بعيـدًا فوق كثيـب رملي بأحـد الأركان ولكنهـا سـقطت على جانبهـا إلى أن وصلت إلى منتصـف الدائرة التي بمنتصف الكهف وكانت محاطة بأحجار فتتبعتها إلى الدائرة وأنا أنوي أن أكمـل مـا فعلته وأزيحها بعيـدًا ولكن هنا وجـدت أن الأرض تهتز أسفل قدمي فشعرت بالخوف وتحركت سريعًا إلى خارج تلك الدائرة، ولكـن فوجئت بأن الأرض أخرجت ماء قليلًا.. شـعرت بالاندهاش الشـديد.. ماذا يحدث؟ أخذت أتحرك بجـوار تلك الدائرة لعدة مرات ولاحظـت شـيئًا عندما أتحـرك بجوار تلـك الدائـرة أو بداخلها تُخرج ماءً إلى سـطح الرمـال.. يبدو أن هناك بركة ماء من مياه جوفية أسـفل تلك الدائرة وقد امتلأت بالرمال في الماضي.. شـعرت بالفرح الشديد وأنا أدور بجنون حول الدائرة لأجد أن الصخرة تغوص قليلًا ويخرج من أسفلها ماء.. إذًا هناك ماء كما ظننت.. يبدو أن تلك إشارة أرسلها لي الله لكـي لا أيـأس فأنـا الآن لـن أمـوت عطشًـا.. اقتربت مـن الماء وأخـذت أتشـممه قليلًا فلـم أجد له رائحـة غريبة فشربـت منه قليلًا فوجدتـه ماءً باردًا وطعمه جيد لكـن بداخله بعض الرمال وهنا قمت بعمـل حفرة حـول الماء وأخرجـت بعض الرمال ولكنهـا كانت تعود مـرة أخرى.. يجب أن أصنـع حافة كبيرة من الصخور على جانب المياه وأضـع بجوارهـا الرمال حتـى لا تعود إلى البركة مـرة أخرى.. ولكن كان الليـل قد اقترب فلقد تغير اتجاه أشـعة الشـمس جهة اليسـار من الكهف.. إذًا الشـمس تغرب الآن وسيحل الليل؛ ولهذا تركت العمل على البركة وسـوف أعـود للعمل عليها من الغد.. أنـا أدون ما حدث

معـي الآن عـلى الضـوء المتبقي من النهـار قبل أن يحل الظـلام بداخل الكهف.. سـوف أقوم بأكل حصة زيادة الآن من الطعام بهذه المناسـبة فأنـا الآن أصبـح لدي طعام أكثر بسـبب وفاة يونـس، ولكن يجب أن أحـذر فالطعام محـدود وإذا كنت وجـدت مصدرًا للمياه فـإن الطعام حتى الآن لا يوجد له مصدر».

شـعرت بالفرح لفرح مدحـت أثناء قراءتي لتلـك الكلمات.. يبدو أننـي تأثـرت بقصتـه تمامًا وشـعرت أني أعيـش مغامرة معـه.. تابعت قراءة المذكرات:

« لقد قمت بوضع الكثير من الأحجار ولكن الذي كان جيدًا منها هـي تلك الأحجـار القديمة التي كانت موضوعة مـن قبل حول بركة الميـاه فهي الوحيدة التي صمدت أمام الرمـال واندفاع المياه.. يبدو أن من كانوا يسـكنون هذا الكهف من قبل هم أكثـر دراية مني بطبيعته.. أشـعر بالاندهاش الشديد كلما لامست حجرًا من تلك الأحجار التي قـام بصنعها قدماء المصريين منذ عشرة آلاف سـنة.. أنا في وسـط عبق التاريـخ وجمالـه لقد أخذت أغوص برسـومات القدمـاء تلك، ويا لها من رسـومات أنا أتحير كفنان كيف ظلت تلـك الألوان ثابتة على تلك الجدران لآلاف السنين.. إن الألوان زاهية للغاية وتكاد تكون مصنوعة بالأمـس.. بعـض الحوائط تبدو الرسـومات عليها ممتـازة وبعضها قد بـان أثر الزمان عليها فطمس أشـياء كثيرة منهـا.. لكن ما هذه الأيدي الصغيرة؟ إنها بالمئات على الحائط رسـومات لأيدٍ صغيرة تبدو كأيدي أطفـال البشر، ولكنها صغيرة للغاية لا تبدو كأيدي بشر، ورسـومات أخـرى لبـشر يرعون مـع حيوانات، ويا لها من رسـومات تـكاد تنطق

بالحيـاة من جودتها! ولفت انتباهي شيء مثير للغاية.. هناك الكثير من الرسـومات لحيوانات بـدون رأس.. أيعقل أن تكـون هناك حيوانات بدون رأس كانت تعيش بالماضي؟ لا أعلم إذا كان هذا صحيحًا أم لا، ولكـن جميع الرسـومات على الحائط منطقيـة وطبيعية إلا تلك الأيدي الصغيرة وتلك الحيوانات التي بدون رءوس.. لاحظت أيضًا في الأيام السـابقة أن جسد يونس قد أصبح منتفخًا.. يبدو أنه قد بدأ بالتحلل.. إذًا يجب علي أن أدفنه ولكني لا أعلم كيف، وهل يجب علي أن أغسـله أم أدفنه هكذا؟ أنا في حيرة من أمري.. ولكني أميل أن أدفنه هكذا لأن الميـاه هنا مصدر لا يجب التفريط به أبدًا.. سـامحني يا صديقي.. أرجو أن يتغمدك الله برحمته، ويلحقك جسدك إلى الجنة..

لقد قمت بدفن يونس بصعوبة شـديدة، لا أعلم هل الدفن صعب هكـذا أم لأني لا أعـرف كيـف أفعلهـا.. لقد قمت بالحفر بـين الرمال ببعـض الصخـور بأحـد أركان الكهف بعيدًا عن الميـاه وعن كل شيء ولكني لم أسـتطع أن أحفر لمسـافة كبيرة خوفًا أن تتساقط الرمال ببركة المياه مرة أخرى ولكن كانت كافية بما يكفي لكي أضع بها جسد يونس وقمـت بوضـع الرمال فوقه حتـى اختفى تمامًا.. لقد جمعـت متعلقاته وأشياءه جميعها وحتى إذا غادرت هذا الكهف فسوف أعطيها لأهله.. عندمـا أخرج من هنا سـأطلب من السـلطات أن تسـمي هذا الكهف باسم كهف يونس المهدي؛ لأنه يستحق أن يذكره الناس دائمًا.. رحمك الله يا يونس يا صديقي!

.. هـذا الصباح وجدت شـيئًا مدهشًـا للغاية.. لقـد ظهرت بعض الحشـائش الصغـيرة حـول بركة المـاء بمفردهـا.. سـبحان الله! لم أكن

أتوقـع أن يظهر زرع هكذا بالصحراء، ولكن بالفعل (وجعلنا من الماء كل شيء حي).. سوف أحاول رعايتها والحفاظ عليها، وهكذا سوف أبحـث عن أي بـذور للطعـام معي وأحـاول أن أزرعها بجـوار تلك الحشائش لعلها تنمو هي الأخرى..

إن الكهـف أصبحت رائحته سـيئة للغايـة.. إن الرائحة لا تطاق.. لا أعلم ما تلك الرائحة.. إنها رائحة سـيئة جدًّا.. لا أسـتطيع الجلوس أو النـوم بسـبب تلك الرائحة السـيئة.. أشـعر بأني سـوف أموت من تلك الرائحة..

.. اللعنـة!! الكهـف ممتلـئ بالرائحـة السـيئة والديـدان.. إنها تملأ ملابـسي وأرضيـة الكهـف.. إنها تأتي مـن جهة المكان الـذي دفنت به يونس.. اللعنة! ما هذه الأشـياء؟ إنها بكل مكان.. إنها حتى بشـعري وإذا قمـت من النوم أجدهـا بفتحات أنفـي وأذني.. لقد قمت بوضع الرمال فوق قبر يونس كثيرًا وكثيرًا ولكنها لم تمنع هجمات الديدان من التوافـد علي.. أقتل منها كل يوم الكثير ولكن لا أسـتطيع أن أمنعها.. الآن أعلـم كيف كان شـعور المصريـين أثناء هجوم الجـراد والضفادع بعهد سـيدنا موسي.. والأسـوأ من ذلك أن البرد أصبح شديدًا للغاية بالليل.. أنا أتعذب لا أسـتطيع النوم من الديدان والبرد والرائحة التي كلما اعتقدت أنني اعتدت عليها تؤرقني من جديد..

أكتـب مـن جديد بعد فـترة معانـاة كبيرة خـلال الأيام السـابقة.. لقـد انتهـت أسراب الديـدان ليظهر بـدلًا منهـا أسراب الذباب الذي كاد يغطـي كل شيء حـولي، ولا أعلـم مـن أين أتى كل ذلـك الذباب

اللعـين.. لقد قمـت بصناعة بعض الأشـياء التي أسـتطيع من خلالها إشـعال بعض النـيران التي تدفئني بالليل ولكن جميع الأخشـاب التي معي انتهت لا أدري كيف سأشـعل النيران بعد ذلك.. يبدو أني عندما أخرج مـن معضلة أدخل بمعضلة أكبر.. ولكن لحسـن الحظ وجدت أنواعًـا من فطر عيش الغراب موجـودة بكثرة بالقرب من بركة المياه.. عـلى الرغم مـن طعمه غير المميز ولكنه مصدر جيـد للغذاء كنت آكله كثيرًا بالطعام بالسابق»..

أخذت أقرأ في المذكرة لعدة ساعات كانت كتابات متفرقة تتحدث مرة عن مشـاعره، ومرة عن الطعام، ومرة عن مشكلة واجهها، ولكن الـذي لاحظته أنهـا تكتب على فترات طويلة، وأن خطه أصبح أسـوأ، وأن الجمل صارت تكتب بدون تركيز أو مراجعة.. يبدو أنه كان يكتب لمجـرد الكتابة فقـط.. ظلت المذكرات على تلك المنـوال حتى الأجندة الثالثـة.. وهنا وجدت خطه أصبح سـيئًا للغايـة ولا أكاد أفهم جملتين فقـط من كل صفحة.. وفي إحدى تلك الجمـل كانت هناك كلمة أول مرة أشاهدها أو ألاحظها هي عبارة عن حرفين (ك. م) لقد لاحظتهما بكتاباته واعتقدت أنهما مجرد اختصار لكلمة ما، ولكنه لأول مرة أشار بها إلى شخص ما أتذكر تلك الجملة جيدًا كانت مكتوبة هكذا:

«اليـوم (ك. م) أخذ يسـألني عن الطعام وعن مذاقـه والفرق بينها وإنـه سـألني: لماذا نحتاج إلى طعـام؟ ولماذا نحتـاج إلى أن نخرجه بعد الهضـم؟ إن هـذا الطفل الصغير عـلى الرغم من أسـئلته التي لا تنتهي جعـل لصحبتـي معنًى مـن جديـد لم أكن أتخيل العيشـة بدونـه الآن، وإعطاني الصخرة التي سهلت علي حياتي كثيرًا»..

هنا اندهشت من من ذكر (ك. م) هذا.. طفل.. من أين أتى ذلك الطفل؟ ولماذا ظهر فجأة هكذا بدون سبب بكتابات مدحت؟ لم أفهم شيئًا وظننت أني غفلت عن جزء مهم من القصة.. فذهبت إلى المذكرات لأقرأها بعجالة بحثًا عن (ك.م) هذا فلم أجده إلا ببعض المقاطع مكتوبة بخط لا يقرأ.. حاولت كثيرًا فهم ما هو مكتوب فلم أستطع ولاحظت أن مدحت بالفعل لا يهتم بكتابة مذكراته بالتفصيل لكي يشرح ما حدث معه بل إنه يكتب أفكاره التي يشعر بها حينها، عكس بداية كتاباته التي كانت واضحة ومفهومة.. أخذت أقلب بباقي المذكرات أحاول فهم أي شيء من الكتابات فلم أستطع، لقد تحولت باقي الكتابات إلى مجرد نقوش فقط أقرب إلى اللغة المسمارية القديمة، أو إلى شفرات سرية لا يفهمها إلا كاتبها، مع أني أظن أن مدحت فراج نفسه كان لا يستطيع قراءتها حينها.. ولكن الفضول جعلني أبحث عن أي كلمات عن هذا الطفل (ك. م) وجدت بعض الكلمات كانت واضحة قليلًا مثل.. معرفة.. خوف.. قلق.. الصخرة الصغيرة.. عائلتي.. لم أفهم شيئًا منها.. آخر صفحة كانت مكتوبة بالأجندة كانت مكتوبة بخط كبير؛ لهذا كنت أستطيع قراءتها بصعوبة قليلًا فكانت كالآتي:

«لقد استيقظت اليوم لأجد (ك. م) يقرأ بمذكرتي.. لقد اندهشت من هذا المشهد ولكني قلت لنفسي إنه ينظر بها بحب استطلاع لأنه كان يسألني عمَّا أفعل بتلك الأجندات فكنت أخبره أني أكتب، لكنه أشار إلى صفحة كتبتها من قبل وسألني عنها باستنكار.. لقد قال لي: «أنت كاتب هنا أنك تخاف مني.. هل أنت تخاف مني؟ هل أنا شرير

بنظـرك؟».. وهنـا صعقت مما قاله فبالفعـل أنا كتبت ذلـك بمذكرتي ولكـن ليسـت تلـك المشـكلة.. المشـكلة أني لم أعلّـم (ك. م) القـراءة أصلًا.. فكيف اسـتطاع أن يقرأ هكذا بسـهولة؟! إن دل هذا على شيء فإنه يدل على أنه لديه قدرة على التعلم كبيرة.. ولهذا من اليوم لن أكتب شيئًا آخر عمَّا أفكر به حتى لا يعلم.

تلـك كانت آخر جملة مكتوبة بمذكـرات مدحت فراج.. ومع آخر جملـة تلـك شـعرت بالغموض الشـديد.. أنـا لم أفهم منه شـيئًا ولكن يبدو أن ذلك الطفل (ك. م) أشـعر مدحت بالخوف بعدما كان يشـعر بالطمأنينـة لوجـوده معه من قبل.. من هذا الطفـل؟ وكيف وصل إلى الكهف؟ ولماذا يشير إليه بـ (ك. م) ولا يناديه باسمه؟ قرأت مذكرات مدحـت فراج وزادت حيرتي وتسـاؤلاتي.. لماذا ذهبوا إلى هذا الكهف مـن البداية؟ ومـن (ك. م)؟ ومن أينأتى؟ وما قصة تلك الصخرة التي ذكـرت كثـيرًا بكتاباته؟ زاد فضـولي -وأنا فضولي بلا حـدود- ألقيت بالمذكرات وأخذت كراسـات الرسـم وجلسـت أشـاهد الرسـومات مرة أخرى، وهنا ترجم عقلي ما قرأته على الرسـومات فهنا رسـومات الوحـوش التـي بـلا رأس التي تحـدث عنهـا مدحت وتلـك الأيدي الصغيرة واضحة برسوماته أيضًا.. وصورة لطفل صغير يبتسم بحجم كبـير.. إذًا هكـذا كان يبـدو المدعـو (ك. م).. أثـار هذا الأمر شـهيتي وسال لعابي وتأكدت بتلك اللحظة أن القدر قد ساق إلي سبقًا صحفيًّا سـيجعل اسـمي يـتردد لسـنوات طويلة.. أخـذت أقلـب بالمذكرات سريعًـا وهنا سـمعت صوت شيء يسـقط فنظرت إليـه سريعًا لأجده قطعـة الصخرة البيضـاء الصغيرة التـي رأيتها بالسـابق.. وهنا حملتها

بيـدي سريعًا وأنا أفكر: هل هي تلك الصخرة التي كان يتحدث عنها مدحـت فراج بمذكراته؟ ولكنـه كان يقول إنه كان يزيحها إذًا لابد أنها كانـت كبيرة الحجم، ولكـن الصخرة التي معي صغـيرة، لقد احترت كثيرًا بهذا الأمر ولم أفهم أي شيء، وأنا لا أحب أن أكون جاهلًا يعيش في ظـلال المعلومات، بالـذات التي تكون تحت أنفـي.. ذهبت مسرعًا إلى حاسـوبي وقمت بفتح متصفح الإنترنت الشـهير جوجل وأخذت أكتب: وحوش بلا رءوس وكهف.. لحظات وظهرت لي بعض مواقع الرعب وأظهر لي المتصفح عدة إعلانات لأفلام رعب مصرية شـهيرة باسم الشماس.. لم أجد غايتي التي أبحث عنها باللغة العربية بعد عدة محاولات فاشـلة بحثت باللغة الإنجليزية وظهرت لي اقتراحات كثيرة ومنهـا وجـدت ضالتي.. كهف يشـتهر باسـم «كهـف الوحوش» تم اكتشافه بمصر عام 2002 على يد بعض المصريين والإيطاليين.. إذًا هذا هو.. هذا الكهف الذي تحدث عنه مدحت فراج بالسـابق بمذكراته.. لقد أصبحت متيقنًا بعد أن شـاهدت بعض الصور مطابقة لرسـومات مدحـت فـراج.. إذًا هـذا هـو ضالتـي بالتأكيـد.. وأخـذت أضحك سـاخرًا كيف كان مدحت يرغب بأن يسـمي الكهف على اسـم يونس المهدي والآن أصبح اسـمه كهف الوحوش.. فكرت قليلًا بزيارة هذا الكهـف من كثـرة فضولي ولكن بعـد أن علمت مكانـه البعيد بداخل الصحـراء تغلـب شـيطان الكسـل علي وطـردت الفكرة مـن رأسي.. يبـدو أننـي أصبحت أميل أكثـر للحياة الافتراضية أكثر مـن الواقعية، فالمشـاهدة من خلف الشاشـات أكثر أمانًا من التعامل مع بعض البشر بالتأكيد.. ظللت أبحث قليلًا على الإنترنت وأخذت أتجول بين بعض

صفحات التواصل الاجتماعي ثم شعرت بالتعب يجتاحني فتمددت على سريري أنظر إلى هاتفي لعدة دقائق ثم رغبت بالنوم.. فقمت بإزاحة حاجيات مدحت من على سريري ووضعتها على المنضدة بجواري ووضعت الصخرة الغريبة تلك فوق المذكرات ثم وضعت الهاتف بجوارها وذهبت أبحر بعالم الأحلام.. استيقظت في الصباح على الصوت المزعج لمنبه هاتفي وككل يوم كنت أنوي أن أؤخر الهاتف قليلًا ليوقظني بعد عشر دقائق ثم أؤخره لعشر دقائق أخرى وهلم جرا حتى أستيقظ مرغمًا وأذهب للعمل.. أخذت أتحسس بيدي بجواري على المنضدة بحثًا عن هاتفي وأنا مغمض العينين نصف نائم لعدة ثوانٍ ثم وجدت ضالتي بالنهاية فحملت الهاتف بيدي وضغطت على زر الإيقاف سريعًا ثم وضعته على المنضدة مرة أخرى وعدت لأستكمل غفوتي ولكن صوت منبه الهاتف اللعين ظل يطاردني.. لم يتوقف عن رنينه بداخل رأسي.. شعرت بالضيق وبحثت عن الهاتف مرة أخرى وأمسكته بيدي وأغلقته ووضعته بجواري على السرير ولكن مازال صوت المنبه يصرخ بأذني كالمجنون.. اعتدلت بجلستي بضيق وأمسكت الهاتف بغضب بيدي وظللت أضغط على زر الإغلاق وأنا أسب وألعن في الوقت الذي اشتريته به، ولكن مازال صوت الهاتف يعمل أيضًا.. نظرت إلى الهاتف بيدي وأنا مغتاظ ماذا به؟ هل به عطب؟ ظللت أضغط وأضغط بضيق على زر الإغلاق ولكن لم يتوقف الصوت.. انتابتني نوبة غضب جعلتني ألقي الهاتف أرضًا وأنا أسب أباه وأخاه والقبيلة التي تؤويه.. وعلى الرغم من ذلك ظل الهاتف يصدر رنينه المقيت حتى بعد أن ألقيت به أرضًا.. شعرت

بالاندهـاش ممَّا يحدث.. كيف يظل يعمل بعـد كل ذلك؟! إنه يتحطم إذا وضعته بجيبي بسرعة فكيف يعمل بعد أن ألقيته أرضًا بقوة؟! ظل صوت الرنين مستمرًّا وهنا لاحظت شيئًا مهمًّا.. أن هذا الصوت ليس صـادرًا من الأرض ولكنـه يصدر من جانب المنضـدة بجواري، وهنا نظـرت بجانب عيني ببطء لأجد أن هاتفي على المنضدة مسـتمر برنينه المزعـج لم أصـدق عيني.. هـل مازلت نائـمًا أم ماذا؟ سـحبت الهاتف سريعًـا من عـلى المنضدة وحملتـه بين يـدي فوجدته يصـدر رنينه وهو يهتـز بقوة بيـدي.. نظرت غير مصـدق إلى الأرض لأجد هاتفي ملقًى عـلى الأرض بعيدًا.. ألقيت الهاتف مـن يدي وقفزت من على سريري مرتاعًـا.. اللعنـة! ماذا يحـدث؟! أخذت أفـرك عينيَّ بقـوة أحاول أن أستشـعر أني قد اسـتيقظت وبكامل قـواي العقليـة.. وبالفعل أنا يقظ للغاية وها أنا أشـاهد هاتفي يرن على السرير وآخر ملقى على الأرض بجانـب السرير.. حملت هاتفي مـترددًا وذهبت للهاتف الآخر وحملته بين يديَّ هو الآخر ولكن هنا لاحظت الفرق.. أن الهاتف الذي ألقيته يشـبه هاتفي بالفعـل بالضبط ولكنـه لا يعمل بـه أي شيء.. وخفيف الوزن للغاية هو أشـبه بنسـخة لعبة من هاتفي.. شعرت بالحيرة.. من أين أتى هذا الهاتف؟! هل دلف شخص إلى شقتي وأنا نائم ليضع هذا الهاتـف بجواري؟ ولكن لماذا سـيتحمل هذا العنـاء فقط لكي يجعلني هكـذا؟! شـعرت بالقلـق يجتاحني أن ما حـدث مع الـورود بالمغرب يحـدث معـي مـن جديد ولكـن بمنـزلي بالقاهـرة.. ماذا يحـدث بحق الجحيـم؟! أخذت أدقق بالهاتف الآخر وأنا مرتاب ووجدت به بعض الاختلافـات الطفيفة عـن هاتفي ولكنه نفس الحجم والشـكل تقريبًا

ولكن الوزن مختلف تمامًا.. تنهدت وأنا متحير ماذا يحدث؟ ماذا يحدث معـي؟ وهنا حـدث شيء قد أثار هلعـي حينها بشـدة.. الهاتف اللعبة الذي كان بيدي بدأ يختفي ويتلاشى من أمامي.. فنفضت يدي بخوف وتسـلقت السرير مرتاعًا وأنا أكاد أجن.. لقد اختفى الهاتف الثاني بين يدي كأنه لم يكن.. توقف الزمن حولي ولم أشعر بنفسي نهائيًّا إلا بعدما وجدت هاتفي يرن مرة أخرى فقفزت فزعًا وأنا أنظر إليه مترددًا ولكن لمحت اسـم أحد المسـاعدين الذين يعملون برفقتي.. فقمت بالرد على المكالمـة وأنا مرتـاب ومتوقع أن يختفي الهاتف بين يدي مرة ثاينة ولكن لحسن الحظ لم يحدث ذلك.. لقد أرادوا الاطمئنان علي بعد أن تأخرت عـن العمل فيبدو أني قد غبـت عن وعيي وأنا يقظ لمدة تقارب الثلاث ساعات وهذا عيب كبير من عيوب التدريب على التركيز، فحين تركز بشيء لا تنشـغل بـأي شيء آخر عنه.. تصنعت المـرض وأخبرتهم بأني لـن أحضر اليـوم إلى العمل، وهكذا أصبح لدي اليـوم بأكمله لأتفكر بحادث هذا الصباح.. تناولت الطعام سريعًا وأنا أشعر بأني قد أصبت بالجنون.. بالتأكيد ما الذي يحدث معي؟ لماذا أرى بعض الأشياء مرتين ولا أتخيلهـا فقـط ولكنـي أراها رؤية العـين، والأكثر من ذلك ألمسـها وأشـعر بها وبوزنها.. إن هذا الأمر لا يمكن أن يكون مجرد خيال أبدًا، إنه حقيقي بنسـبة كبيرة ولكن كيف تختفـي هكذا؟ ولماذا وكيف تظهر من البداية؟ وهنا لجأت إلى صديقي الوحيد الذي لا أخجل منه بسؤالي عن أي شيء.. ألا وهو الإنترنت.. الذي خضت بحره لعدة سـاعات ولكن لم أهتدِ إلى ضالتي قط.. تركت الحاسـوب وجلسـت مسـترخيًا عـلى المقعد أفكر قليلًا بأحد التدريبات التي تمرنت عليها للذاكرة وهو

تدريب التذكر العكسي، ويتم استخدامه حين أريد أن أتذكر شيئًا فعلته بالماضي فأسترجع كل التفاصيل التي سبقت فعلي لما أبحث عنه، وجلست أتذكر ما حدث معي بصباح اليوم وما حدث معي بالمغرب في السابق، وهنا لاحظت شيئًا واحدًا مشتركًا بين هذين الحادثين.. إنها مذكرات مدحت فراج.. حينما اقرؤها يحدث معي ذلك ولكن لماذا؟ لا أعلم.. هنا شعرت بالفضول يكاد يمزق عقلي فأخذت بعض المذكرات من فوق المنضدة فسقط شيء وأنا أحمل المذكرة فنظرت إليه سريعًا فوجدتها الصخرة البيضاء الصغيرة.. فقمت بالتقاطها بيدي وأخذت أداعبها بأناملي.. وتذكرت كتابات مدحت عن الصخرة البيضاء وعن (ك.م) ولكن أيعقل أنه كان يتحدث عن تلك الصخرة؟ هل تلك الصخرة الصغيرة التي كانت ضالته هو وصديقه يونس المهدي؟ أخذتها وأنا عاقد العزم على كشف اللغز الذي خلفها ولماذا ذهب هؤلاء الأشخاص إلى أقاصي الصحراء للبحث عنها.. كنت أشعر بسخف ما أفكر به وأنا أرتدي ملابسي وأتجه إلى سيارتي مغادرًا وأنا أعتقد أنها -بنسبة كبيرة- حجر كريم مثل الزبرجد والياقوت والأشياء الغريبة تلك التي أسمع عنها دائمًا، فتوجهت إلى أحد معارفي الذي يمتلك سلسلة محلات للذهب والمشغولات الثمينة وقابلني الرجل بترحاب شديد وبعد الكثير من المشروبات والمجاملات أعطيته الصخرة لكي يعاينها ويخبرني ما نوعها.. ولقد كان الرجل متحمسًا للغاية ولكن عندما أعطيتها له نظر لي مندهشًا وهو يبتسم: «أتمزح معي أم ماذا؟! ما هذا؟»..

شعرت بالإحراج الشديد وأنا آخذ منه الحجر مرة أخرى: «هل هو حجر عادي وليس حجرًا كريمًا؟»..

أعطاه لي ساخرًا: «إن الحصى الذي بالرمال يبدو أكثر قيمة منه.. ما الذي جعلك تعتقد أنه حجر كريم من الأساس؟ هل خدعك شخص ما وأخبرك أنه حجر كريم؟ لو حدث ذلك فأنت تم النصب عليك يا صديقي بالتأكيد».. وضعت الحجر بجيبي سريعًا وظللت جالسًا معه لمدة خمس دقائق أخرى أستمع إلى جميع النكات الغبية التي كان يطلقها علي بأني قد اشتريت العتبة الخضراء والترام وتمثال أبي الهول وهرم منكاورع.. تحملت تعليقاته السخيفة تلك بضيق واستأذنت منصرفًا وأنا أنوي أن أقطع علاقتي بذلك التاجر إلى الأبد؛ لأنه سيحول هذا الموقف إلى علكة بلسانه يتندر بها لجميع من سيراه بالأعوام المقبلة لأنه كان يفعل ذلك مع بعض الأشخاص أمامي من قبل.. كنت عائدًا إلى منزلي وأنا في نيتي أن ألقي بجميع تلك الأشياء بعيدًا عني بأي مكان آخر وأعود إلى حياتي الطبيعية حتى لا أصاب بالجنون.. وهنا فوجئت بموكب مار لأحد الشخصيات المهمة وتم إغلاق الطريق بالكامل أمامنا حتى يمر سيادته بسرعة من بين جموع البشر العاديين الذين يؤرق سيادته أن يمر بوسطهم.. نظرت إلى الموقف متأففًا وقمت بتشغيل المذياع الذي ظل يردد الأغنية الجديدة للمطرب الشهير حسن بلولة حتى جعلوني أمقته وأمقت وقت أن امتهن الغناء، وجاءت الوصلات الإعلانية الطويلة لتكمل على ما تبقى من صبري، ولكي يكتمل الموقف تمامًا أخذ أحد الصبية الذي يمتهن مواقف الإشارات مقرًّا له يدق بإلحاح شديد متدرب عليه منذ خشونة أظافره

لكـي يجعل الهدف الذي أمامه لا يجد له إلا حلًّا من اثنين: إما أن يقتله أو أن يعطيه أموالًا وليس أمامك حل ثالث سوى هذين لكي تتخلص منـه، وأنا على اعتيـاد بتلك المواقف السـخيفة اليومية، لهذا كنت أضع دائمًا بعض النقود المعدنية أمامي فوق تابلوه السيارة ولكن لسوء حظي اليـوم لم أجد.. ظللـت أقلب بضيق بملابسي والطفل يسـارع ضرباته على زجاج السـيارة والابتهالات الدينية التي تخـرج من فمه لتدخلني الجنـة تلاحقني مثـل الرصاص، وأخذت دعواتـه تتصاعد مع طرقاته لكي تجعلني أسرع الوتيرة قليلًا ليتركني ويلحق زبونًا آخر بجواري.. أخـذت أنفخ الهواء من داخل صدري بقـوة وأنا أتلمس جميع مواضع نقـودي لأجدهـا جميعًا أمـوالًا صحيحة مـن فئة الخمسـين جنيها وفما فـوق.. نظرت إلى الطفل بجواري باسـتعطاف وأنـا أتمنى أن يتغاضى عنـي تلك المرة: «للأسـف ليس لـدي أموال فكة الآن.. المـرة القادمة سـوف أعطيـك».. كنـت أتمنـى أن يتكـرم ويتركنـي هذه المـرة ولكن هيهات أن يحدث هذا فزادت الطرقات والدعوات وشملت أمي وأبي وابـن عم جد خال من أتوا بي إلى تلـك الدنيا.. تأففت للمرة المائة بعد الخمسـين على التوالي وفكرت جديًّا بترك السـيارة لـه والذهاب بعيدًا حتى يتركني، ولكني خشيت أن أكون بذلك لقمة سائغة له أكثر فيقوم بمطـاردتي ركضًا هـو وعصبته المنتـشرة بين باقي السـيارات فصرفت نظـري عن تلك الفكرة بالحـال وأومأت له برأسي متأسـفًا: «صدقني ليـس معي نقود فكة لأعطيها لـك».. لم يقتنع الصبي وأخذ يربت على صـدره بيـده وهو يترجاني: «والنبـي يا بيه.. أعطني نقـودًا.. لم آكل أنا وأختي الصغيرة منذ أمس والنبي أعطنا نقودًا لنأكل»..

هنا هز حديثه قلبي بشـدة.. أنا أعلم بالتأكيد بأنه يحفظ هذه الجمل عـن ظهـر قلب ويخبر بهـا الجميع ولكـن لا أسـتطيع أن أخفي تلمسي بعـض الحقيقة خلف تلـك الكلمات.. فأنا علمت مـن بعض تحقيقاتي الصحفية حول مهنة الشحاذة أنهم بالفعل يجعلون الأطفال لا يأكلون لعـدة أيام حتـى يصبح حديثهم مقنعًـا للزبائن، وهذا أقـل من القليل الذي اكتشفته بالكوارث التي تلحق بهؤلاء الصبية، وهممت أن أعطيه مبلغًا كبيرًا ولكني كنت أعلم بأنه في النهاية لن يستفيد الصبي من تلك الأموال بشيء وسوف يأخذها منه الشخص البلطجي الذي يقوم على تشغيلهم بتلك المنطقة، وبالتالي لن يستفيد الصبي بشيء وأنا لن إستفيد إلا ضياع أموالي إلى يد بلطجي ليشتري بها بعض المخدرات.. فتنهدت وأخذت أبحث بملابسي للمرة الثالثة على التوالي وأنا أعلم أني لا أحمل نقـودًا فكـة لأني أضعهـا دائـمًا عـلى تابلوه السـيارة.. وأخـذت أعبث بملابـسي غاضبًا وأنا أحدث نفـسي بضيق: اللعنـة!! أين ذهبت تلك النقود؟ وتمنيت من كل قلبي أن أجدها بمكانها.. وهنا شاهدت أغرب شيء بحيـاتي.. احمـم.. أقصد كان أغرب شيء شـاهدته بحياتي حتى تلك اللحظـة بالطبع.. لقد ظهرت أمامي عـلى التابلوه نقود معدنية.. بالضبـط أربعـة جنيهـات فضيـة.. ظهرت هكـذا من العـدم أمامي.. أخـذت أنظـر إليهـا مصدومًـا مشـدوهًا.. وأنا أشـعر بالدمـاء تتدفق باندفاع خرطوم سـيارات الإطفاء إلى رأسي.. لماذا؟ لماذا أهلوس الآن وبهـذا الوقـت؟ وهنـا تصاعدت طرقـات الصبـي على الزجـاج أكثر فأكثـر.. فصرخت عليه غاضبًـا: «لقد أخبرتك بأني ليـس معي فكة.. اذهـب من هنـا الآن هيا».. ولكنه أخذ يربت على صدره وهو يدعو لي

بجميع ابتهالات العالم.. وأشار بإصبعه جهة تابلوه السيارة وسألني مترجيًا: «النقود أمامك يا بيه.. أعطني بالله عليك لم آكل أنا وأختي منذ الأمس.. أريد أن أشتري لها الإفطار».. وهنا نظرت إلى حيث أشار فوجدته يتحدث عن النقود المعدنية التي ظهرت أمامي.. ماذا؟ هل يعقل أنه يرى الهلاوس التي أراها أنا أيضًا؟ صدمني هذا الأمر بشدة.. فسألته في الحال: «هل تستطيع روية تلك النقود؟».. ولكنه لم يجبني سوى بالرد الآلي الذي حفظه: «أعطني نقودًا يا بيه لم آكل أنا وأختي منذ الأمس.. أريد أن أحضر لها الإفطار».. هنا لم أستطع أن أفكر بماذا أفعل.. لقد ظهرت النقود كما طلبت والطفل يبدو عليه أنه رآها.. ماذا أفعل الآن؟ وجدت يدي وبدون إدراك مني تمتد إلى الجنيهات الفضية وتجمعها بقبضة يدي وصوت اصطدام العملات المعدنية يرن بأذني، ثم فتحت زجاج نافذتي ومددت يدي بالجنيهات ووضعتها بيد الطفل الذي شعر بالفرح الشديد وأخذ يدعو لي ببعض الأدعية الجديدة التي لم أسمعها منه من قبل.. بعد أن أعطيته النقود شعرت بخطأ ما فعلته.. كيف أعطيه تلك الأموال هكذا.. إن العملات المعدنية هذه لا يجب أن يتم التفريط بها يجب أن أدرسها جيدًا وأعلم كيف لهلوسة أراها هكذا بمفردي أن تصبح شيئًا ملموسًا لشخص غيري؟ فأمسكت الطفل بقوة من يده قبل أن ينصرف مسرعًا.. فشعر الطفل بالذعر وسألني بخوف: «ماذا تريد يا بيه؟».. طمأنته بالحال ووضعت يدي بجيبي: «لا تخف.. سوف آخذ منك تلك النقود وأعطيك بدلًا منها خمسين جنيهًا».. هنا قام الطفل بسحب يده بعنف وأخذ ينظر إلي غاضبًا: «إنك تريد أن تخدعني.. سوف تأخذ

منـي النقود مرة أخرى.. يالك من بخيل ابن....! وأخذ يسـبني بأمي وهو يركض مبتعدًا عني بين السيارات.. رد فعله هذا أضحكني بشدة وأخـذت أصرخ عليـه وأنـا ألـوح لـه بالخمسـين جنيهًا بيـدي ولكنه لم يولني أي اهتمام فيبدو عليه أنه كان مقتنعًا بالفعل بأني بخيل وسوف آخـذ منـه النقود مـرة أخرى.. غرابـة الموقف جعلتنـي أضحك بدون وعـي لوقـت طويـل لا أعلم بـماذا أفكر أو بماذا أشـعر فقـط أضحك وأضحـك.. وهنا لحسـن الحظ انتهي الموكـب من الذهـاب بعيدًا عنا نحن الأوغاد العاديين وسـمحوا لنا بالمضي قدمًا أخيرًا فأخذت أنطلق بسـيارتي وأنا لا أدري ماذا أفعل ولا أدري كيف كنت أقود.. لم أشـعر بنفسي إلا وأنا بمكان هادئ للغاية لا يوجد به سـوى بعض السيارات وبعض الأحبة بداخلها يتناولون أطراف الحديث.. احمممم.. الحديث فقـط بالطبع.. بعد أن توقفت أخذت أفكـر كثيرًا بما حدث وكيف أني قد هلوست مرة أخرى ولكن هذه المرة هناك من رأى تلك الهلوسات وتلمسـها بيـده مثـلي.. ماذا يحدث معـي؟ ولماذا يحـدث معي؟ ظللت أسترجع جميع الحوادث التي حدثت معي بالمغرب ثم بمصر حتى هذا اليـوم لم أجـد رابطًـا واحدًا بينها أبـدًا إلا أن قـراءتي مذكرات مدحت فراج كانت العامل المشـترك بتلك الحوادث دائمًا.. ولكن هذا اليوم أنا لم أقرأ مذكرات مدحت فراج نهائيًا أو على الأقل لم أقرأها حينما ظهرت العمـلات المعدنيـة أمامي.. أيمكن أنها ليسـت المذكـرات ولكنها.... وضعت يدي بجيبي وأخرجتها سريعًا وأخذت أنظر إليها مندهشًـا.. أيعقـل أنهـا تلك الصخرة الصغيرة؟ هل هي التـي تفعل ذلك؟ ولكن كيف؟ كيف لصخرة أن تفعل مثل تلك الأشـياء؟! ولكن عندما أربط

جميع الأحداث ببعضها يبدو أن تلك الصخرة هي التي كانت غاية مدحت ويونس؛ لأنها بالفعل ليست من أنواع الأحجار الكريمة.. إذًا لا يوجد أي شيء منطقي يجعلهما يسعيان خلفها إلا ذلك، ولكن.. كيف تعمل؟ ظللت أفكر وأنا أشعر بالسخف من تفكيري.. لا يعقل أبدًا أن تكون صخرة ضئيلة مثل تلك تمتلك مثل هذه القوى أبدًا.. وهل هي التي تجعلني أرى تلك الهلاوس من البداية؟ لم أفكر كثيرًا.. قررت أن أقوم بتجربة عملية الآن.. سوف أقوم بتخيل الوردة الحمراء مثلما كنت أفعل ولكن تلك المرة بيدي اليسرى.. أخذت أتلفت حولي متوترًا من أن يشاهدني أحد ولكن لم أجد أحدًا يعبأ بوجودي من الأساس.. كله كان منشغلًا.. احممم بتناول أطراف الحديث.. أغلقت عينيَّ وأخذت أركز على تنفسي وأنا أستخدمه ببطء، وبعد عدة مرات نجحت في التحكم بمعدل تنفسي، وبهذا انخفضت دقات قلبي المتوترة وعادت إلى معدلاتها العادية، وبدأت بالاسترخاء، وهنا أخذت أباشر بتخيلي الوردة الحمراء بجميع تفاصيلها ولكن بيدي اليسرى تلك المرة لا أدري كم استغرقت من وقت ولكن شعرت فجأة بشيء دافئ يباعد بين إصبعي الإبهام والسبابة ففتحت عينيَّ بقلق ولكم كانت دهشتي عندما وجدت الوردة الحمراء بيدي.. شعرت بالفزع وألقيتها من يدي بخوف وأنا أصرخ: إنها حقيقة.. إنها حقيقة.. لك أن تتخيل أن كل ما يحدث معك بالسابق كان بالمصادفة ولكن عندما تفعله بإرادتك فهذا شعور آخر لن أستطيع شرحه لك بكلمات أبدًا.. أخذت أهدئ نفسي وأنا أنظر إلى الوردة بالأرض أسفل مني وبالصخرة التي وضعتها على التابلوه أمامي.. إن ما يحدث الآن ضرب

من المستحيل بالفعل.. هل أهلوس أم أن الوردة ظهرت بين أصابع يدي اليسري كما تخيلت بالضبط؟! أمسكت بالوردة وأخذت أنظر إليها باندهاش وهنا قررت أن أقطع الشك باليقين.. سوف أفعلها مرة أخرى ولكن بيدي اليمنى.. وبالفعل قمت بنفس التدريب مع التخيل أن الوردة بيدي اليمنى.. وهنا كانت المفاجأة كبيرة عندما نجحت تجربتي وأصبح لدي وردتان بالفعل.. وهنا اكتشفت أنه يمكن الجمع بين أكثر من شيء تخيلته بنفس الوقت ولا يختفي ما تخيلته أولًا عند ظهور الشيء الجديد الذي تخيلته.. قمت بنفس التدريب ولكن غيرت لون الوردة الحمراء وجعلتها زرقاء ولكم كانت دهشتي عندما حملتها بين يدي وردة زرقاء! تخيلت صفراء وخضراء وبنفسجية.. وإذا بجميعها بين يدي.. تخيلت وردتين بيدي الاثنتين بنفس الوقت ولكن لم تظهرا معًا.. أخذت أتدرب على فعلها لوقت طويل وبالنهاية فعلتها وردتين واحدة حمراء والأخرى صفراء بكلتا يديَّ.. بعد حصيلة ثلاث ساعات تخيلت 14 وردة اختفى منها 8 وردات.. لاحظت أن الورود التي تخيلتها أولًا تختفي أولًا قبل التي تخيلتها حديثا.. إذًا هناك وقت محدد لظهور تلك الأشياء واختفائها.. ولكني لم أعلم كم هذا الوقت بعد.. شعرت بالإرهاق والعرق يغطي جميع ملابسي ولكن شعرت بالفرح الشديد أيضًا.. مهما كنت تشعر بسعادة فلا تقارن بشيء قد تخيلته برأسك وأصبح واقعًا بين يديك هذه هي المتعة المطلقة.. بدأت أشعة الشمس تختفي متسللة منسحبة للظلام ليحل مكانها.. وتنبهت أني مازلت بالشارع، وهذا أمر خطير، وخفت على كنزي الجديد أن يقع بيد أحد آخر فقبضت على الصخرة بخوف كما أقبض على روحي

تمامًا وأخاف أن تنسل من جسدي.. وضعتها بجيبي جهة قلبي وقفلت عائـدًا إلى المنزل.. وعندمـا وصلت لم أقم بفعل أي شيء نهائيًّا إلا تخيل الـورد وبأشـكال وأحجـام مختلفـة، وكانـت بعـض محاولاتي فاشـلة ومعظمهـا ناجحـة.. والفاشـلة كانت بسـبب أني لم أقـم بتخيل بعض الورود بشـكل صحيح لأني لم أحملها بيـدي وأطلع عليها جيدًا.. وهنا اكتشـفت شرطًا جديدًا أنه يجب أن يكون ما تخيلته شـيئًا أحفظه بعقلي جيـدًا ولا أسـتطيع صنـع شيء لم أره أو أتحكـم بتفاصيلـه جيـدًا.. واكتشـفت شيئًا ثانيًا هو أن هناك بالفعل وقتًا معينًا لتلك الأشياء التي تظهـر يـتراوح ما بين 8 دقائـق إلى 13 دقيقة.. لا أعلـم بعد لماذا تختلف الأوقات بينها، ولكني في النهاية سوف أعلم.. لاحظت أيضًا اختلاف الأحجـام والأوزان.. عندما قمت بتخيل العملات المعدنية من جديد فكانت أوزانها مختلفة كثيرًا عن وزن العملات الحقيقية.. وأشياء كثيرة مختلفـة عن الأشـياء الأصلية.. تغيبت عن العمل لخمسـة أيـام متتالية قمـت خلالها بتجربـة جميع ما يـأتي بعقلك من تخيـلات وأخذت أقرأ مذكـرات مدحت فـراج حرفًا حرفًا ولكـن لم أخرج بالكثـير ممَّا قرأته سـابقًا ولكن زاد فضولي بشـدة عن المدعـو (ك.م) وأنه أعطى لمدحت الصخرة.. وهنا شعرت بالحيرة ففي بداية مذكرات مدحت فراج كان يتحدث قبل ظهور (ك.م) أنهم أتوا من أجل صخرة وأنها كانت سـببًا في عثوره على بركة المياه عندما حاول إزاحتها؛ فهذا يدل على أنها كبيرة الحجـم.. وبعد ذلك في المذكرات التالية كتب أن (ك.م) أعطاه صخرة ولقد أسـعدته كثيرًا.. ماذا يعني هذا؟ هـل يعني أن هناك صخرتين أم مـاذا؟ أو أن هنـاك صخرة واحدة ويبدو أن مدحت فراج قد فقد عقله

واختلق (ك.م) هذا من رأسه نظرًا لمكوثه وحيدًا؟ شعرت بأن رأسي سينفجر؛ فهناك أشياء كثيرة تبدو حدثت لو كنت أعلمها لكانت حياتي الآن اختلفت بالتأكيد.. اللعنة على مدحت فراج!! لماذا لا يحسن خطه إذا كان يكتب لأناس غيره؟ أخذت أضحك على نفسي وأنا ألوم شخصًا قد مات منذ ما يقارب العقدين من الزمان.. لا يهم ما حدث بالماضي.. ما يهم الآن هو تلك الصخرة التي أحملها بين يديَّ الآن.. إذا لم أكتشف تاريخها فسوف أصنع لها تاريخًا.. وهنا بدأت تجاربي على تلك الصخرة تتجه إلى مرحلة جديدة.. لقد أصبحت قادرًا الآن بعد أسبوع واحد فقط أن أصنع أي شيء أتخيله بتلك الصخرة، ولم تكن كلها بالطبع تجارب ناجحة فالطعام؛ مثلًا لا تستطيع أكله لأنه يشبه الشيء البلاستيكي.. وأيضًا النقود لم أنجح بجعلها ورقية دائمًا حيث تصبح صلبة وجامدة ولا أستطيع تخيل جميع تفاصيل الرسوم التي بها.. المخلوقات التي بها روح لم أستطع أن أصنع شيئًا منها أبدًا.. كانت دائمًا ما تتجسد على شكلها ولكنها كانت تبدو كالتماثيل تمامًا.. وأشياء أخرى كثيرة سيطول شرحها الآن.. ولكن الخلاصة أنني استطعت تخيل أشياء كثيرة وكنت راضيًا عنها أشد الرضا.. وهنا قررت أن أجرب تلك الأشياء التي أتخيلها على أناس آخرون غيري.. كنت أخاف بشدة أن أتخذ تلك الخطوة حتى لا يعتقد أحد بأني مجنون وأرى أشياء غير موجودة، ولكن تجربة الطفل المتشرد بالسابق جعلتني أطمئن قليلًا.. وقررت أن أقوم بأولى تجاربي على البشر.. صنعت بالصخرة وردة حمراء وبعض النقود المعدنية التي احترفت صنعها وأصبحت سهلة جدًّا بالنسبة لي، وقررت أن أتجه إلى أقرب كشك لبيع

السجائر وأجرب تلك الأشياء التي صنعتها.. فذهبت إلى كشك صغير بعيد عني وأنا متردد وقلبي يدق بشدة فهذا هو اليوم الموعود إما أن يكون كل ما حدث بالنسبة لي بتلك الفترة السابقة أوهامًا اختلقتها برأسي وإما أن يكون قد فتحت لي أبواب السماء بامتلاكي تلك الصخرة التي تصنع الأعاجيب.. ذهبت إلى العجوز الذي يقف بكشك السجائر وطلبت منه بعض الحاجيات وأعطيته ورقة نقدية من فئة المائة جنيه فأعطاني مشترياتي وقدم لي باقي النقود وأعطاني معها بعض العملات المعدنية فأخذتها على الفور ووضعتها بجيبي ثم أخرجت وردة حمراء كنت قد صنعتها من قبل وأعطيتها للعجوز وأنا أبتسم: «تفضل يا سيدي.. هذه لك»..

نظر إلي العجوز نظرة غريبة.. مازلت أتذكر نظراته تلك حتى الآن.. نظرات مستنكرة غاضبة فسألته متوترًا: «ماذا هنالك يا سيدي؟ هل لا تعجبك الورود؟».. تحدث إلي بنبرة غاضبة: « ورود؟ هل أنت مجنون يا بني؟ أين تلك الورود؟».. أمسكت الوردة بيدي وأنا مندهش وأجبته سريعًا: «تلك الوردة التي أعطيها لك بيدي.. هل لا تراها؟».. أجابني بضيق: «اللهم أغنني عن تلك الشغلة يا الله.. أنا لا أرى شيئًا.. ماذا تريد يا أخي؟ لا تضيع وقتي معك.. هل تريد شيئًا أم لا؟ إذا لم ترد شيئًا فاذهب إلى حال سبيلك يهديك الله»..

شعرت بالقلق الشديد من حديث الرجل ولم أفهم رد فعله.. هل يستنكر أني أعطيه وردة أم أنه لا يراها من الأساس؟».. فصاح بي بالحال صيحة أصابتني بالفزع: «أتريد شيئًا أم لا؟ لا تقف هكذا طويلًا».. شعرت بالإحراج الشديد فوضعت الوردة بجيبي وأخذت

بعض الحاجيات من أمامي وأنا أشعر بالعرق يغزوني وقدماي تتراقصان أسفل مني خوفًا من ذلك العجوز القحف.. فقررت أن أشتري منه أي شيء آخر درءًا للإحراج الذي أشعر به الآن فوضعت يدي بجيبي لأخرج بعض الأموال ولكني تذكرت العملات المعدنية التي صنعتها بالسابق فسحبت يدي من جيبي وأخذت حفنة من تلك العملات المعدنية ومددت بها يدي جهة العجوز وأنا متردد خوفًا من ألا يراها هي أيضًا ويصيبني بوابل كلماته اللاذعة ولكن سبق السيف العذل ومد العجوز يده إلي فوضعت العملات المعدنية بيده وهنا أخذها ونظر بها وهي ملء كف يده ثم نظر إلي نظره مخيفة جعلتني أذوب بمكاني وتمنيت أن تنشق الأرض وتبلعني بالحال.. فصرخ بي بحدة شديدة وبنظرات نارية: «ما هذا يا أستاذ؟ النقود تنقص ثلاثة جنيهات»..

هنا ردت إلي الروح بعد أن فارقت جسدي تقريبًا.. يبدو أن النقود ليست كافية فقط ولكنه يراها وبوضوح.. فأخرجت ثلاثة جنيهات وأعطيتها له وأنا فرح.. قام بالتدقيق بهم للحظات ثم وضعها جميعًا بدرج صغير بمحله ورمقني بنظرة تقزز شديدة.. أخذت أضحك وهممت بالانصراف ولكن فضولي اللعين جعلني أعود إليه مرة أخرى فنظر لي نظرة مريض الجذام: «اللهم طولك يا روح.. ماذا تريد مرة أخرى؟»..

ابتسمت له وسألته بالحال: «سؤال واحد وسأنصرف.. هل شعرت بالضيق من أني أعطيك وردة أم أنك لم تر الوردة من الأصل؟»..

أجابنـي وهـو يتأفف: «لا.. لم أرَ شـيئًا.. لا وردًا ولا فجلًا حتى.. هل شعرت بالارتياح الآن؟ اذهب إلى حال سبيلك هيا»..

.. انصرفـت مغـادرًا وأنـا أشـعر بالرضا وأنـا أفكر بنتائـج تجربتي ولكـن صـوت العجـوز خلفـي وهو يسـبني وينعتنـي بأني مـن زمرة الخواجات جعلني أذهب إلى سـيارتي مطأطئ الـرأس خجلًا.. عدت إلى سيارتي وأنا راض بتجربتي التي كانت غريبة بالفعل فالعجوز لم يرَ الوردة الحمراء ولكنه رأى النقود ولا أعلم لماذا لكن قد ظهرت برأسي تلميحـة هكـذا جعلتني أنطلق مسرعًا إلى أقـرب كورنيش للنيل أجده وهنا ذهبت إلى صفوف الشباب والفتيات وأخرجت من سيارتي ثلاث وردات حمـراء وأخذت أتحرك مسرعًـا جهة الفتيات هناك وأعطي لهن الـورود التي معي.. منهن من أبت ومنهن مـن أخذت الورود ومنهن تـرددت ثم أخذتها بعد ذلـك.. انتهت التجربة بمطـاردة باعة الورود الجائلـين لي ظنًّـا منهـم أني منافس جديـد اقتحم مكان عملهـم.. بعد شرائـي لبعـض الـورود منهم وإعطائهـم بعض المال قامـوا بتركي إلى حال سـبيلي.. لقـد كلفتني تلك التجارب الكثير مـن الأموال والكثير والكثير من كرامتي التي تبعثرت بكل مكان ولكن كنت سعيدًا بانتهاء كل تجربة لأني علمـت معلومة جديدة عن طبيعة عمل تلك الصخرة، ومنها أنه كلما رأى الشـخص المستهدف شـيئًا معتادًا عليه أصبح تقبله لوجـود ما تخيلتـه واقعًا أمامـه.. أكثر فنظـرًا لعدم اسـتخدام العجوز للورود كان من الصعب له أن يتقبل شـيئًا مثل هذا لا يتعامل معه أبدًا

ولكـن مـع النقود كان تقبله لها أمرًا طبيعيًّـا؛ لأنه يتعامل مع هذا الأمر بشكل يومي.. وبالنسـبة للفتيات فجميعهن رأين الورود حتى هؤلاء ممن لم يتقبلنها مني ورفضنها بعد أن رأينها بيدي وهذا يرجع إلى طبيعة الفتيات الرومانسـية وتكوين صورة ذهنية لهـن عن تقديم الورود لهن وأنهـا رمـز للحب والإعجاب.. اسـتمرت تجـاربي الكثـيرة المتواصلة لمدة ثلاثة أشـهر تقريبًا استطعت خلالها فعل كل شيء وتخيل كل شيء أردت أن أتخيله.. أصبح اسـتخدام تلك الصخرة كشرب المياه بالنسبة لي أستطيع تجسيد ما أتخيل بمجرد التفكير به للحظات قليلة.. كل هذا شجعني لكي أفكر في القيام بالتجربة الذاتية..

❋ ❋ ❋

(تجربة ذاتية)

لقـد قمت كما أخبرتكـم بتجربة اختبارات كثيرة لأرى كيفية عمل تلك الصخرة وتجسيدها لتلك التخيلات التي برأسي.. ومنها ما لاحظته كـما أخبرتكـم من قبل.. وهو كلـما كان ما تخيلته اعتـاد الناس أن يروه كل يوم كان أسـهل لهم تقبله ومشاهدته بسهولة بعد ذلك.. ومن أهم الأشياء التي كانت مهمة للغاية بتجاربي أنه كلما كان عدد الناس الذين شـاهدوا تجسيدات الصخرة بالواقع كبيرًا كانت تجسيداتها أكثر واقعية ويزيد وقت بقائها وعدم اختفائها، ومررت بتجربة مهمة لإثبات ذلك حيث قمت بصنع شـخصية كارتونية مشهورة وأعطيتها هدية لروضة أطفـال قاموا بتعليقها على الحائط والغريب أنها مازالت موجودة حتى الآن ولم تختـف.. هل شـعرتم بمـدى القوة التي كنت أمتلكها بسـبب تلـك الصخـرة الصغيرة؟ لقد جعلـت لي القدرة على تجسـيد أحلامي وأفكاري واقعًا فعليًّا.. لقد قمت بصنع عدد كبير من الجمل والأفكار التي برأسي وأصبحت أشـياء حولي موجودة بغرفة المعيشة.. لقد كنت ممنونًـا للقدر الذي جعـل مدحت فراج بمذكراتـه وصخرته وحكايته تقع بين يدي، وكنت أشـعر بالاندهاش الشديد بتفريط عائشة المهدي وعائلتهـا بذلـك الكنز الثمـين.. لقد اتصلت بي بعد اكتشـافي سر هذه الصخرة بأسـبوعين لتسـألني عـما فعلته بحاجيات مدحـت وأخبرتها

أني أرسلتها إلى عائلته وأنهم يشكرونها للغاية ويريدونها أن تأتي إليهم لتزورهم قريبًا.. وبالطبع هي اعتذرت بشكل لطيف وأنا متأكد بأنها تناست مدحت بعائلته بحاجياته بكل شيء يخصهم بعد تلك المكالمة، وهذا كان من حسن حظي بالطبع.. أما الضابط معرفتي فلم أقم بالاتصال به بعد ذلك أبدًا حتى لا يعلم أحد بأي شكل من الأشكال عن امتلاكي لهذه الصخرة ويحاول سلبي كنزي؛ ولهذا قمت بحرق جميع حاجيات ومذكرات مدحت فراج حتى لا يعلم أي شخص عن ماهية هذه الصخرة أبدًا ما حييت.. لقد فكرت كثيرًا بالأشياء التي أستطيع فعلها بتلك الصخرة وكانت أفكاري وطموحاتي عظيمة بالفعل.. نويت أن أستخدمها لمصلحتي ولحل جميع المشاكل التي أراها سهلة الحل وتجعل الجميع يشعر بالسعادة، وكنت أندهش من عدم تنفيذ أحد لتلك الأمور البسيطة التي ستجعل الجميع سعيدًا ولكن لتنفيذ مخططاتي تلك كان يجب أن أقوم بالتجربة الذاتية كما أسميها..

بتلك اللحظة توقف رامي عن سرد ماضيه وأخذ ينظر للجميع بتردد وبالذات جهة سراج الذي كانت معالم الحيرة وعدم التصديق بادية على وجهه فربتت أميرة على كتفه وهي تطمئنه: «رامي.. لا تقلق.. أنا معك»..

.. كان يعتلي عصام الفضول الشديد وسئم من توقفه عن سرد ما حدث معه.. فاستحثه سريعًا: «أخبرنا هيا.. ما هي تلك التجربة الذاتية؟»..

نظـر رامـي إلى سراج الـذي كانـت علامـات الدهشـة والذهـول مسـتمرة عـلى وجهة ثم نظر جهة أمـيرة التي أخذت تومئ له برأسـها أن يكمل.. فأخذ نفسًا قويًّا وزفره ببطء ليهدئ نفسه وتابع حديثه..

«لقد قمت بالتفكير كثيرًا بتنفيذ الخطط التي كانت برأسي واقتنعت بأني أصبحت شـخصًا لا يهزم قادرًا على فعل أي شيء.. وهنا خطرت بـرأسي فكرة كانت مجنونـة للغاية ولكنها كانت تؤرقنـي كثيرًا وكانت جـزءًا لا يتجـزأ من خططي المسـتقبلية.. لقد قررت أن أقوم بتجسـيد بشر عن طريق أفكاري»..

ألمت الدهشة بالجميع وأخذ عصام الفضول الشديد وهو يضع يده على فمه متعجبًا مندهشًـا فوق الاندهاش الـذي كان يجتاحه بالفعل.. فتابع رامي حديثه لهم:

«ولكنـه كان أمرًا بغاية الصعوبة لم أسـتطع تجسـيد أي شيء.. كلها كانـت كالخيـالات.. كانت أشـياء أشـبه بالصـور الهولجرامية سرعان مـا تظهـر وسرعان مـا تختفـي.. لم أقبل بالفشـل بهذا الأمـر.. أخذت أقـرأ عن علـوم التشريح والأعضـاء البشريـة وأخذت أتعلم الرسـم بيـدي والنحـت، والفضل يعود إلى ذاكرتي التـي أصبحت قوية للغاية ووصلـت لدرجـة أني أرى الـشيء فأحفظـه مـن المـرة الأولى.. لقـد امتلكـت أعظم قدرة بشريـة من وجهة نظري.. لقـد أصبحت أمتلك ذاكرة فوتوغرافية.. مكنتني تلك الذاكرة من حفظ أي شيء في لحظات بسـيطة ولكـن الحفـظ شيء والتطبيـق شيء آخـر.. اسـتغرقت شـهرًا كامـلًا أمـارس الرسـم والنحـت وأصبحت لـدي مهـارة معقولة بهما

ولكن عندما شعرت بأني أستطيع فعل ذلك وتجسيد البشر لم أستطع فعلها أبدًا.. وهنا أخذت أفكر حائرًا لماذا لا أستطيع فعل ذلك مهما حاولت؟ وتذكرت العامل المهم من خلاصة تجاربي أنه كلما كان تقبل البشر لشيء معتادين عليه كان التجسيد ناجحًا.. وهنا اختمرت فكرة بعقلي بأن أقوم بمحاولة تجسيد شيء أعرفه كثيرًا وأعلم كل شيء حوله إلا وهو أنا.. لقد قررت أن أجسد نفسي»..

نظر له سراج مصدومًا وهو فاغر فمه لا يدري ماذا يقول، وشعر عصام بالفضول يجتاحه فأخذ يحثه على استكمال حديثه: «هيا.. هيا أخبرني.. هل استطعت فعل ذلك؟ هل نجحت؟ أخبرني بالتفاصيل المملة وكيف كنت تفكر بصناعة نفسك تلك؟»..

أخذ رامي يتحاشى النظر إلى سراج، وظل يتحدث إليهم وهو متوتر للغاية: «حسنًا.. لقد كنت أعتقد بأني أعلم نفسي جيدًا حينها ولكن اكتشفت أني حتى لا أحفظ ملامح وجهي عند محاولة رسمي له لأني لا أراه بشكل مستمر، وهذه كانت صدمة كبيرة لي.. البشر يعتقدون أنهم يعلمون أنفسهم ولكن بالفعل نحن لا نرى أنفسنا إلا نادرًا فلا ندري كيف يرانا الآخرون من خلال عيونهم.. وللتغلب على هذا الأمر فكرت بإحضار كاميرات كثيرة وتوصيلها بالمنزل ومراقبة نفسي من خلالها ولكن هداني تفكيري إلى شيء أبسط من هذا بكثير ولكنه فعال أكثر.. لقد قمت بتحويل غرفة نومي كاملة إلى مرايا كبيرة.. الأرض والسقف والحوائط جميعها مرايا حولي.. لقد استطعت أن أرى وجهي وجسدي وطولي وجميع ملامحي.. أخذت

أجلس كثيرًا عاريًا أتابع تفاصيل جسدي وعضلاتي وأشياء كثيرة جدًّا كنت أجهلها عن جسدي، وبهذه الطريقة أخذت أحسن من غذائي ومن بنية جسدي.. استمر هذا الأمر لما يقارب الشهرين.. أصبحت خلالهما مهووسًا بنفسي أشاهدها بكل صباح ومساء ومهووسًا دائمًا برؤية ملامحي حتى وأنا بالخارج بسيارتي أو بعملي كنت دائمًا ما أضع المرايا الكبيرة حولي حتى أرى نفسي باستمرار ولكن كنت أفعل ذلك وأنا أحاول إخفاءه عن الجميع، وكان هذا صعبًا للغاية.. أن تكون مهووسًا بشخص ما شيء وأن تكون مهووسًا بنفسك هو شيء آخر.. حتى لا أشق عليكم.. مع نهاية اليوم الخامس والأربعين من تجاربي على جسدي وبعد وجود المرايا حولي دائـمًا حدث أن نجحت فجأة إحدى تجاربي.. لقد ظهرتُ أمامي.. جسدي العاري ظهر على السرير أمامي كما تخيلته بالضبط.. ليس بالضبط بالطبع لأنها كانت تجربتي الأولى ولكم كنت أشعر بالغرابة الشديدة وأنا أتلمس الجسد أمامي أو بوصف أقرب شكل أقرب إلى جسدي.. إنه أنا ولكن في نفس الوقت لست أنا.. لقد نجحت بتجسيده لمدة 12 ثانية بالضبط.. تخيل تدريب شهرين تقريبًا أنتج 12 ثانية ولكن بعد أن شاهدت نجاحي ذلك لم أتوقف ليلًا أو نهارًا من حينها.. لقد أخذت إجازة طويلة من عملي وأصبحت أمارس تدريبي على تجسيدي كل لحظة من استيقاظي حتى نومي.. وهنا نجحت بظهوره بشكل مُرضٍ لي ولمدة عدة ساعات.. أخذت أمارس الكثير من التجارب على نفسي.. أقصد على جسدي الجديد هذا.. لقد قمت بشق الجسد ولكن وجدته فارغًا من الداخل ولا يوجد به دماء أو أعضاء، وهنا قمت بإضافة تفاصيل

أخـرى جديدة بتدريباتي تلك، فقمت بتخيـل تفاصيل أكثر وأكثر عن أعضاء الجسـد الداخلي أولًا والدماء وجريانها.. وبعد محاولات كثيرة كثـيرة كثـيرة للغاية فاشـلة نجحت بالفعـل بتجسـيدها.. لا أخفيكم سرًّا.. لقـد أعجبت بنفسي للغاية، لقـد أظهرت تلك الصخرة قدرات ذهنيـة لـدي لم أكن أحلم يومًا مـن الأيام بالتفكير بهـا وليس امتلاكها مثلـما أفعـل الآن.. وبالنهايـة لقـد قمت أخـيرًا بتجربـة ناجحة 100٪ لأرى جسـدي أمامـي به أدق التفاصيـل التي حـولي.. أدق التفاصيل التـي تفكر بها جميعهـا قد فعلتها والأعضـاء الداخليـة والدماء وجميع مـا تتخيل.. لقـد قمت بصناعـة.. لقـد أصبحت أرى نفسي شـخصًا عبقريًّا يسـتطيع إنتاج شـخص كامل من خلال عقلـه.. ولكن حدث شيء جعلني أشـعر بأن كل هذا كان مجرد هباء منثور.. لم أسـتطع تخيل أي شـخص أبدًا إلا نفسي فقط هي التي كنت أسـتطيع تخيلها بسهولة قليـلًا ويتجسـد أمامـي.. أمـا عندمـا أحـاول أن أصنع آخريـن فكان لا يقترب حتى من وصفه بالجسـد، ولا أعلم لماذا.. قد يكون السـبب أني لا أعلم تفاصيلهم كاملة ولم أشاهد أجسادهم كثيرًا مثلما فعلت مع نفـسي، والشيء الآخر الذي كان يشـق علي أن الجسـد كان يدوم لعدة سـاعات فقط أكثرها 12 سـاعة ثم يختفـي وأقوم بإعـادة كل شيء من الصفر مرة أخرى.. والشيء الأخير الذي أرقني بشـدة أن هذا الجسـد لا يتحرك.. لا يتنفس.. لا يفعل أي شيء.. إنه مجرد شـكل لجسد فقط مصنـوع بحرفيـة متقنة ولكن هذا شيء سـهل الآن ويتـم فعله بجميع أنحـاء العالم.. فـلا يوجد شيء مميز به إلا أني أسـتطيع صنعه من رأسي

فقـط.. ولا أعلم كيف أتحكم بتلك الآليـة أيضًا إنما هي تحدث فقط.. فأنا لا أتحكم بالصنع ولكني أتحكم بالمنتج النهائي»..

هنا قاطعة عصام مبتسـمًا: «بالطبع ماذا كنت تتوقع أكثر من ذلك؟ إنك مجرد مقلد ولكنك لست إلهًا تصنع شيئًا وتدب به الروح».

أجابـه رامي بثقة: «لا أعتقد أنك كنت سـتتقبل هذا الأمر إذا كنت بمـكاني.. لقـد كنـت أشـعر بالفعل أني أسـتطيع فعـل كل شيء.. لقد حاولـت مرارًا أن أجعل جسـدي هـذا يحرك يده.. يحـك أنفه.. يحرك شـعره من رأسـه.. ولكن لم يحدث أبـدًا مهما حاولت.. وهنا شـعرت باليـأس.. لقد كانت خططي كلهـا قائمة على تلك التجربة إذا نجحت فإني بالفعل سـوف أصبح قادرًا على فعل أي شيء.. ولكن تأتي الرياح بما لا تشـتهي السفن، حيث حدث شيء غريب بآخر تجربة فعلتها كان له أثر كبير على طريقة تفكيري بعد ذلك.. فلقد قمت بصناعة جسدي مـرة أخرى بعد تحضير لوقت طويل وصنعت جسـدًا أقل ما يقال عنه أنه مثالي.. الشـعر والعيون والأنف.. تلك التفاصيل التي تجعل الفرق بين العمـل المتقن والعمل الخارق ظاهرًا بوضـوح.. لقد فعلتها.. لقد صنعت جسـدًا خارقًا بالنسـبة لي كنـت أراه أقوى من جسـدي الحالي حتـى.. قمت بـما أفعله دائمًا معهم.. محاولة جعلهـم يتحركون، ولكن فشـلت كالعـادة، وبعد أن سـئمت قـررت التوقف اليوم وسـأحاول معـاودة الكرة بالغد بعد أن أكون قد صفيـت ذهني وحاولت التفكير بأفـكار جديدة تجعلني أنجح تلك المرة.. فجلسـت أفكر وأنا أنظر إلى الجسد لعدة ساعات وأنتظره أن يختفي ولكن جسدي لم يختفِ.. مرت

12 ساعة ولم يختفِ الجسد.. لقد شعرت بالفرح بالبداية أني استطعت زيادة معدل بقاء الجسد أكثر من المعتاد.. ولكن مرت 24 ساعة وشعرت بالفرح والسرور أيضًا.. ولكن اليوم أصبح اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة أيام.. أسبوع كامل لم يختفِ هذا الجسد.. شعرت بالغرابة مما يحدث.. لم يقم جسد صنعته من قبل بالبقاء أكثر من 12 ساعة ولكن هذا الجسد مختلف.. لقد مكث لمدة أسبوع كامل وأصبح هذا مشكلة لي.. لقد انتهت إجازتي وأصبحت مجبرًا على العودة إلى العمل.. لقد بدأت أشعر بالذعر بالفعل.. شيء رائع أن ترى جسدك أمامك لمدة عدة ساعات ولكنه يتحول إلى شيء شاذ عندما تجد نفسك بمكان آخر بمنزلك.. أذهب إلى المطبخ لأحضر طعامًا لي وأعود لأجد جسدي موجودًا بغرفة المعيشة.. لقد شعرت بالخوف ينهشني.. هذا شيء مهما شرحته لكم لن تعوا ما قد كنت أمر به يوميًّا وأنا أستيقظ من نومي لأشاهده أمامي.. أذهب إلى الحمام وأعود فأجده بغرفتي.. لقد نقلته إلى عدة أماكن بالمنزل ولكن كنت دائمًا ما أخطئ وأدخل وأشاهده أمامي.. جسدك أنت ولكنه لست أنت.. أنت تقف أمامه وهو ممدد لا يحرك ساكنًا.. لقد جعلته يشبهني تمامًا ولكن لم أكن أعلم أن نجاحي هذا سيجعلني أشعر بالخوف مما فعلته.. لقد أصبح مني اثنان الآن.. لقد كنت أخشى أحيانًا أن أنام وهو معي بنفس الغرفة.. لقد كنت أخشى أن يستيقظ ويأخذ روحي ويجعلني أنا جسدًا بلا روح بدلًا منه.. لقد استحوذ هذا الأمر علي بقوة حتى إني رأيته كثيرًا بأحلامي يستيقظ من سباته يضع يده على عنقي ويسلبني روحي وأصبح أنا جسدًا غير قادر على الحراك.. لقد ظللت

أستيقظ فزعًا من هذا الحلم لعدة أيام.. وهنا خشيت أن يندمج عقلي مع الصخرة الملعونة تلك ويصنع هذا الأمر بالفعل.. لقد كنت أخشى من قوة عقلي بهذا الوقت.. ماذا لو حدث هذا دون أن أعلم؟ فكرت بأن أصنع جسدًا جديدًا ليختفي هذا الجسد القديم، ولكن ماذا لو أن هذا الجسد لم يختفِ حينها؟ ماذا لو ظهر جسد آخر ولم يختفِ هو أيضًا وأصبح لدي بدل الجسد جسدان فكيف سأستطيع التعامل معهما حينها؟ ماذا لو اتحدا ضدي؟ ماذا لو تقاتلا على من يستحوذ على روحي؟ مواجهة شخص بالتأكيد سوف تختلف عن مواجهة شخصين.. تخيل شخصين لهما نفس تفكيرك ولهما نفس بنيتك الجسدية يتصارعن معك من ستكون له الغلبة؟ لقد اقشعر جسدي حينما كنت أفكر هكذا وأنا بعملي فصرفت نظري عن تجسيد أشخاص آخرين نهائيًّا.. وكانت دائمًا تسري القشعريرة أسفل رأسي حينما أعود إلى المنزل لأرى هذا الجسد.. ولكن كنت يجب أن أراه يوميًّا، بل كل عدة ساعات، بل وصلت إلى كل عدة دقائق.. كنت أتمنى بكل لحظة حينها أن يختفي من أمامي ولكن تبدل الأمر إلى شيء آخر بدلًا من مراقبته على أمل أن يختفي أصبحت أراقبه حتى أطمئن أنه لم يقف من مكانه ليطيح بي ويأخذ روحي.. لقد كنت أصرخ كالنساء عندما أشاهد نفسي بأي مرآة بالمنزل.. كنت أعتقد بأني أراه هو وأنه أصبح لديه روحي بالفعل ولست أنا.. حينها شعرت بأني ميت وأن ما يطوف بين الجميع الآن هي روحي.. لقد شككت بعقلي وحواسي وبكل شيء.. حطمت جميع المرايا التي بالمنزل.. وغرفتي أصبحت ركامًا وكنت لا أقترب منها أبدًا.. بمعنى أدق لقد أصبح وجود هذا الجسد شيئًا

سيجعلني مجنونًا بالفعل.. وشككت لحد اليقين بأنه لا يوجد جسد من الأساس وأني أتخيل كل تلك الأشياء برمتها منذ البداية.. وهنا أصبحت تلك الصخرة التي كنت أعتقد بأنها مصدر قوتي أصبحت مصدر جنوني وفقداني لعقلي.. لقد فكرت مرات كثيرة بأن أذهب إلى الطبيب الذي عالجني منذ البداية ولكن ماذا سأقول له؟ أني أستطيع أن أحول أفكاري إلى الواقع عن طريق صخرة بيضاء صغيرة بملمس المعدن؟ واني أخاف من جسد يعيش معي صنعته بعقلي وأخشى أن يأخذ روحي؟ هل سيعتقد لوهلة أني عاقل بالفعل؟ لم أستطع أن أحتمل أكثر من ذلك وقررت أن أتخلص من ذلك الجسد حتى لا أفقد أنا عقلي.. لكن كيف سأتخلص منه؟ هداني تفكيري إلى أن أذهب إلى منزلي القديم الذي كنت أسكن به قبل أن أعمل بالجريدة.. وأترك هذا الجسد هناك فإن اختفى بعد ذلك فسوف أكون ممتنًّا، وإن لم يختفِ فسيكون هذا سجنه الحالي حتى أفكر بشيء آخر.. أهم شيء ألا أجتمع مع هذا الجسد بمكان واحد بعد الآن.. اتخذت قراري وبالفعل حملت الجسد في سيارتي بحرص شديد مع اقتراب الفجر وانطلقت بطريقي إلى منزلي القديم محتميًا بهدوء الليل وقوة الظلام وكنت أشعر بالتوتر الشديد كلما نظرت إلى مرآة السيارة لأشاهده خلفي.. لا أخفيكم سرًّا لقد أصبحت أخشى المرايا بشدة ولكن يجب أن أتعامل مع خوفي هذا كل يوم وبكل مكان حتى لا يظن الناس أن بي خللًا ما.. طمأنت نفسي بأنه بعد عدة ساعات سأتخلص من هذا الكابوس حتى ولو كان لوقت مؤقت.. أثناء اختراقي لسكون الليل بسيارتي شاهدت ما جعلني أكاد أبلل بنطالي.. سيارة تلاحقني من الخلف تصدر عدة

أضواء معروفة باللون الأزرق والأحمر وتصدر سرينتها الشـهيرة.. كما تخيلتم بالضبط.. إنها سيارة شرطة تلاحق سيارتي.. كاد قلبي يقفز من بين ضلوعي ويشـيب شعر رأسي.. لماذا تطاردني سيارة الشرطة الآن؟ هـل علموا بالأمر؟ هل الشرطي الذي طلبت منه أن يبحث عن عائلة مدحـت فـراج توصـل إلى شيء مـا جعلهـم يطاردونـي؟ هـل وهل وهل.... مئات الأفكار تزاحمت برأسي وشلت تفكيري، لا أدري ماذا أفعل أو ماذا سأقول.. لقد أيقنت أني سوف يقضى عليَّ تمامًا الآن.. وأنا أشـاهد سـيارة الشرطـة تزيد سرعتهـا وتتخطـاني بعنـف.. إنهم الآن سـوف يغلقـون طريـق الهـروب عـلي وسـوف يحيطوننـي لكـي أقـع بقبضتهـم.. شـعرت بالخـوف الشـديد ونويـت ألا أقـاوم وأكتفـي بالاستسـلام للأمـر الواقـع وأرضخ لمصـيري.. ولكن لم تقف سـيارة الشرطة لتمنع هروبي أو شـيئًا من ذاك القبيل، بل زادت في سرعتها ثم دلفـت إلى أول شـارع يقابلهـا على الجهـة اليمنـى.. إذًا هـم لم يكونوا يطاردوننـي أنـا.. عندما شـاهدت السـيارة تختفـي من أمامـي ويبتعد صـوت سرينتها تدريجيًّـا.. هنا ارتخـت أعصابي ولم أسـتطع أن أحرك ساكنًا فتوقفت بالسيارة بوسط الطريق وأخذت أضع رأسي على مقود السـيارة أحاول أن أسـتجمع قواي من جديد.. ظللت على هذا الحال لمـدة طويلة من الوقت ثم اسـتجمعت هدوئي وضحكت سـاخرًا من نفـسي: لمـاذا كنـت خائفًا لهـذه الدرجة؟ أنـا لم أفعل شـيئًا خاطئًا لكي تطـاردني الشرطـة.. ولكن هاتفًـا هتف بأذني: مـاذا لو قامـوا بتفتيش السـيارة ووجدوا جسـدك؟ مـاذا سـيكون رد فعل الشرطـة؟.. وهنا طرأت على رأسي فكرة شـيطانية.. ماذا لو وجدت الشرطة جسـدي؟

ماذا سيحدث؟.. ابتسمت لنفسي وأنا أنظر لعينيَّ بالمرآة.. إنها فكرة عبقرية ولكنها خطرة بنفس الوقت.. ظلت تلك الفكرة تشغل تفكيري وأنا أقود سيارتي حتى ذهبت إلى شقتي.. حملت جسدي بحرص وهو مغطى بقطعة قماش كبيرة وصعدت إلى الشقة ووضعته بإحدى الغرف وأخذت أفكر بعمق في تلك الفكرة التي خطرت لي.. لو تم تنفيذ هذه الفكرة جيدًا فسوف أخرج منها بفوائد عظيمة.. حيث أولًا سوف أستطيع أن أقيس رد فعل أناس كثيرين على مدى تقبلهم لشيء غريب تم تجسيده من رأسي مثل أن يجدوا جسدًا ميتًا لشخص حي.. إنه شيء غريب ومتناقض.. هل سيكون تقبلهم للأمر كبيرًا أم لا؟ وكيف سينعكس هذا على مدى قوة تجسيد الجسد بالواقع؟ الأمر الثاني هو أني سوف أتخلص من هذا الجسد ولن أخشى أن تجده الشرطة وأكون في موضع المشتبه به.. بل إني سوف أجعل الشرطة هي التي تتخلص منه بنفسها من أجلي.. أخذت تختمر برأسي الفكرة أكثر وأكثر ولم أنم تلك الليلة أبدًا.. في الصباح الباكر ذهبت إلى عملي كالمعتاد وأخذت أضع سيناريوهات عدة لما سيحدث لو وجدت الشرطة هذا الجسد ماذا سيكون رد فعلهم؟ ماذا سيحدث إذا اختفت فجأة بين أيديهم؟.. ماذا سيحدث إن لم يروا الجسد من الأساس؟ ماذا سيحدث لو قاموا بتشريحها؟ ماذا عن البصمات والحمض النووي لهذا الجسد؟ هل سيتطابق معي أم سيكون مختلفًا؟ ولو كان مختلفًا عن بصماتي والحمض النووي الخاص بي فهل سيكون له حمض نووي من الأساس؟ اهتممت بهذا الجزء جدًّا.. وفكرت بالفعل أن أذهب إلى أحد المعامل وآخذ أثرًا من هذا الجسد وأقارنه بحمضي النووي، ولكن

فكـرت بأن الشرطة قد تقوم بالبحـث خلفي وتتوصل لذهابي وقيامي بهذا التحليل، وهنا سـوف تكون شكوكهم كبيرة حولي بأني خلف كل هـذا الأمر برمته.. ظللت أفكر كثيرًا وأنا أضع أسـئلة وتوقعات حول خطتـي تلـك لمدة عشرة أيـام متتالية كنـت كل يوم منها أقـاوم رغبتي بتنفيذ تلك الفكرة، وفي نفس الوقت التخلص من هذا الجسد.. ولكن أخـذت أتريث وأحـاول تغطية جميـع الجوانب بقصتـي ومحاولة توقع ردود الفعل المختلفة لهذا الأمر.. اقترب على وجود هذا الجسد بالواقع ما يقارب العشرين يومًا، وهنا يئسـت أن يختفي هذا الجسـد من نفسـه وأخـذت أبـاشر خطتـي، وكان من أهمها إطـلاق النار عـلى ظهر هذا الجسـد حتى يظهـر للجميع أنها جريمـة قتل، والأمر الثـاني هو كيفية إبلاغـي عن هذه القضية.. اسـتخدمت سـلاحًا ناريًّـا أخذته من أحد المجرمـين المعروفين وأعدته له مرة أخـرى بمقابل مادي كبير وأخبرته أني كنت أسـتخدمه كعينـة لأحد تحقيقاتي الصحفيـة.. الأمر الثاني هو كان اختيـاري لأحد معـارفي من ضباط الشرطة لكي أقوم بإبلاغه عن هذه الجريمة التي لم تحدث وعن اكتشـافي لجثتي.. وبعد تفكير وبحث طويل وقع اختياري على العقيد سراج توفيق»..

هنـا أخـذ سراج يهـز رأسـه بضيـق وهـو ينظـر لـلأرض ويضـم يديـه، وأخـذ يعطي ظهره لرامي وهو يسـتمع إليـه دون أن يضطر إلى مشاهدته.. أخذ رامي ينظر إلى سراج بإحراج شديد، وأخذ يبتلع ريقه بقلق ويتابع حديثه:

«ثـم ذهبـت في أحـد الأيـام إلى مـكان هادئ عـلى جانـب الطريق ووضعـت الجسـد هناك بجهـة غير ظاهـرة وتأكدت من عـدم وجود شـخص هنـاك يراقبني، ثم حفظـت المكان عن طريق الــ جي بي اس GPS بهاتفي ثم استجمعت شجاعتي وحفظت جيدًا القصة التي كنت سـأخبرها للشرطة وذهبت للسـيد سراج وأعتقد أنكـم تعلمون باقي ما حدث حينها»..

هنا صرخ سراج بصوت قوي وهو يعطي لرامي ظهره: « لماذا؟»..

ثـم أدار لـه جسـده وهو يشـبك يديـه على صـدره: «أخـبرني لماذا اخترتنـي.. لمـاذا اخـترت سراج توفيـق من بـين جميع الضبـاط الذين تعرفهم؟»..

ابتلـع رامي ريقـه وأخذ ينظر لـلأرض خجلًا: «لأنـك لا تعرفني جيدًا وفي نفس الوقت مركزك قوي ومرموق، ولأنك....»..

قاطعه سراج بغضب: «ولأني أحمق.. أنا ضابط مغفل أحمق.. أليس كذلك؟»..

شـعر رامي بالقلق وأخذ يحاول أن يحسـن من موقفه: «لا بالطبع.. أنا.. أنا...».

.. قاطعـه سراج وهـو يتحـدث إليـه بعصبية شـديدة ويقترب منه ببـطء: «أنت.. أنـت ماذا؟ أتعلم ماذا شـعرت حينما شـاهدت جثتك اللعينـة تلـك؟ أتعلـم بـماذا مـررت بسـببك وبسـبب ما فعلـت؟ لقد ذهبـت إلى الجحيـم.. إلى تلـك المدينـة اللعينة بسـببك.. كل ما حدث

لي مـن مصائـب ومشـاكل ومازالـت تحـدث لي حتـى الآن بسـببك.. أفتقـد زوجتـي وأولادي.. أفتقد عمـلي وحياتي وأعيـش الجحيم كل يـوم هنا بجهينة بسـببك.. وكل هذا في النهاية يكـون تجربة قمت أنت بفعلها!!».. أخذ يمسك بتلابيب رامي بغضب شديد وهو يهز جسده بعنـف ويصرخ به، وعصام يحاول تخليص رامـي من يده، بينما أخذت أمـيرة تضع يديها عـلى فمها خائفـة للغاية وهي تشـاهد سراج يصرخ برامـي: «أيها اللعين.. أعد إلي حياتي التي سـلبتها أيها اللعين.. سـوف أقتلك أيها الوغد.. سوف أقتلك»..

استـطاع عصـام أن يخلص رامـي من يـد سراج بصعوبة شـديدة، وأخـذ رامي يلتصق بالحائط خائفًا مـن رد فعل سراج.. حاول عصام تهدئة سراج وهو يتحدث إليه بنبرة هادئة: «اهدأ يا سـيد سراج.. اهدأ أنت رجل قانون وتعلم أن العنف ليس الحل هنا.. اهدأ أرجوك»..

أخـذ سراج يفرك يديه وهو يبتسـم بغيظ شـديد ويتحدث بعصبية كبـيرة: «كيف أهـدأ؟! كيف أهدأ؟! إنه يخبرني أن جثتـه وما مررت به جميعه كان تجربة من صنعه هو.. كيف أهدأ؟! أهدأ كيف؟!»..

أخذ يتحرك سريعًا بمكانه وهو يمسـك رأسـه: «لقد كان أحمد على حـق.. لقد أخبرني منذ البدايـة بأن رامي اللعين ذلك هو الذي دبر كل تلك الأمور وأنا لم أصدقه، وأخبرته بأن رجل الشرطة لا يتبع حدسـه وإنما يتبع الأدلة.. كم كنت مغفلًا أحمق! ابن خالتك الصغير كان أذكى منك يا سراج.. أيها الأحمق.. أيها الأحمق»..

أخـذ رامـي يتحـدث إلى سراج محرجًـا: «يـا سراج باشـا صدقنـي بالفعـل أنـا لم أقم بهـذا الأمر للتقليل منـك أو لأني كنـت أعتقد بأنك أحمـق أو شيء مـن هذا القبيل.. كل ما بالأمـر أني قمت بتجربة وقادني القـدر إليك.. والدليل على كلامي هـذا أني لم أقم بتوريطك بالاختبار التالي الذي صنعته»..

نظر له سراج مندهشًـا وهو يشـيح بيديه مصدومًـا: «التالي؟!! هل قمت باختبار آخر؟»..

أومـأ رامي برأسـه مصدقًا على حديثـه: «نعم.. لقد قمـت باختبار آخر وعلى عدد كبير من الناس هذه المرة»..

انتـاب الفضول عصام وأخـذ يتحدث إليه متلهفًـا: «اختبار ماذا؟ أخبرنا بسرعة هيا».

أخذ رامي يتابع حديثه بينما أخذ سراج يضرب كفيه متعجبًا:

«بعـد أن علمت باختفاء الجثة عندما زارني السـيد سراج بمنتصف الليـل بأحد الأيـام وأخبرني بغلق القضية ونسـيان ما حدث شـعرت بالفرح الشديد ينتابني.. لقد تخلصت من هذا الجسد اللعين» وفي نفس الوقـت انتهت القضية من جهة الشرطة.. هذا كان أفضل سـيناريو لي ولم أتخيل يومًا أن يصير الأمر بسلاسـة هكذا.. وتشـجعت حينها على اتخـاذ الخطوة التالية.. لقد فكرت بأني يجـب أن أجعل ما أتخيله برأسي ويتجسـد بالواقـع يتحرك.. وبعـد أن فكرت كثيرًا اكتشـفت أني أريد لشيء جامد أن يتحرك بسـهولة وهذا أمر مسـتحيل «هذا كتعليم طفل

رضيع الطيران.. يجب أن أبدأ من البداية تمامًا.. يجب أن أتعلم الحبو أولًا.. وبدأت بتجسيد أشياء صغيرة وغير لافتة حتى إذا لم تختفِ لا تسبب لي مشكلة مثلما حدث مع جسدي من قبل.. وبالفعل أخذت أقوم بالتجارب على بعض الأشياء المختلفة» ونجحت بعد معاناة وكثرة تدريبات ذهنية قوية على التحرك أن أجعلها تتحرك من مكانها إلى اليمين أو اليسار وتعود لمكانها مرة أخرى، وكان هذا بالنسبة لي انتصارًا عظيمًا، فبعد عدة صدمات وأصابني الفشل كثيرًا نجحت بتحريك الأشياء أخيرًا، حتى ولو كان بشكل آلي وبسيط، ولكنها بداية مرضية بالنسبة لي.. وأخذت أقوم بالتدريبات لفترة قصيرة حتى كنت عائدًا من عملي بأحد الأيام وكنت أتصفح مواقع التواصل الاجتماعي وشاهدت على صفحة أحد الأصدقاء لدي مقطعًا من فيلم اسمه «الصرخة» scream ولفت انتباهي شكل القناع لذي يرتديه القاتل في الفيلم وأخذت أتخيل مشهدًا برأسي لهذا الأمر.. وهنا تعلق عقلي بتلك الفكرة وأخذت أفكر بها لمدة طويلة.. ماذا لو صنعت شيئًا مثل هذا وجعلته بمكان عام ليشاهده عدة أشخاص وبنفس الوقت أرى كيف سيتقبله هؤلاء الناس وهل سيتحرك إذا ما جعلته كذلك أم لا.. وهنا قررت أن أطبق ثلاثة أشياء بتلك التجربة لكي أعتبرها ناجحة.. الأول أن يكون ما صنعته حجمه كبير حتى يستطيع عدد كبير مشاهدته.. الثاني أن يكون بمكان عام به كثير من الناس.. الثالث أن يكون شيئًا مألوفًا لدى أناس كثيرين.. ولكن لم يهدني عقلي لشيء يجمع تلك الأشياء الثلاثة معًا.. لقد كنت أفكر كثيرًا ولم أجد هدى حتى حدث بأحد الأيام أن كنت ذاهبًا لمقابلة أحد زملائي بمقهى بوسط

البلد وهنا شاهدت شيئًا ألهب خيالي بالحال (جرافيتي) إحدى الرسومات الكبيرة على إحدى الحوائط بأحد شوارع ميدان التحرير لهيكل عظمي ضخم يرتدي عباءة وبيده منجل حديدي كبير.. توقفت مشدوهًا أمام تلك الرسمة وشعرت بأنها ضالتي المنشودة فأخذت هاتفي وقمت بتصويرها واحتفظت بها.. أنهيت لقائي وعدت إلى منزلي أتفنن بالنظر إلى تفاصيل تلك الرسمة الرائعة وأخذت أتخيلها برأسي إذا ظهرت لعدد كبير من الناس فماذا سيكون رد فعلهم؟ وهذا شيء مهم لتجاربي أن وجدت الرسمة وهذه هي الخطوة الأولى من التجربة، والخطوة الثانية كانت اختيار المكان، والثالثة والأهم كيف سيراها الناس على أنها شيء مقبول.. إنها مقبولة بالفعل للبعض، ولكن للمعظم غير معروفة، وهنا طرأت لرأسي فكرة أعتقد أنها عبقرية.. سأقوم بوضع رسم مصغر لتلك الشخصية على أحد الجدران بالقرب من مكان ظهورها ولكن بحجم مناسب يجب أن يكون ظاهرًا للأعين ولكن لا يحوز اهتمامهم.. وبالفعل بعد عدة أيام أخذت أبحث عن المكان المناسب لهذا الحدث واخترت بالنهاية كوبري عباس وقمت بالتواصل مع أحد مصممي الجرافيتي المعروفين على الإنترنت وأرسلت له مبلغًا ماليًّا دون أن يعلم شخصيتي الحقيقية، وطلبت منه أن يرسم تلك الرسمة على أحد الجدران القريبة من مدخل كوبري عباس فكان أحد شوارع شارع مراد هو المكان المنشود.. وضع تلك الرسمة هناك وبعد عدة أيام مررت بسيارتي على هذا المكان أكثر من مرة وكنت أشاهد الرسم واضحًا ولكنه قد يكون عابرًا للسائقين لا يعلق بذهنهم، ولكنه بالتأكيد يترسخ بعقلهم الباطن.. فصدقني

العقل الباطن لا ينسى شيئًا شاهدناه على مدار حياتنا كلها حتى ولو مرة واحدة.. ظللت أذهب إلى هذا المكان يوميًّا حتى وجدت أن عمال المحافظة قد قاموا بمسح تلك الرسمة وهنا اكتمل الإعداد لخطتي ولم يتبق إلا تنفيذها.. ذهبت إلى أسفل كوبري عباس مساء أحد الأيام وقمت بتجربة ظهور تلك الرسمة، وبالفعل نجحت في إظهارها وجعلها تقوم بحركات بسيطة للرأس مرة لليمين ومرة لليسار، وأضفت تفصيلة صغيرة.. إنه يختفي إذا حاول شخص أن يلمسه، وبعد تطبيق هذا الأمر لثلاث مرات متتالية وتم ما أردت انتظرت مرور يومين آخرين حتى جاءت نهاية الأسبوع يوم الخميس الساعة الثالثة والربع عصرًا اتخذت أحد الأركان بعيدًا عن الأنظار واخترت بناظري مكانًا مناسبًا فوق سور الكوبري، وقمت بالتركيز الشديد على ما برأسي قليلًا.. وها هو يظهر أمامي بكل تفاصيله الرائعة التي أتقنتها.. حاصد الأرواح يقف بشموخ فوق سور الكوبري ورأسه يتحرك يمينا قليلًا ثم يتوقف ثم يتحرك بعد ذلك يسارًا.. وللحق لقد كان مشهده مخيفًا بالفعل وهو يظهر بكل وضوح تحت أشعة الشمس وخلفه مشهد المياه والمباني البعيدة.. كانت فرحتي شديدة للغاية عندما وجدته لفت انتباه المارة فوق الكوبري.. إذًا لقد لاحظوه أمامهم، وهذا كان شيئًا فوق الوصف بالنسبة لي عندما تجد أناسًا كثيرين يتفاعلون مع شيء صنعته من رأسك.. ولكن فرحتي لم تدم طويلًا وكاد قلبي يقفز من بين أضلاعي عندما شاهدت بعض السيارات تصطدم ببعضها فوق الكوبري.. لم يأت في بالي نهائيًّا أنه قد يحدث ذلك على الرغم من أنه شيء بديهي ولكن إلحاح تنفيذ التجربة

بـرأسي جعلني أتناسـى كل شيء آخر.. وهنـا أردت أن أجعل حاصد الأرواح ذلك يختفي حتى لا تحدث وفيات وأكون مسئولًا عن إزهاق الأرواح.. فلـم يكن هذا يمـر بخاطري أبدًا أثنـاء التفكير بتنفيذ تلك التجربـة.. وهنـا بالطبع لم يختف حاصـد الأرواح لأني وضعت شرطًا مسبقًا أنه يختفي عندما يحاول أحد ملامسته.. اللعنة!! لماذا لم أفكر من قبل أن أفعل تلك التجربة؟ وهنا اكتشفت أنه مهما كانت الفكرة رائعة وعبقريـة برأسـك لكن عند تنفيذهـا بالواقع قد تتحـول إلى شيء آخر تمامًـا.. لم أشـعر بنفسي إلا وأنـا أتناسـى كل شيء وأذهـب إلى جهـة السيارات التي اصطدمت ببعضها لكي أرى ماذا حدث لركابها، فأنا كنت أشـعر بأني مسـئول بالفعل عما أصاب هؤلاء البؤسـاء واندمجت وسـط المارة وسائقي السـيارات الآخرين ولكن وجدت المصابين غير عابئـين بإصابتهـم، وكل تركيزهـم انصب على حاصـد الأرواح أعلى سـور الكوبري.. وحينها هدأ قلبي قليـلًا لعدم وجود إصابات خطرة وتعلق بصري بمشـاهدة ردود أفعال الآخرين وهم يشـاهدون تجسيد مخيلتي.. لقد امتلأت غرورًا ونشوة وأنا أشاهدهم يصرخون وخائفين من شيء ما صنعته.. لقد كادت ضحكاتي تفضحني وسـط كل هؤلاء المندهشـين الخائفين.. توقفت حركة السـيارات فوق الكوبري تمامًا.. وهنـا تراجعـت إلى خلـف الحشـود أرقبهم مـن بعيـد، وحينها أخرج العديـد هواتفهـم وأخذوا يصـورون حاصـد الأرواح ذلك، ولك أن تتخيل حينها كم شـعرت بالغباء الشـديد يجتاحني تلك اللحظة، فعلى الرغم من مئات الأشياء التي صنعتها بواسطة تلك الصخرة وجسدتها بالواقـع لم أقـم بتجربة تصويرهم ولـو لمرة واحدة طـوال تلك الفترة،

وهنا زاد فضولي.. ماذا سيحدث..؟.. هل سيستطيعون التقاطها بكاميراتهم؟ هل ستستطيع الكاميرات التقاط خيالات صنعتها برأسي؟ أخذت أفكر بحيرة كيف سأستطيع الوصول إلى تلك الصور على هواتفهم؟ لم يمض وقت كثير حتى قاد الفضول أحد الواقفين للذهاب جهة حاصد الأرواح وتصويره وحينما تشجع أكثر بسبب صيحات الناس من خلفه حاول لمس حاصد الأرواح هنا اختفى حاصد الأرواح حينما حاول أن يلمسه كما قررت بالضبط.. أخذت أنظر بساعتي الرقمية إلى الوقت الذي استغرقته تلك التجربة من بداية ظهور الحاصد حتى اختفائه وهنا صدمت بشدة ممَّا رأيته فلم يمر على شاشة ساعتي إلا 32 ثانية فقط ولكن بالنسبة لي ولجميع من كان في هذا الموقف حينها شعرنا بأن هذا الحادث قد أخذ منا ساعات طويلة.. لاح لي أن أقتحم المشهد وأسأل المارة عمَّا صوروه على هواتفهم بصفتي الرسمية كصحفي، ولكن كيف سأبرر بعد ذلك وجودي في مسرح الحدث الآن؟ فأنا بالفعل تحت ملاحظة العقيد سراج بسبب أمر جثتي.. فكيف سأبرر له بعد ذلك تواجدي هناك لو ظهر اسمي في هذا الأمر؟ هل سأخبرهم أنها صدفة؟ واكتشافي لجثتي كان صدفة أيضًا؟ إذًا ستكون الصدف كثيرة، وتلك إشارة خطيرة لرجال الشرطة؛ لهذا آثرت السلامة وابتعدت عن المكان لوقت قصير كنت أشعر بأنها أعوام تمر علي.. انتظرت طويلًا حتى شاهدت زملاء لي صحفيين وسيارات مراسلي قنوات الأخبار التي جعلتني أشعر بالاندهاش كيف انتشر هذا الخبر سريعًا هكذا حتى يلفت أنظار القنوات الفضائية؟ وهنا وجدت مبررًا لظهوري هناك واقتحمت مسرح الحدث بجسارة

وثقـة مسـتغلًّا مهنتي الوظيفية واسـتخدمت هناك جميع مـا أملك من أسـلحة وخـبرة صحفية طويلـة.. اسـتطعت أن أسـتجمع معلومات كثـيرة عـن تجربتي تلك التي ظهـر في البداية أنها ناجحـة ولكن عندما اسـتطلعت آراء 70 شـخصًا تقريبًا كان هناك 40 شـخصًا لم يشـاهدوا حاصـد الأرواح وشـاهدوا اصطـدام السـيارات ببعضهـا فقـط.. و30 شخصًا شاهدوا حاصد الأرواح ومنهم 12 شخصًا قاموا بتصويره ولكن شـخصًا واحدًا فقط الذي اسـتطاع أن يحتفظ بصورة له ولكنها غـير واضحة، ويبدو أن هذا الشـخص يمتلك مخيلـة وعقلًا قويًّا حتى اسـتطاع التقاط تلـك الصورة عـلى هاتفه، ولكن بالمجمـل معظم من كانوا هناك لم يشـاهدوا حاصد الأرواح، واكتشـفت أنه من الممكن أن تظهـر تلـك التجسـيدات عـلى الكاميرات ولكـن يبدو أنهـا تحتاج إلى شروط وظـروف أخرى لا أعلمها بعـد.. إذًا وبعد تفكير عميق كانت نهاية تجربتي تلك فاشـلة لأنها لم تحقق جميع ما كنت أصبو إليه.. قررت التوقف عن ممارسـة تجاربي لمدة من الوقت لأني وجدت ما فعلته صار حديثًا للناس بداخل مصر وخارجها لعدة أيام، ولكن تلك الأحـاديث ظلت تخبو وتخبو بظهور عدة أخبار أخرى أخذت مكانها سريعًا، فبعد عـدة أيـام انتـشر خبر ظهـور سـفينة بداخل مدينـة جهينـة، وأصابني الفضـول الـذي كاد يصيبنـي بالجنون وأنـا أفكر كيف لـشيء كهذا أن يحدث؛ وبمصر؟! وهنا طرق رأسي التفكير بأنه قد يكون شخص آخر يمتلـك الصخـرة البيضـاء مثلي وأنه يفعـل بعض التجـارب هو أيضًا ولكنه بالتأكيد أكثر خبرة مني أن يجعل شـيئًا ضخمًا مثل السـفينة يظهر هكـذا.. إنـه بالتأكيـد يحمـل عقـلًا جبـارًا.. كل ذلـك كان تكهنـات

واعتقادات برأسي ولكنها كانت كافية بأن تدفعني دفعًا لكي أذهب إلى جهينة لكي أرى بنفسي صحة اعتقادي هذا.. وتوالت الأحداث والغرائب كما شاهدتم وكنت قد وصلت لاعتقاد يصل إلى حد اليقين بأن ما يحدث هذا بالتأكيد له علاقة بحادث مدحت فراج.. ولكن لم أتيقن أبدًا من هذا الاستنتاج حتى اعترف كريم بأنه يعلم مدحت فراج وسألني عن الصخرة، وهنا تأكدت بأن كريم خلف ذلك كله، وأنه بالتأكيد (ك.م) الذي تحدث عنه مدحت فراج بمذكراته»..

سأله سراج بحيرة: «إذًا مَن كريم هذا؟ وكيف يستطيع أن يفعل كل ذلك مثلما تخبرنا؟ ولماذا يفعل ذلك؟»..

«لا أعلم لماذا يفعل ذلك، ولكنه بالتأكيد لديه صخرة أكبر من التي معي ويفعل عن طريقها كل ذلك»..

اقترب منه عصام وحدثه بفضول: «أخبرني كيف عرفت أن كريم هذا هو الشخص الذي كنت تبحث عنه من البداية؟»..

«أنا بالطبع لم أكن أعلم أنه هو؛ ولهذا مكثت بجهينة أتحسس الأخبار وأشاهد أهل المدينة وأنا أشك بالجميع، ولكن لم أجد دليلاً ماديًّا على أي شيء، أما بالنسبة لكريم هذا فلم أشعر بالارتياح له منذ أن قابلته لا أعلم لماذا، ولكن حدسي أخبرني بأنه شخص غير طبيعي؛ لأنه كان طبيعيًّا للغاية.. ولكن لم أكن أعتقد أنه هو لأني لم أكن أعلم عمَّ أبحث من الأساس ولكن عندما قابلت أميرة –وشاور بيده جهة أميرة فنظر الجميع إليها وشعرت هي بالإحراج وأخفت وجهها بيدها بدلال شديد وتابع رامي حديثه إليهم– وعلمت بقدراتها العظيمة

تلـك وبعـد أن قامت بلمسي أخبرتني أني سـوف أقتله.. وهنا لا أعلم مـاذا حدث.. حديثها معي جعلنـي لا أرى إلا صورة كريم بوجهي.. أتقصد أن هذا الذي كنت سـأقتله؟ بالطبع لم أقتنع بأفكاري تلك لأنها قد تكون مجرد إيحاءات قد تسللت إلى رأسي بفعل حديث أميرة.. لكن عـلى الرغم من محاولتي التفكير بعقلانيـة إلا أنه قد حدث ما أخبرتني أميرة بالضبط.. ولا أعلم هل قتلت كريم لأن أميرة أخبرتني بذلك أم أن أميرة قد شـاهدت المستقبل بالفعل، ولكن ما حدث أني قد تأكدت بأن كريم هو الشخص المقصود»..

سأله عصام بفضول: «وكيف تاكدت من ذلك؟»..

أخـرج رامـي هاتفه وفتحـه وأخرج صـورة على شاشـته وأعطاها لعصـام الـذي أخذ ينظـر إليها بفضـول، واقـترب منـه سراج وأميرة ليشـاهدا تلك الصورة أيضًا، وهنا شـاهدوا رامي يلتقط صورة لنفسه وبجواره شخص ولكن يحمل رأس بطيخة خضراء..

نظر الجميع مندهشـين إلى رامي وسـأله عصام: «مـا هذا؟.. أتلك صورة معدلة بالحاسب؟»..

أجابه رامي بابتسامة وهو يأخذ هاتفه مرة أخرى ويضعه بملابسه: «لا.. إنهـا صـورة حقيقيـة بالفعـل، والشـخص الذي معـي بالصورة ويحمل رأس بطيخة هو كريم بالفعل»..

اندهش الجميع من إجابته وسأله عصام «كريم.. كيف هذا؟».

ابتسـم رامـي وهـو يجيبهـم: «الأمر ليـس غريبًـا.. لقـد أخبرتكم أني كنـت أشـك برامـي بالفعل ولكـي أتأكد من شـكوكي تلك قمت

بتصويـر عدة أشـخاص كنت أشـتبه بهم، وكنـت أتخيل أشـياء غريبة علـى رءوسـهم، ولأني أعلم أن مـن يفعل هذه الغرائـب بجهينة يحمل قـوة مثلي أو أكثر تأثيرًا منها ولذلك فسـوف تظهر تخيلاتي تلك معه في الصورة.. حسنًا لم أكن متأكدًا من نجاح هذه الفكرة لأني لم أقم بها من قبـل، ولكن قـررت أن أفعلها عـلى أي حال، ولكـم أن تتخيلوا مدى صدمتـي وفرحتي في نفـس الوقت عندما نجحت مع شـخص واحد فقط وهو كريم استطعت أن أجسد ما أتخيله بالصورة وهو بجواري.. إذًا بالفعـل كريـم هـو الـذي يمتلك تلـك الصخرة أو عـلى الأقل هو المسـئول عمَّا يحدث بجهينة، ولا تنسوا شيئًا مهمًّا أخبرتكم به من قبل : (ك.م) الـذي كان يتحدث عنه مدحت فـراج بكتابته.. اختصار لأول حروف اسـم كريـم ماهر.. لا أعتقد بأن هنـاك مصادفات كثيرة كهذه تحدث بشكل اعتباطي وغير مرتب»..

سأله سراج بحدة: «ولماذا قتلته؟»..

« كنـت أعتقـد بـأني إذا قتلت كريـم فسـيعود كل شيء إلى طبيعته، وسـوف تختفي كل تلك الأشـياء الغريبـة التي كانت تحـدث بجهينة، ولكـن لم أعتقـد أبدًا أنه لا يمـوت.. لقد قمت بقتله عـدة مرات وكل مرة يعود إلى الحياة»..

أخذ سراج يمسك برأسه وهو يتحرك بمكانه ويحدث نفسه بصوت عالٍ: «اللعنة! اللعنة! سوف أجن!»..

أخذ الجميع يرقبه بصمت شديد قطعه عصام بسؤال مقتضب: «إن ما تخبرني به شيء غير مقنع ولا أجد سببًا لتصديقه.. هل تملك دليلًا على صدق كلامك هذا؟».

قام رامي بوضع يده بملابسه وأخرج قبضة يده مضمومة وفتحها ببطء أمام عصام ليكشف عن الصخرة البيضاء بين يديه.. وأخذ يحدثه بثقة: «ها هو دليلك الذي تريد.. تلك هي الصخرة البيضاء التي صنعت بها كل ما أخبرتك به»..

ظل عصام ينظر إليها مترددًا للحظات ثم انقض عليها بفضول شديد من بين يد رامي وحملها بين يديه وهو غير مصدق، وهنا تعلقت عيون أميرة وسراج على الصخرة بين يدي عصام الذي أخذ يتفحصها وهو يبدي تعليقاته للجميع دون أن يشعر: «إنها بيضاء بالفعل ولكن استخدام مصطلح صخرة معها خاطئ.. إن الصخر يطلق على الأحجام الكبيرة التي لا يستطيع حملها الإنسان بسهولة أما هذه الأحجام الصغيرة فيطلق عليها أحجار وهذا الحجر الأبيض الصغير.. امممم إنه مختلف.. إنه ليس مقتطعًا من صخور نارية أو من صخور رسوبية.. إنه أقرب إلى الصخور المتحولة.. ولكن أيضًا هو ليس له خصائص الصخور المتحولة المعروفة.. إنه أقرب إلى شيء صناعي ولكن هذا غريب.. وزنها يكاد يكون معدومًا.. كتلتها يجب أن تعطي وزنًا مختلفًا عن ذلك، وأيضًا ملمسها البارد ذلك.. لم أرَ شيئًا مثل ذلك الحجر من قبل على الرغم من أني عالم جيولوجي ورأيت صخورًا من جميع بقاع الأرض، ورأيت الكثير من الصخور والحجارة

من خارج كوكب الأرض بحكم عملي بوكالة ناسا، ولكن لم يصادفني شيء مثل هذا من قبل»..

أمسك سراج الصخرة بيده وهو يقلبها مندهشًا ويحدث رامي مصدومًا: «هل هذا الشيء الصغير هو الذي جعلك تصنع جثتك؟ هل هذا هو؟»..

ابتلع رامي ريقه بقلق « نعم.. تلك الصخرة التي جعلتني أفعل ذلك..»

أخذ سراج يهز رأسه معترضًا: «لا.. لن أصدق ما تقوله حتى أراه بعينيَّ.. فلتجعل هذا الشيء اللعين يصنع جثتك مرة أخرى مثلما تدعي»..

أخذ رامي يهز رأسه نفيًا: «للأسف لا أستطيع.. بعد أن أتيت إلى جهينة لن تعمل الصخرة مرة أخرى مهما حاولت، وهذا كان يؤكد شكوكي بأن هنالك شيئًا له علاقة بهذه الصخرة بجهينة»..

هنا قام سراج بإلقاء الحجر الأبيض من يده بعنف وهو يصرخ غاضبًا: «كنت أعلم أن حديثك هراء»..

قاطعته أميرة سريعًا: «لا.. جميع ما قاله رامي صحيح.. لقد شاهدته بذكرياته بنفسي.. هو لم يشرح كل شيء بدقة ولكنه كان صادقًا بجميع ما رواه»..

حدثها سراج بحنق: «أنتِ لا تتحدثي إطلاقًا.. بالطبع سوف تدافعين عن محبوبك الوغد هذا.. فلتذهبا معًا ولتحترقا بالجحيم».

توجه إليه رامي غاضبًا وهو يصرخ به: «لا تتحدث إلى أميرة هكذا أبدًا»..

وأمسك بملابس سراج بعنف.. وهنا نظر له سراج نظرة مجنونة جعلت رامي يشعر بالخوف يغزو جسده ومفاصله ترتجف بارتياع.. حدسه أخبره أنه فعل فعلًا أحمق سوف يجعله يخسر حياته، وهنا بالفعل شعر عصام وأميرة بأن رامي سيفقد حياته، وتأكدا من ذلك عندما دفع سراج رامي بكل قوة دفعة جعلت رامي يرتطم بالحائط وتحول وجه سراج إلى اللون الأحمر الداكن والدماء صبغت بياض عينيه بالحمرة وأخذ يصرخ دون أن يفهم أحد ماذا يقول، ولكن تمت ترجمة أفعاله عندما سحب سلاحه الناري وقام بفتح زر الأمان ووجَّهه إلى رامي.. أيقن الجميع أن سراج لم يعد سراج الهادئ الرزين الذي يعلمونه ولكنه تحول إلى شيطان غاضب سيفتك بالجميع.. قفز جسد عصام بدون وعي منه وأطبق على يد سراج وهو يطلق النيران لتخطئ الطلقة النارية رأس رامي بمسافة صغيرة جعلت رامي يقف بمكانه مثبتًا بالغراء لا يقوى على الحركة من هول الصدمة التي حدثت له، وصرخت أميرة خائفة مما حدث، وأخذ عصام يصرخ على سراج لعله يعود إلى رشده، ولكن ثلاث طلقات أخرى خرجت من سلاح سراج جهة رامي جعلت عصام يوقن بأن سراج غير متاح في هذه اللحظات أبدًا.. وقفز رامي مبتعدًا عن مكانه بعد أن شاهد الطلقات وهي ترتطم بالحائط بجواره بالحركة البطيئة يكاد يجزم أن الزمن قد توقف تلك اللحظات ورأى كل شيء بأدق التفاصيل.. هل هذا

شـعور من سيموت حينما يدنو به الموت ليصاحبه إلى الجحيم؟ في تلك اللحظة علم رامي أنه سـوف يقتل على يـد سراج فقفز من مكانه جهة سراج وأخذ يحاول إمساك يده هو الآخر ليمنعه من قتله وسط صراخ أمـيرة الذي أضاف على الموقف توترًا أكثر وعبق المكان برائحة الخوف المختلـط برائحـة البـارود وعـرق الأدرينالين.. ولكن عـلى الرغم من مواجهة الاثنين لسراج ولكنهما لم يسـتطيعا إيقاف شيطان غضبه الذي يبـدو عليه أنه امتطاه للأبد وبلا رجعة.. فكان سراج بجسـده الضخم الريـاضي كالثـور الهائج اسـتطاع أن يطيح بالاثنـين في لحظات بعد أن مزقا بعض ملابسـه وهما يتشـبثان بـه بعد أن قذفهما بعيـدًا عنه.. وهنا تحول سراج بسـلاحه الناري من جهة رامي إلى العقبة التي تقف أمامه لقتـل رامـي وهو عصـام، وقام بإطـلاق طلقتين سريعًا جهتـه، ولكنه أخطأه عندما أمسـك رامي بأقدام سراج وأسقطه على الأرض ليحول سراج الدفة جهة رامي مرة أخرى، وهنا أيقن رامي أنه هالك لا محالة، فـسراج رفع سـلاحه النـاري بالقـرب من رأسـه في لحظـة ولا توجد أي سرعـة يمتلكهـا في العـالم تجعلـه يهـرب من هـذا الموقـف، فأغلق عينيـه رغمًا عنه وهو يشـتم رائحـة البارود المحـترق يتصاعد من فوهة المسـدس الـذي كان على بعد إنشـات قليلة من رأسـه، وانتظر صدور صوت إطلاق النيران الذي سـوف يكون وصل إلى أذنه بعد أن تكون الرصاصـة اخترقت جبهته لتنثر بقايا رأسـه بكل مـكان حوله، ولكن لم يصـل إلى أذنـه صـوت الطلقات، بـل وصل إلى أذنـه صوت صراخ سراج.. فتـح عينيـه سريعًا ليرى مـاذا يحدث ليجد أميرة تمسـك وجه

سراج بقوة شـديدة وعيناها بيضاوان ويبدو أنها في نشوة ما بينما سراج يصرخ متألمًا.. لحظات قليلة شعر رامي وعصام بالاندهاش مما يحدث وكيف لهذا الثور الهائج سراج الذي لم يسـتطع الاثنان مواجهته بغضبه وكانا بين يديه كالأوراق بمهب الريح وهو يصرخ بين يدي أميرة تلك الفتاة الضئيلة التي هي أشبه بدمى الأطفال، وفجأة سقط سراج مغشيًّا عليـه، وانهارت أميرة خلفه، فذهب رامي مسرعًا جهتها وأخذ يطمئن عليهـا بينما توجه عصام جهـة سراج وأخذ يتفحص نبضه بعد أن أبعد سـلاحه بعيـدًا عـن يـده.. أفاقـت أميرة من غشـيتها وأخذت تمسـك رأسها ورامي يصرخ عليها بقلق: «أميرة.. أميرة.. هل أنت بخير؟ هل أصابك مكروه؟»..

حدثته أميرة بنبرة متعبة: «لا.. أنا بخير.. أنا بخير»..

سألها عصام بفضول: «ماذا فعلتِ بسراج؟ لماذا كان يصرخ هكذا؟».

«لم أفعل شـيئًا به.. لقد قمت بإرسـال ذكريات رامي إلى رأسه لكي يتأكد من أن أقوال رامي حقيقة».

سألها بفضول شديد: «وهل تستطيعين أن تفعلى ذلك يا أميرة؟».

أجابتـه بقلـق: « لا أعلـم ماذا حـدث لي.. منذ أن قمت بملامسـه كريم وأنا أشـعر بطاقة قوية للغاية بداخل رأسي جعلتني أدرك أشـياء عـن قـدراتي كنت أجهلها، وأصبح الآن لدي شـعور بأني أسـتطيع أن أتحكـم بأي شيء من قدراتي أريد أن أفعله بالضبط وليس بالصدفة كما كان يحـدث معـي بالمـاضي.. أنا لا أعلـم ماذا حـدث لي بالفعل ولكن

ما شـاهدته من هـذا الشيء الذي يدعـى كريم جعلني أعلـم لماذا كان يتجنـب أن يلمسـني دائمًا.. إنه كان لا يفعل ذلـك لأني منبوذة، ولكنه كان يخشانى.. يخشى أن أعلم عنه ما أعلمه عنه الآن».

بفضول شديد سألها عصام: «وماذا تعلمين عنه؟ أخبرينا سريعًا»..

وهنا قبل أن تتحدث أميرة حدث شيء غريب للغاية.. لقد سمعوا صوتًا قويًّا لشخص يتحدث إلى شخص آخر..

اندهـش الجميع.. ما هـذه الأصوات؟ ومن أين جـاءت؟ وكانت دهشـتهم أكـبر عندما وجـدوا أن تلك الأصوات تأتي مـن جميع أنحاء جهينـة.. هذا الصوت يـدوي بجميع أنحاء جهينة.. الجميع يسـمعها بلا اسـتثناء.. أصـوات مكـبرات ضخمـة في جميـع الأنحـاء تصـدح بأصوات هذين الشخصين وكانا يتحدثان بأمور شخصية للغاية..



(أسرار قذرة)

مع حلول الساعات الأولى من الليل حدث شيء أدهش جميع سكان مدينة جهينة.. مكبرات صوت بكل مكان بأصوات ضخمة ولكن واضحة ونقية تصدر من أماكن متفرقة من أنحاء المدينة، ولم يستطع أحد العثور على مصدرها.. تبث أصوات ومحادثات عادية لأشخاص من أهل المدينة يتحدثون فيما بينهم بأريحية شديدة، ويبدو أنه تم تسجيل تلك المحادثات بمنازلهم نظرًا لطريقة تحدثهم الدارجة التي تحدث بين الأصدقاء وأفراد العائلة.. كان أول تسجيل يسمعه الجميع يدور بين ثلاث فتيات يتحدثن مع بعضهن وهن يتضاحكن ويتهامسن ويتغامزن على بعض النسوة في المدينة، وصدحت واحدة منهن بحديث وهي متحمسة للغاية: «أتعلمن يا فتيات لماذا خلعت سعاد محمد نفسها من علوان زوجها بعد ثلاثة شهور فقط؟».. سألتها الفتاتان بفضول: «ماذا حدث؟ لماذا؟ أخبرينا».. أجابتها إحداهن سريعًا: «هل كان ضعيفًا جنسيًّا؟ هل كان لا يلبي لها احتياجاتها؟».. ابتسمت الفتاة وهي تنفي سريعًا: «لا.. ليس هذا.. ولكن يجب أن تعداني أنكما لن تخبرا أحدًا عن هذا السر».. أجابتها الفتاتان سريعًا: «نعدك.. نعدك.. لن نخبر أحدًا»..

«إذًا اسمعن جيدًا.. لقد شرحت لي صابرين أخت سعاد ما حدث بالضبط.. بعد أن أخبرتها أن لدي عريسًا لأختها ولكنه متردد في أن يتقدم لها لأنها خلعت زوجها بعد ثلاثة شهور.. فأخبرتني لكي تدافع عن أختها.. بأن زوج سعاد علوان منذ زواجهما لم يستحم أبدًا.. وكانت رائحته سيئة للغاية، وكانت سعاد تعتقد بأن زوجها غير نظيف فقط ولكن بعد ثلاثة شهور لم تعد تتحمل رائحته الكريهة هذه عندما كان يحاول أن يتقرب منها.. وسألته بغضب لماذا لا يستحم، لأن رائحته غريبة، فأخبرها بأنه لا يستحم أبدًا ولا يقترب بجسده من الماء لأنه مصاب بمرض جلدي يجعل جلده يهتاج بشدة عندما يلامسه أي ماء.. وهنا أخبرته سعاد بأنه خدعها ولم يخبرها بحقيقة مرضه هذا من قبل.. وهكذا قامت بخلعه سريعًا بعد أن تأكدت المحكمة من صحة قولها».. تحدثت إحدى الفتيات وهي مصدومة: «اللعنة! لم أكن أتوقع أن يكون علوان هذا قذرًا هكذا.. ولكن هذا يوضح لماذا كان يبتاع من محل الإكسسوارات الذي أعمل به الكثير من العطور.. يا له من قذر!».. وأخذت الفتيات يتضاحكن ويتندرن على هذا الأمر.. كانت المدينة تضج بحديث هؤلاء الفتيات الذي كان يدور بداخل أحد منازلهن ليتحول إلى حديث عام يسمعه الناس بالطرقات وبداخل منازلهم.. لقد شعر الجميع بالاندهاش بالطبع في البداية ممَّا يحدث ولكن بعد مرور عدة ساعات وسماعهم العديد من الأسرار القذرة لعدد كبير من أفراد المدينة تحول هذا الأمر إلى شيء مُسلٍّ يسمعونه بفضول شديد وهم يتلهفون لسماع الحكاية الخاصة التالية لأحد أفراد المدينة كانتظارهم لعمل تلفازي مشوق.. كانوا

يـرون في تلـك الفضائح المجانية تعزية لهم عـمَّا يحدث لهم من مصائب بجهينـة.. فلقـد صـدق المثل القائـل: من يـر مصائب الغـير تهن عليه مصائبـه».. ولكـن لم يكن هذا لسـان حـال من كان الناس يسـتمعون لفضائحـه؛ فالكثـير منهم كان يتمنى أن تنخسـف بـه الأرض وتبتلعه وهو يسـتمع إلى أسراره تنتشر على الملأ سـواء على لسـانه أو على لسان أحد أقاربه أو أصدقائه المقربين أو من كان يعتقدهم كذلك.. وكان من بينهم كامل إبراهيم الذي كان يتعجب دائمًا ممَّا يحدث لسيارته التي كان يتركها أمـام منزله ليعود ويجدها قد تمزقت إطاراتها دائمًا أو يجد ألوانها قـد جرحت بشيء حاد بخط طولي كبير وبدون أي دليل على الفاعل.. وظل هذا الأمر يتكرر معه كثيرًا لدرجة جعلته يصرف مبالغ طائلة على تغيير الإطـارات وتصليح ألوان سـيارته، ولم تنجح محاولاته للتربص بالفاعـل ومعرفتـه، وحاول مرارًا وتكـرارًا مع عمـدة المدينة مازن أن يضع كاميرا أمام منزله وكان العمدة يرفض هذا الأمر ويخبره بأن هذه الأشـياء ممنوعة كحيازة الأسـلحة بالمدينة؛ لأنه قد يتم اسـتخدام تلك الكامـيرات بصورة سـيئة، ولم يقتنـع أبدًا بضرورة أن يتم اسـتخدامها لإيجـاد الفاعل الذي يخرب سـيارة كامل.. ولكم كانـت صدمة كامل قويـة عندمـا علم أخيرًا من الذي يفعل ذلك بسـيارته! ها هو يسـمعه الآن يتفاخـر بفعلتـه ذلـك مـع زوجته.. إنه جـاره السـبعيني العجوز الذي يفعل ذلك به ويثقب إطاراته ويخرب ألوان السيارة ويفعل تلك الأمـور الصبيانية بغـرض الانتقام من كامل لأنه دهس بسـيارته تلك قطته التي عاشـت معه تؤنسـه لسنوات طويلة.. لم يتوقع أبدًا أن يكون مـن يفعل ذلك معه هو جاره العجوز ولسـبب تافه مثل مقتل قطة من

وجهة نظر كامل.. وهذا السبب الذي جعله يشتاط غاضبًا وهو يصرخ منفعلًا متوجهًا إلى منزل جاره الذي تجاهل صراخه المصاحب لطرقاته على باب منزله.. وأخذ يصرخ عليه وهو يرى جاره العجوز يتجاهله وهو يشاهده من النافذة خلف الستائر الحريرية.. «أنت أيها العجوز اللئيم.. كنت تتصنع أنك جاري العزيز وأنت تعبث بسيارتي.. أنت أيها الوغد فلتأتِ لمواجهتي أيها العجوز».. استشاط كمال أكثر وأكثر وهو يرى ظل جاره من خلف الستائر وهو يراه ولا يعيره أي اهتمام.. فأخذ يبحث حوله غاضبًا ولا يعلم ماذا يفعل.. وهنا شاهد سيارة الرجل العجوز القديمة وهي واقفة بسكون أمام منزله فاهتدى إلى فكرة جالت بعقله جعلته يقفز جهة السيارة القديمة ويرطم سقفها بباطن يده وهو يتحدث إلى العجوز: «حسنًا.. كما فعلت بسيارتي سوف أفعل بسيارتك.. تالله لأجعلنك تندم على ما فعلته معي للأبد».. وهنا صرخ العجوز من خلف النافذة: «لا تقترب من سيارتي أيها اللعين».. نظر له كامل وعلى وجهه ابتسامة خبيثة، وذهب كمال مسرعًا إلى منزله وغاب لعدة دقائق.. كان الهدوء خلالها يدوي بالحي لا يقطعه إلا صوت فضيحة أخرى لشخص آخر يستمع إليه العامة.. عاد كامل إلى جهة سيارة العجوز الذي يرقبه متوجسًا ورآه وهو يحمل برميلًا صغيرًا أحمر اللون ويقف أمام سيارته ويقوم بسكب شيء من هذا البرميل فوق السيارة.. صرخ العجوز عليه محذرًا: «ماذا تفعل أيها الفتي؟ اترك سيارتي أيها اللعين».. وتحرك مسرعًا جهة باب منزله وأخذت زوجته العجوز تحاول منعه من الذهاب إلى الخارج ومواجهة هذا الفتى الغاضب ولكن كان العجوز يشعر بالخوف أكثر على سيارته

من تحذيرات زوجته فتركها وخرج إلى باب منزله وهنا لاحت إلى أنفه رائحة ما سكبه كامل على سيارته.. إنه وقود.. وكان يشعر بالصدمة من أن يضحي كامل بالوقود هكذا الذي كان سعر اللتر منه يقارب سعر جرام الذهب الآن لندرته.. فصرخ على كامل وهو يدفعه بعيدًا عن سيارته: «ابتعد عن منزلي وسيارتي يا ابن العاهرة!!».

ألقى كامل بالبرميل أرضًا وهو يصرخ على العجوز: «أيها الوغد العجوز أتدري كم كنت أنفق من ثروة على تصليح سيارتي بسببك وأنت تتصنع البراءة وتسب من كان يفعل ذلك وأنت تحييني كل مرة.. كنت تخدعني كل يوم وأنت تضمر لي الشر.. كل ذلك لتنتقم مني بسبب قطة.. قطة أيها الرجل الخرف!».

صرخ عليه العجوز: «إنها ليست قطة يا ابن العاهرة.. إنها كانت بمثابة أحد أبنائي الذين لم أنجبهم.. كانت بالنسبة لك مجرد قطة ولكن كانت بالنسبة لي شخصًا حيًّا من لحم ودم وروح وأنت قتلتها برعونتك واستخفافك بأرواح المخلوقات».. حدثه كمال بحنق: «لقد أخبرتك مرارًا أني لم أدهسها عن قصد.. وهل تساوي بين سيارتي الفارهة تلك وبين قطتك الرخيصة تلك.. أجننت يا رجل؟! إنها مجرد قطة لعينة.. كنت سوف أحضر لك غيرها من أي متجر أو شارع لو كنت أخبرتني»..

«مازلت تتحدث عنها كأنها شيء ليس له قيمة.. إنها مخلوق من روح ودم عاشت معي لحظات مرحي ومرضي.. كانت لا تنام إلا بجوار رأسي.. أشعرتني بحب لم أشعر به من جهة بشر من قبل..

حب خالص وصافٍ ليس له غرض أو منفعة.. أتستطيع أن تشتري لي بفلوسك اللعينة تلك هذه اللحظات التي ذهبت بلا رجعة.. أتستطيع أن تحضر لي تلك المشاعر التي افتقدتها بسبب قتلك لها؟!».

أخذ ينظر له كامل باندهاش: «يبدو أنك بالفعل مجنون.. أتقارن قطة بالبشر؟ يا لك من مخبول! هل كنت تضاجعها بدلًا من زوجتك أيضًا؟!».. وأخذ يبتسم ساخرًا.. فشعر العجوز بالإهانة من حديثه فدفعه بقوة على غفلة فسقط كامل على الأرض.. وهنا شعر بالإهانة الشديدة.. وأخذ الشرر يتطاير من عينيه ووقف بسرعة وتوجه مندفعًا جهة العجوز الذي شعر بالخوف الشديد ورفع يده أمامه ليحتمي من كمال الغاضب.. وهنا توقف كمال أمام العجوز الذي وقف أمامه مرتعشًا.. فشعر بالشفقة على العجوز فأخرج غضبه المشتعل بزفرة قوية من فمه وقام بركل البرميل الأحمر الملقى على الأرض بكل قوة فطار بعيدًا ليسقط على بعد عدة خطوات خلفهما، وتحدث إلى العجوز بنبرة مهددة: «أنا لن أضع إصبعي عليك نظرًا لأنك رجل كبير السن ولكني لن أسامحك على ما فعلته بسيارتي.. سوف تدفع مصاريف إصلاح السيارة جميعها وبعد ذلك تقطع علاقتك معي.. لن أعرفك ولن تعرفني»..

أخذ يتحدث إلى العجوز الذي قال وهو يرتجف: «لا.. لن تأخذ مني قرشًا واحدًا أيها القاتل.. اذهب إلى الجحيم يا ابن العاهرة»..

صرخ به كمال وهو يستشيط غضبًا: «أيها العجوز اللعين.. ماذا تريدني أن أفعل؟ أتريدني أن أقتلك أم ماذا؟ أخبرك بأني سوف أسامحك

مقابل تكاليف إصلاح ما خربته وأنت ترفض يا ابن الـ..... حسنًا أنا مخطئ لأني أتحدث معك بالحسنى.. سوف أحرق تلك الخردة القديمة التي تطلق عليها سيارة مقابل ما فعلته بسيارتي».. وأخذ يخرج أعواد الثقاب من جيبه.. صرخ به العجوز: «ماذا ستفعل يا ابن العاهرة؟ اترك سيارتي واذهب إلى الجحيم».. وهنا أخذت زوجته تصرخ وهي تشاهد ما يحدث من نافذة منزلها فشعر كمال بالارتباك وتحدث إلى العجوز: «للمرة الأخيرة أخبرك بأن تدفع قيمة إصلاحات سيارتي وإلا سوف أحرق سيارتك بالمقابل».. وقف العجوز أمامه وهو يعطي ظهره لسيارته ويحميها بجسده وهو يفرد ذراعيه متحديًا كمال: «أخبرتك أني لن أدفع لك قرشًا واحدًا أيها القاتل»..

شعر كمال بالغضب الشديد وصرخ به: «تبًّا لك ولعنادك أيها العجوز الأحمق!».. وقام بدفعه بعيدًا عن السيارة فسقط العجوز متألمًا وقام كمال بإشعال الثقاب ووضعها على السيارة التي تشبعت بالوقود فاشتعلت بالحال وصرخت السيدة العجوز وهي تشاهد سيارتهم تحترق بالنيران، وخرج بعض الفضوليين والمارة وتجمعوا على أصوات الصريخ تلك.. وهنا قفز العجوز جهة سيارته وهو يسب كمال وينعته بأقذع الألفاظ وكمال ينظر للعجوز وهو يحاول أن يطفئ النيران المشتعلة بسيارته بيأس جعل كمال يشعر بالندم لفعله ذلك.. اقترب العجوز من السيارة متحيرًا وهو يحاول أن يزيح الوقود المشتعل من عليها ووضع يده بالنيران يحاول إزاحتها هي والوقود من فوق السيارة وهو يائس، وهنا اشتعلت النيران بيده في الحال وسقط الوقود المشتعل بالنيران على ملابسه ليشتعل هو الآخر ويتحول إلى كتلة من النيران

وسـط صراخ زوجتـه وبعض النسـاء من جيرانـه، بينما حـاول بعض الرجال إطفاءه وسط ذهول كمال الذي لم يتوقع أن يتحول هذا الموقف إلى ذلك أبدًا..

على الجهـة الأخرى من المدينة كان رجلان يدخنان السـجائر وهما يسـتمعان إلى فضائـح الآخريـن بتلـذذ شـديد؛ رجـل في بدايـة العقد الرابـع من عمره والآخر شـاب في منتصف العقد الثاني وهما يتغامزان ويتلاسـنان عـلى الفضائـح التـي يسـمعانها.. تحـدث الأربعينـي إلى الشـاب: «ارأيـت يا عماد.. الأسـتاذ رجاء هذا الرجـل المحترم الوقور يسرق السـجائر والأقلام.. إنه يسرق جميع الأشياء الصغيرة».. أجابه عماد بعد أن أخذ نفسًـا عميقًا من سيجارته وأطلق دخانها مع ضحكته المجلجلة: «نعم ..هههههه.. نعم.. هذا الرجل الوقور لص سـجائر.. لقد كنت مخدوعًا به.. لقد سمعت أن هذا مرض عند بعض الأشخاص يسرقون أي شيء حتى ولو تافهًا ويشعرون بالسرور من ذلك».. أجابه الأربعيني: «صغيرة أم كبيرة.. السرقة هي السرقة.. لقد أصبح رجائي لصًّا رسميًّا.. لو كان مازن مازال العمدة لكان جعله منبوذًا بالتأكيد.. سـوف يصبح الفـترة لقادمة أضحوكة البلدة.. والأسـوأ من ذلك كله أنه قد تم فضحه على يد ابنه.. هو الذي أخبر الجميع أن أباه لص»..

سـأله عماد بفضـول: «لكن من الذي قام بتسـجيل تلك المحادثات والفضائح؟ وكيف اسـتطاع أن يدخل منزل الجميع هكذا؟!».. أجابه الأربعيني ضاحكًا: هل هذا الذي يشـغلك الآن؟ لم أعد أسـتغرب أي شيء يحـدث بجهينـة حتى لو طلعت الشـمس من مغربهـا لن أندهش

مـن ذلك».. أجابه عماد فزعًا: «لا.. لا.. هذا يعني يوم القيامة.. حرام عليـك.. مازلـت صغـيرًا ولم أتزوج بعـد».. فأخذ الاثنـان يضحكان وهم مازالا يستمعان إلى فضيحة جديدة تحدث الآن.. فلكز الأربعيني عماد وهو يحدثه: «اسـمع.. اسمع هذه...» فأخذ عماد يستمع بإنصات شـديد.. وهنـا دلـف جهتهـما علـوان وهو مطأطـئ الـرأس خجل.. لا يسـتطيع رفـع وجهـه أمام أي شـخص وهـو يتخفى برفع ملابسـه عـلى وجهـه.. وهنا لمحـه الأربعيني فلكز عماد وأشـار بسرعـة جهته: «انظـر.. انظـر».. وهنا ضحك الأربعيني بشـدة وهـو يصدع بصوت عـال إلى عـماد: «ما هـذه الرائحة الكريهة؟ ألا تسـتحم يـا رجل؟!».. وهنـا أخـذ عـماد ينظر إلى علـوان ويتحـدث بصوت عالٍ هـو الآخر: «لا.. لـن أسـتحم.. إنها رائحتـي وأنا فخور بها».. وظـلا يتضاحكان وهمـا يتصافحـان ويتغامـزان عـلى علـوان.. الـذي نظر إليهـما غاضبًا وهـو يحاول أن يحفـظ آخر قطعة من كرامتـه المبعثرة.. فنظـر إليه عماد متحديًا: «إلامَ تنظر أيها القذر؟! اذهب من هنا قبل أن تغطينا رائحتك القـذرة».. هنـا لم يسـتطع علوان أن يتحكـم بأعصابـه فذهب مسرعًا جهة عماد فاسـتقبله الأربعيني بلكمة قوية على وجهه أسـقطته أرضًا.. وأخذ يركله هو وعماد والأربعيني يصيح عليه: «أتجرؤ وتحاول ضرب صديقي عماد أيها القذر؟ إنه مثل أخي الصغير إذا نظر له شخص نظرة لا تعجبـه أمزقه بأسـناني».. أخذ علوان يتألم وهـو يحاول أن يصد بيده ركلات عـماد والأربعيني بلا جدوى.. بعد أن ركلاه لعدة دقائق تركه عـماد والأربعيني بعد أن شـعرا بالتعب فأخذا يلتقطان أنفاسـهما وهما يشاهدان علوان يسقط على الأرض متألمًا ووجهه تغطيه الدماء.. وهنا

اخترق أصواتهم تسجيل آخر ولكن من نوع آخر.. كان الشبق والغنج صفة ظاهرة به.. إنه صوت امرأة ورجل يمارسان الجنس بوضوح.. وهنا أخذ الأربعيني يستمع بفرح ولكز عماد بكتفه: «استمع.. استمع».. وأخذ الاثنان يستمعان وهما يتندران ويفعلان بأجسادهما ما يسمعانه بآذنهما.. حتى علوان أخذ يستمع إلى التسجيل باهتمام وهو يحاول أن يتناسى فضيحته بسماعه لفضيحة شخص آخر.. أخذ الأربعيني يستمع إلى أصواتهما وهو يصفر ويتحدث شامتًا وهو يفرك شاربه بفخر ويتحدث إلى عماد: «اااه.. يا ليتني كنت أنا بدلًا من هذا الشخص المحظوظ».. وأخذ يلكز عماد ولكن هذه المرة لم يبادله عماد الضحك كالمعتاد على نكاته السمجة.. ولكن وجد العكس.. وجهه ممتقع وعرقه يغطي رأسه وجسده يرتجف.. فسأله الأربعيني بقلق: «ما بك يا عماد؟ لماذا تغير وجهك هكذا؟».. وهنا جاءته الإجابة سريعة عندما وجد السيدة تتحدث بغنج شديد وتترجى عشيقها بأن يستمر بالمزيد أكثر وأكثر.. وتخبره أنها تعشقه وتحبه للغاية.. ونادت باسم عشيقها بوضوح: «عماد».. وهنا ابتسم الأربعيني وأخذ ينكز عماد بيده: «هههههه أرأيت يا ابن المحظوظة أن اسمه عماد مثلك».. ولكنه وجد عماد يتراجع إلى الخلف مرتاعًا وهو ينظر له فارغ الفم مشدوهًا.. شعر الأربعيني بأن هناك شيئًا خاطئًا يحدث.. وأخذ يستمع إلى صوت السيدة وهي تتحدث بتركيز أكثر وحينها تعرف على صوتها بسهولة لأن هذا صوت زوجته.. إذًا إنه يستمع الآن إلى زوجته تتغنج وهي تمارس الجنس ولكن هذه المرة ليس معه بل مع عشيقها الذي يدعى عماد.. هل يعقل؟ لم يستطع عقله تصديق استنتاجه هذا..

لا يمكـن أبدًا أن يصـدق لوهلة أن زوجته المحبوبـة التي حارب جميع أهلـه مـن أجلها أن تخونه مع من يعتـبره أخاه الأصغر عـماد.. أبى أن يصـدق بالتأكيـد.. هذا شيء غـير معقول.. بالتأكيد هذا صوت يشـبه صوت زوجته ولكن ليسـت هـي.. وأيضًا هذا عـماد آخر وليس عماد صديقي الذي ألازمه دائمًا ويعمل معي بورشتي.. بالتأكيد هذه صدفة سـخيفة.. ابتسـم لعماد كالمعتـاد وهو ينـوي أن يطلق دعابـة على هذه الصدفـة السـخيفة الحمقاء ولكـن عندما قام عماد بالركـض من أمامه فجأة.. شـعر بأن هناك شيئًا خاطئًا.. كان يحاول أن ينادي عليه ويخبره أنه يعلم أنها صدفة سـخيفة وأنه لم يشـك بصديقـه أو زوجته.. ولكن لمـاذا ركـض هكـذا؟ أخذ يتعجـب مـن رد فعله.. صـوت ضحكات سـاخرة متندرة جعله ينظر للأمر بشكل مختلف.. علوان وجد فرصته للانتقـام منهما عندما سـخرا منـه.. لم يكن ليعتقد أبـدًا أن يكون القدر سـخيًّا معـه هكذا لـيرى بعينيـه فضيحة من قامـا بالسـخرية منه ومن فضيحتـه فأخذ يبصق الدماء مع الكلمات اللاذعة من فمه وهو يصف زوجـة الأربعينـي بالعاهرة وعماد بالعنتيل والأربعينـي بأنه قواد.. هنا فطـن الأربعينـي أن الأمـر لم يكن مزحـة.. هنا فطن بأنـه زوج مخدوع بالفعل.. ماذا يحدث؟ غلت الدماء برأسه وتملك رأسه الشيطان.. ماذا سـيفعل؟ ماذا سيفعل؟ إن فضيحته استمع إليها أهل جهينة كافة.. لن يسـتطيع العيـش بينهم مرة أخرى.. لن يسـتطيع أن ينظـر إلى أحدهم بوجهه.. العار فوق رأسـه.. أخذ علوان يسـخر منه ويسـبه ويعايره.. وهنا نظر إليه الأربعيني بغضب شديد.. إنه سوف يقتله.. سوف يقتله وسوف يقتلهم جميعًا.. سوف يقتل من سخروا منه ومن فضحوه أمام

العامة.. أصوات زوجته وصديقه مازالت على الملأ وشبقهما يملأ آذان الأطفال قبل الكبار.. يجب أن يسكت هذا الصوت أولًا.. ولكن كيف؟ أخذ يركض بشوارع جهينة يبحث عن عماد.. نظرات الجميع المتشفية كالخناجر الحادة تنهال عليه من كل حدب وصوب.. أحد الشباب ينظر له ويصنع أفعالًا بذيئة بيده.. نظر له الأربعيني بجنون.. إنه سيقتله.. سيقتلهم جميعًا.. جميع من ينظرون إليه بشفقة، ومن ينظرون إليه شامتين، ومن ينظرون إليه طمعًا في زوجته وأن يكون لهم اللقاء التالي على سريرهما.. سيقتلهم جميعًا.. جميعًا.. النساء والرجال والأطفال.. حتى من لم يولدوا جميعًا.. سوف يقتلهم أيضًا حتى لا يعلم أحد بفضيحته تلك أبدًا.. ولكن صوت زوجته وعماد مازال مستمرًّا.. اللعنة!! لماذا لم ينته هذان الوغدان؟!.. أيعقل أنهما يمارسان الرذيلة بمنزلي؟ وهنا انطلق الأربعيني في الحال يشق طريقه إلى منزله.. لا يعلم كيف ذهب، ومتى، ولكنه وجد نفسه أمام باب المنزل بأنفاس لاهثة.. يحطم الباب لكي يدلف عليهما فجأة ويراهما رأيَ العين.. ولكن صرخات زوجته من خلف الباب وهي تترجاه أن يسامحها وأن يغفر لها.. شعر بالجنون أكثر إذ كانت ظنونه حقيقة.. إنهما يخونانى أنا.. أخذ يحطم الباب بعنف شديد وصرخات زوجته من خلف الباب وحديثها مستعطفة تفكره بنبرات صوتها وهي تغنج بشهوة شديدة مع صديقه.. شعر بالشيطان يتلبسه.. حطم الباب بضربة واحدة من كتفه وسقطت زوجته أسفل الباب.. رفع الباب بيده بسرعة شديدة وأمسك زوجته من شعرها بقوة شديدة يجرها بأنحاء المنزل كما تجر الشاة الذبيحة وهو يصرخ بها باكيًا: «لماذا؟ لماذا خنتيني؟ لماذا؟».. صرخات طفليه وهما

يحتضنـان بعضهـما خائفين وهما يشـاهدان أباهم يسـحل أمهـما أرضًا وهمـا لا يعلـمان مـاذا يحدث أو لمـاذا.. أخـذا يسـتصرخان أباهما وهما يترجيـان: «لا تـؤذِ أمنا يـا أبي. .لا تؤذِ أمنا».. دموعهـما الباكية مزقت قلـب الأربعينـي في لحظة واحدة فـترك زوجته مصدومًـا وهي تحاول الخـلاص من تحـت يده وهو يحدث طفليه باكيًا: «أنا لسـت أباكما.. أنا لسـت أباكـما.. أنتما أولاد تلـك العاهرة التي فضحتنـي أمام الجميع.. سـوف أقتلها هي وعشـيقها.. سـوف أمزقهـا أمامكم جميعًـا».. وهنا نظـرت زوجته إليـه وهو يتقدم جهتهـا وعيناه حمراوان كالشـياطين.. فـأرادت النجـاة بأي طريقة، ولم يهدِ سـبيلها إلا أن تذهـب إلى النافذة وهي تركض مسرعة ورأت زوجها خلفها وهو يصرخ بها أنه سيمزقها إربًـا ولن يدعها تهرب أبدًا.. وهنا أخذت قرارها في الحال وقفزت من النافـذة وهي تـصرخ مرتاعـة.. لحظـات ودوى صوت ارتطـام قوي بـالأرض.. وقف الأربعيني ينظر من النافذة وشـاهد رقبة زوجته على الأرض محطمة أسـفل جسدها فقد سقطت على رقبتها أولًا فتحطمت في الحال وأصبح جسـدها الجميل كتلة من اللحم المشـوه الغارق ببحر مـن الدماء.. وعلى الرغم من هذا المشـهد أمامه لم يبرد قلب الأربعيني ولـو لدقيقـة وأراد أن ينفذ انتقامه ولكنها هربـت من يده.. هربت من يده.. قلبه مازال يشـتعل بنيران الغضب.. سـأنتقم بالتأكيد.. سـأنتقم بالتأكيد.. قالها وهو ينظر للطفلين المنهارين خلفه بالمنزل..

* * *

«حرائق وتدمير وصراخ وعراك وجميع ما تتخيله من اضطرابات حدثت بجهينة بسبب تسجيلات مازن.. لكل شخص سر قذر.. كان مازن يحمل كل تلك القذارة على عاتقه، أما الآن فإنه سوف يعطي لكل شخص بالمدينة نصيبه من القذارة».. هذا ما كان ينطق به كريم وهو يشاهد الاضطرابات التي تحدث بالمدينة وهو يضحك ساخرًا..

* * *

أصداء تسجيلات أهل جهينة أخذت تتوسع بكل مكان وتبعاتها تلاحقها على شكل حوادث وحرائق وشجار بكل جهة بأطراف المدينة، وكان الجميع يطاله لهيب الغضب المستعر بين جموع السكان، سواء كان طرفًا أصيلًا في تلك التسجيلات أو أن يجعله حظه العثر ضحية بهذا الصراع حتى إن لم يكن له بهذا الأمر ناقة أو جمل..

وقف سرور أمام متجر عزام مندهشًا مما يسمعه وخلفه شعبان وبعض رجاله يتغامزون ويتضاحكون على تسجيلات أهل المدينة، وكان المتجر والشارع أمامه شبه خالٍ لا يُرى أحد هناك إلا شخص مار أو هارب من هذا الجنون إلى جهة أخرى من المدينة يحسبها أقل وطأة من الجهة التي يعيش بها.. تسريب التسجيلات تلك أشعل الأحداث بجهينة، وعلى الرغم من أنه أقلها غرابة ولكنه كان من أكثرها تأثيرًا على المدينة وأهلها، فدائمًا ما يتفاعل البشر بترقب أكثر مع ما يجهلونه من أمور طبيعية أو خارقة لمفهومهم، ولكن رد فعلهم يكون سريعًا وعنيفًا مع الأمور التي تكون صنيعة غيرهم من البشر، وهذا ما كان واضحًا وجليًّا لدى الجميع، ومنهم سرور الذي شعر بالخوف والقلق الشديد

على زوجته وابنته، وأخذ يتحسس سلاحه الناري بجانبه وهو يتمنى لو كانت زوجته هاجر تستمع إليه وتحضر معه هي وابنته إلى المتجر كل يوم ولكنها دائمًا ما كانت ترفض هذا الاقتراح.. وعلى الرغم من رفضها الدائم هذا فإن سرور كان يشعر بالارتياح بداخله حتى لا تراه زوجته وابنته وهو يتعامل هكذا مع شعبان ورجاله، ومع بعض أهل مدينة جهينة وهو ينتقص من كرامتهم؛ لأنه يعلم أن رؤيتها لتلك المشاهد سوف تؤثر على علاقتهما بكل تأكيد، ولكن في نفس الوقت كان يتمنى أن تكونا بجواره دائمًا حتى تصبحا بأمان وليحميهما.. حاول أن يطرد قلقه وخوفه كثيرًا وهو يطمئن نفسه بأنه لن يتعرض لهما شخص ما بسوء لأنه بذلك سوف يجعله يعاديه هو وعصبته، وهذا ما يتجنبه الكل بتلك الفترة، ولكن الهرج والمرج الناتج عن تلك التسجيلات المستمرة لم يجعله يشعر بالاطمئنان أبدًا، فالمدينة يغلفها عبق الجنون.. إذا كان للجنون رائحة فستشتمه بجهينة الآن بكل تأكيد.. نظر سرور مترددًا بداخل المتجر الذي لم يعد به أحد سوى طاقم العمل المكون من فتاتين وثلاثة شباب وخمسة من رجال شعبان، ثم نظر إلى الشارع الخالي من المارة فأوجس في نفسه خيفة ولم يستطع أن يحتمل قلقه أكثر من هذا فتحدث إلى الجميع خلفه: «يبدو أن هناك شيئًا يحدث بالمدينة الآن.. سوف أذهب إلى منزلي لأطمئن على زوجتي.. وأنتم أيضًا اذهبوا إلى منازلكم لتطمئنوا على عائلاتكم».. ثم تحدث إلى شعبان بجواره: «وأنت يا شعبان ورجالك فلتحرص على حماية المتجر جيدًا حتى لا يصيبه أي شيء من تلك الاضطرابات»..

ضحك شعبان وهو يطمئنه: «لا تقلق يا زعيم.. من يتجرأ على الاقتراب من المتجر فسوف....» ثم حرك يده على رقبته كناية عن الذبح.. فتحدث إليه سرور بقلق: «لا تؤذ أحدًا يا شعبان.. أرهبهم فقط ليبتعدوا عن المتجر».. أخذ شعبان يضحك بملء فيه وظهرت أسنانه السوداء مصاحبة أنفاسه النتنة اللاهثة: «لا تقلق أنت.. كل شيء تحت السيطرة».. نظر له سرور للحظات مترددًا أن يتركه بمفرده، ولكن قلقه على أهله كان أشد وطأة فتركه سريعًا وخرج من المتجر قاصدًا منزله.. وهو في بداية الطريق كان يشعر بالصدمة من كم تلك الأسرار التي كان يمتلكها سكان جهينة وهو يتساءل: من يفعل ذلك؟ ولماذا؟ وشعر بالقلق أكثر عندما شاهد من بعد كبير ألسنة الدخان تتصاعد من مناطق كثيرة بجهينة وهي واضحة على الرغم من حلول ظلام الليل، ولكنه طمأن نفسه قليلًا لأن تلك الأماكن كانت بعيدة عن منزله.. قطع سرور ثلث الطريق وهو يتأمل ما يحدث بالمدينة إما معترضًا على ما يسمع أو ساخرًا شامتًا بفضائح الآخرين الشائنة التي -بالطبع- أقل بكثير ممَّا كان يعتبره فضيحة له.. لم يكن سرور يضع باعتباره أي شيء يحدث.. هو كان يريد أن يشعر زوجته وابنته بالأمان فقط.. إنهما بالتأكيد تشعران بالخوف ممَّا يحدث حولهما لأن الجميع بلا استثناء كان يشعر بذلك حتى سرور نفسه.. أثناء اتجاهه إلى المنزل لاحت لعينيه ورقة فارغة من قطعة الشيكولاتة المحببة التي تحبها ابنته، وهنا أدرك شيئًا مهمًّا.. لقد وعد ابنته وعد البنصر أنه سوف يحضر معه لها وهو عائد قطعة الشيكولاتة المحببة لها، ولكنه نسي ذلك في خضم ما يحدث.. فماذا يفعل؟ هل يعود ويحضرها لها أم يكمل طريقه عائدًا

إليهما؟.. هو قد نسي بالتأكيد ولكن الأطفال أبدًا لا تنسى أي شيء وعدتهم به، ولن يلتمسوا لك الأعذار أبدًا حتى لو انطبقت السماء وأعلنت عن الفضاء لا يهمهم ذلك بشيء أبدًا.. المهم أنك قد أخلفت وعدك.. وقف سرور بالطريق مترددًا حائرًا لا يدري ماذا يفعل.. هل يعود للمتجر أم البيت؟ إن المسافة إلى المتجر ليست بعيدة ولكنها أيضًا ليست قريبة.. شعر بالحيرة الشديدة.. أغلق عينيه للحظات ولف حول نفسه مرتين وشعر بأنه سيسقط على الأرض فتوقف وفتح عينيه سريعًا ليجد نفسه جهة المتجر.. هذه الطريقة التي كان يحل بها سرور أي موقف يجد نفسه ما بين اختيارين.. «إذًا تفوز ابنتي ورغبتها».. قالها لنفسه مبتسمًا وهو متوجه مسرعًا جهة المتجر ليلتقط لها قطعة الشيكولاتة.. أخذت التخيلات رأسه.. وأفكاره المتشائمة تلعب برأسه، وجعلته يندم على اختياره هذا.. وفكر مرارًا بأن يعود إلى منزله، ولكن مع اقتراب المتجر بكل خطوة يخطوها كان يتراجع سريعًا.. استمر هذا الأمر بتفكيره ثلاث مرات حتى وجد نفسه أمام المتجر الذي كانت اضواؤه الخارجية مغلقة. .ولكنه لم يجد أحدًا من شعبان ورجاله أمام المتجر ليحرسه فحدث نفسه ساخطًا: «اللعنة على شعبان ورجاله! إنهم تركوا المتجر بدون حراسة.. هؤلاء الأوغاد.. فتح باب المتجر سريعًا بمفتاحه الذي يحمله فوجد الإضاءة بالمتجر خفيفة ولكن ليست مغلقة.. فذهب مسرعًا جهة قسم المواد الغذائية والتقط قطعة الشيكولاتة من فوق الرف ثم انسحب بهدوء عائدًا وهو ينوي أن يوبخ شعبان على ترك المتجر بدون حراسة.. اتجه سريعًا جهة مخرج المتجر لكن قدمه انزلقت أسفله وكاد يسقط، ولكنه التجأ إلى

رف بجـواره واسـتند عليه واعتـدل بالحال، وهنا نظر إلى أسـفل قدمه لـيرى بمَ تعثر ليجد بركة كبيرة من الدماء وهو يقف بوسـطها شـاعرًا بالصدمـة مما شـاهده.. أخـذ ينظر متفحصًـا بركة الدمـاء وهو يبحث عن مصدرها ليجدها آتية من خلف مكان مسـئول الحسـابات بالمتجر أو ما يعرف بالكاشـير، ليجد خلف مكتبه شـخصين يرتديان ملابس مكتوبًـا عليهـا «متجر عـزام» باللون الأبيـض الذي تحـول إلى الأحمر القاني بسـبب دمائهم التي كان تنفجر كالشـلالات أسـفل حناجرهم المذبوحـة.. لقد تعرف عليهم في الحال.. إنهـما العاملان بالمتجر.. إنهما مقتولان ومذبوحان أمامه.. كيف؟ ولماذا؟ ومتى؟.. كل تلك الأسئلة قفـزت إلى رأسـه الـذي كان مزدحمًـا بالأفكار عما حـدث.. قطع تلك الأفكار صوت صراخ شـديد للغاية أتى من داخل المتجر.. قفز سرور مرتاعًا بمكانه بسـبب تلك الصرخات ولم يشـعر بالأمان إلا وسلاحه النـاري بيـده يضغـط عليه بقوة وهـو يقتحم الطريـق إلى داخل المتجر ليجـد تلـك الصرخـات آتيـة مـن الجـزء الخلفي مـن المتجـر وأماكن التخزيـن وغـرف ملابـس وحمامـات العـمال.. اتجـه مسرعًـا إلى جهة المخزن ليجد مصدر الصريخ الفتيات اللاتي يعملن بالمتجر ملابسـهن ممزقة وهن عاريات ويعتليهن رجال شعبان العراة، والفتيات يصرخن ويسـتغثن بجنون أسـفلهم، ورجال شـعبان يضربونهن بعنف شـديد وتلذذ كبير وعلى وجوههم علامات الشـبق الشـديد، وشـعبان يجلس بالقـرب منهم يشـاهد باسـتمتاع ما يفعلونه وهو يضحك ويشـير إلى رجل بجانبه على إحدى الفتيات وهي تصرخ مسـتنجدة بأي شـخص ولا تجد من يغيثها.. شـعر سرور بأنه قد شُـل تمامًا أمام هذا المشـهد..

لم يكن يتوقع يومًا من الأيام أن يشـاهد مشـهد اغتصاب جماعي أمامه هكذا.. وقف بلا حراك لا يدري ماذا يفعل أو يقول.. شاهدته إحدى الفتيات أمامها فاسـتصرخت به أن ينقذها من أيديهم.. ارتجف جسـد سرور لم يـدرِ مـاذا يقـول لهـا.. قدمـاه تـكادان لا تتحملانـه من هول ما رأى.. نظر إليه شعبان قلقًا فسأله مرتبكًا: «سرور.. لماذا عدت؟».. أخذ سرور ينظر إليه مصدومًا دون أن يتحدث.. شـاهد شـعبان قطعة الشـيكولاتة بيده.. فضحك سـاخرًا: «هل عدت من أجل ذلك؟!».. أخـذت الفتيـات يصرخـن بـسرور بهسـتيريا شـديدة أن يخلصهـن.. لم يسـتطع سرور تحمل أصوات استغاثة الفتيات أكثر من ذلك فصرخ برجـال شـعبان وهو يحمـل سـلاحه النـاري جهتهم وهـو يرتعش.. فتوقـف الرجال وهم ينظرون له بغضب شـديد بعـد أن قطع أوقاتهم السـعيدة ما عدا رجـلًا واحدًا أخذ يغتصب الفتـاة بعنف وعلى وجهه علامات الشبق الشديدة، وحدثه بأنفاس لاهثة: «انتظر.. سوف أنتهي قريبًا»..أخذت الفتاه تصرخ بسرور بشدة.. فانتفض جهة الرجل وقام بضربه بعنف على رأسـه بمؤخرة سلاحه.. فقفز الرجل من فوق الفتاة متألمًا وهو عارٍ تمامًا أمام سرور فشعر بالتقزز الشديد من رؤيته هكذا.. أخـذت الفتيات يصرخـن وهن يحاولن تغطية مفاتنهـن ودماء عفتهن تنسـاب بين أقدامهن وأجسـادهن العارية ممتلئة بالكدمات الشديدة.. تحـدث الرجل بغضـب جهة سرور وهـو يتألم وحـاول أن يبطش به.. فقام سرور بإطلاق النيران إلى أعلى وصرخ بشعبان ورجاله أن يذهبوا خارجًا.. فترددوا للحظات فأشـار إليهم شـعبان بأن يذعنوا له فخرج رجاله وصحبهم شـعبان وهـو ينظر إلى سرور شـزرًا.. نظر سرور إلى

الفتيات فوجدهن منهارات عاريات فأشاح بنظره بعيدًا وتحدث إليهن أن يرتدين أي شيء من غرف ملابس العمال.. فانصاعت الفتيات وهن يبكين منهارات وأخذن يتحدثن بكلمات غير مفهومة من فرط صدمتهن.. وأخذت أصوات عويلهن تمزق قلب سرور كالسياط الحادة.. مرت دقائق كالأعوام على سرور والفتيات، وانتهين من ارتداء ملابسهن وسرور مازال مشيحًا عنهن بوجهه، ثم اصطحبهن إلى خارج المخزن وهو يحميهن من رجال شعبان وهن مختبئات خلف ظهر سرور.. ونظرات الرجال كلها شهوة وحيوانية تجاههن، وأخذ بعضهم يداعب أعضاءه وهو يلقي على الفتيات كلمات بذيئة قذرة.. اقتربت الفتيات بصحبة سرور إلى جهة باب المتجر وهنا لاحت منهن التفاتة إلى زملائهن العمال وهم مذبوحون فصرخن بجنون وركضن إلى خارج المتجر مرتاعات، وتركن سرور وحيدًا بالمتجر لا يدري ماذا يفعل.. وهنا اقترب منه شعبان ورجاله وحدثه ساخرًا: «هل انتهيت من تلك العاهرات سريعًا هكذا؟».. نظر إليه سرور بغضب شديد: «وهل تظن أني أفعل مثلكم أيها الحيوانات القذرة؟ هل تظنونني مثلكم؟»..

حدثه شعبان مندهشًا: «لماذا أنت غاضب هكذا؟ هل فعلنا شيئًا خاطئًا؟».

نظر له سرور مشدوهًا: «شيء خاطئ؟ هل أنت مختل أم ماذا؟»..

هز شعبان كتفيه سريعًا: «لا لست مختلًّا.. لم أفعل شيئًا خاطئًا أنا ورجالي.. كل ما هنالك أننا كنا نمرح مع سكان جهينة.. مثلما كنت تمرح معهم كل يوم بالمساء»..

«ماذا؟ أتشبه نفسك بي.. هل أنا أفعل أشياء قذرة هكذا مثلك أنت ورجالك؟».

«بالطبع أنت تفعل ذلك.. هل تعتقد أنك حينما تخضع سكان جهينة لك وأنت تستغل حاجتهم للمتجر وتجعلهم يفعلون ما تريد.. حتى لو كان الرقص مثل الكلاب أو البكاء كالأطفال أو الرغاء كالأبقار.. هل تلك الأشياء ليست قذرة؟ تجعلهم ينفذون ما يخيله لك عقلك النجس أمام أقاربهم وأبنائهم.. إذا لم تكن هذه هي القذارة بعينها فبماذا تسمى إذًا؟! عقلك أنت الذي به خلل يا سرور إذا ما كنت تعتقد بأن ما تفعله هذا ليس خاطئًا وليس أنا.. أنت مثلي وأنا مثلك ولكني أكثر صراحة منك.. أنا تعجبني فتاة فأضاجعها.. يعجبني شيء فأسرقه.. لا يروق لي شخص فأقتله.. فقط هكذا.. أفعالي صريحة وواضحة لكني لست مثلك أبدًا أحاول أن أضع قيمًا ومبادئ أغطي بها أفعالي تلك»..

.. شعر سرور بالتقزز الشديد من حديث شعبان ومقارنته معه هو ورجاله.. هؤلاء المغتصبون المجرمون القاتلون.. شعر بالضيق كيف يقف أمام تلك الخنازير القذرة ويبادلهم حديثًا بحديث؟! كيف أصبح الوضع هكذا؟! يترأس شرذمة من القتلة الخارجين على القانون يفعلون ما يحلو لهم بالمدينة وأهلها بسببه هو.. لم يكن يتخيل يومًا من الأيام أن يحدث له ذلك.. قطع تفكيره صوت شعبان وهو يتحدث إليه بنبرة قوية: «حسنًا.. يؤسفني قول هذا الآن أيها الزعيم، ولكن حان الوقت لكي يبتعد القرد عن الغابة ويحكم الأسد بدلًا منه.. إذًا ومن هذه اللحظة لن يكون لك صلة بالمتجر أو بأي شيء يخصه»..

أخذ يبتسم ويضرب صدره بيده: «منذ اليوم فصاعدًا سوف يكون المتجر والمدينة من اليوم ملكي أنا.. لقد تركتك بلعبتك هذه كثيرًا.. ولأصدقك القول لقد كنت مستمتعًا بتلك اللعبة، فأنت تملك خيالًا خصبًا للغاية لا أمتلكه.. كنت تفاجئني كل يوم بأشياء جديدة تفعلها بأهل جهينة.. وبالفعل لقد ألهمتني كثيرًا وأعطيتني أفكارًا جديدة سوف أنفذها بأهل المدينة، ولكن بالتأكيد سوف تكون أكثر صراحة مما تفعل دائمًا»..

هنا تجمد العرق على وجه سرور وهو يحدث نفسه: «لقد كنت أعلم هذا.. لقد كنت متوقعًا ذلك ولكني كنت أكذب على نفسي دائمًا بأن الوضع تحت سيطرتي ولكن لماذا أصبح الوضع هكذا؟».. وأخذ ينظر إلى الشابين المذبوحين بالقرب منه: «لماذا يتأذى الناس حولي؟ أنا لم أكن أعتقد أن يحدث هذا أبدًا.. كنت أريد أن أساعد الجميع.. كل ما كنت أريده أن أحمي ابنتي وزوجتي.. أريد أن يختفي كل شيء وتعود الأمور كما كانت حتى ولو عدت منبوذًا مرة أخرى»..

راقب شعبان سرور وهو ينظر إلى الشابين المقتولين بجواره، فأخذ ينظر له متحسرًا: «خسارة كبيرة.. لقد ماتا بدون داعٍ.. لقد كانا يروقان لي ولكن لم يبتعدا كما أمرتهما.. وهذا جزاء من يعارضني»..

وأخذ ينظر إلى سرور بتحدٍّ.. فبادله سرور النظرات وهو يضغط على سلاحه الناري بيده بقوة.. فتحدث إليه شعبان مبتسمًا: «هل تريد أن تسمع شيئًا مسليًا؟ هذه قصة رائعة أحكيها لرجالي كثيرًا.. عن كيف أصبحت من مجرم صغير إلى ما أنا عليه اليوم.. لقد كنت

معتـادًا على الذهاب إلى السـجن كل عدة أعـوام.. أحيانًا كنت أذهب لمجـرد تقضيـة الوقـت ولقـاء بعـض الأصدقـاء القدامـى بالداخل.. وأثناء كل تلك السـنوات تعلمت شـيئًا مفيدًا للغاية.. قراءة ما بداخل النـاس هنـا».. وأشـار بإصبعه جهة رأسـه: «أصبحت أعلـم ما يفكر به خصمـي دائمًا».. أخذ يضحك سـاخرًا: «أنت تعتقـد بأني اكذب.. أليـس كذلك؟».. ثـم نظر إلى رجاله خلفه وأخذ يضحك بشـدة وهو يشـير إليهم وهم يبادلونـه الضحكات: «أنتم أيضًا أيهـا الأوغاد كنتم تعتقـدون بـأني أكـذب مـن قبـل».. وأخـذ الجميع يضحـك وسرور يرقبهـم متحيرًا.. فتابع شـعبان حديثه إليه: «حسـنًا سـوف أثبت لك أني لا أكذب.. أنت مثلًا الآن تعتقد بأنك سـوف تستخدم تلك اللعبة الصغـيرة بيـدك المرتعشـة هذه وتحـاول أن تتخلـص مني أنـا ورجالي وتنتقم لهذين الشابين المسكينين ولهؤلاء العاهرات الصغيرات.. أليس كذلك؟ أنت تعتقد أنك تستطيع فعل ذلك.. لأنك قوي استطعت أن تتحكم بمدينة جهينة بأكملها بهذا السلاح الصغير لأنك أنت الوحيد من يمتلك سـلاحًا ناريًّا.. أنت استطعت أن تفوز بكل معاركك.. مع أهـل جهينة ومع عـزام ومع الشرطة أيضًا.. اسـتطعت أن تتغلب على كل هـذا.. ولكـن دعني أخبرك بشيء.. أنـت لم تتغلب على كل هؤلاء بسـبب تلك اللعبة الصغيرة.. أنت فقط تعتقـد هذا.. ولكن ما حدث أنـك اسـتطعت أن تفعـل كل ذلـك لأني أردت أن تفعـل أنـت هذا.. ليس بسـبب ذكائك أو قوتك أو حتى سـلاحك.. إنما بسبب شعبان.. شـعبان ورجاله هم مـن جعلوك هكذا.. أرأيت كيف أني أسـتطيع أن أقرأ ما بداخل عقلك؟ ولكن سوف أخبرك بشيء أغرب من هذا.. أنا

أستطيع أن أقرأ المستقبل أيضًا.. فأنا أعلم بأن تلك اللعبة التي بيدك هنا بها 4 طلقات نارية ونحن الآن خمسة أفراد.. وإذا قمت بإطلاق النار علينا واستطعت إصابة كل شخص بطلقة واحدة -وأنا أستبعد هذا تمامًا- فسوف يتبقي شخص واحد سوف يركض إلى باقي الرجال ليخبرهم بما فعلته، وهنا باقي رجالي سوف يفعلون المستحيل لكي يتحصلوا عليك.. ولا تقلق، لن يقتلوك، بل سوف يجعلونك تشاهد فقط زوجتك ودبتك الصغيرة ونحن نفعل بها مثلما كنا نفعل بتلك العاهرات منذ قليل ولكن بطريقة أكثر شهوة وأشد إيلامًا.. وأنت لن تستطيع أن تفعل شيئًا أبدًا لأنك سوف تكون محطم اليد والأقدام ومنزوع اللسان، ولن تفعل شيئًا أبدًا.. لا.. آسف.. تستطيع أن تبكي لأننا لن نقلع عينيك حتى تراهما جيدًا.. وسوف نفعل ذلك كل يوم لثلاث مرات لكل فرد منا وسوف تراقبهم كل مرة».. أخذت علامات الصدمة والهلع ترتسم على وجه سرور من حديث شعبان الذي كان يشرح ما سيفعله بعائلته بكل سادية.. نظرات شعبان الشيطانية جعلته يتخيل كل ما يقوله، ولم يحتمل عقله ما تخيله أبدًا، ولم تتحمل قدماه جسده فسقط على ركبتيه جاثمًا.. وهو يبكي متوسلًا..

«أرجوك.. سوف أفعل كل ما تريده ولكن لا تؤذِ عائلتي أرجوك..».. وانسابت الدموع من عينيه بغزارة وسقط بنوبة بكاء شديدة للغاية وسال المخاط على وجهه.. فضحك الجميع على رد فعل سرور فصرخ أحد الرجال بشعبان: «انظر.. إنه يبكي كالنساء».. وأخذ الجميع يضحك ما عدا شعبان الذي نظر إليه متقززًا من مشهد المخاط على وجهه.. فأشاح بوجهه عنه وصرخ به: «حسنًا.. حسنًا.. لا تبكِ..

فلتذهب لتغسل وجهك ولتمسح قذارتك تلك وعد إلي سريعًا..».. أخذ سرور يمسح عينيه وهو يحاول أن يتوقف عن بكائه وبيده سلاحه الناري ليس له قيمة.. وأخذ شعبان ورجاله يرقبونه وهو منصرف إلى الجهة الخلفية للمتجر ويختفي عن أعينهم جميعًا.. فصرخ به الرجل الذي ضربه سرور على رأسه: «هل ستتركه يذهب يا شعبان؟ لماذا لا نقتله الآن هذا اللعين ابن العاهرة؟ لقد ضربني على رأسي»..

أجابه شعبان بضيق: «ليس الآن.. ليس الآن.. يجب أن نتريث قليلًا.. لن يتقبل أهل جهينة وجودنا بالمتجر فجأة هكذا.. يجب أن يتعودوا على عدم وجود سرور بالمتجر رويدًا رويدًا ويشاهدونا نحن بدلًا منه؛ لأنهم لو شعروا بأننا أخذنا المتجر بالقوة سيتكالبون علينا.. والكثرة تغلب الشجاعة»..

ابتسم له أحد رجاله: «يا لك من شيطان يا شعبان! لم نفكر بهذا أبدًا»..

أجابه شعبان مفتخرًا: «دعوا لي أنا فقط التفكير.. لقد كنتم مجرد مجرمين هاربين يجمعكم طمع الحصول على بعض قطع الذهب والآن أصبحتم تمتلكون بلدة كاملة برجالها ونسائها وأطفالها.. نستطيع أن نفعل بهم ما نشاء»..

سأله أحد رجاله: «ماذا عن الشرطة.. يا شعبان؟».

أخذ شعبان يداعب ذقنه قليلًا: «اممم.. سراج هذا هو وجع رأس.. يجب ألا نحتك بهم الآن.. سوف نجد لهم حلولًا فيما بعد».. هنا قاطعهم صوت باب المخزن وسرور يفتحه عائدًا وقد تماسك

قليـلًا.. فاتجـه إليه شـعبان ورجاله وهو يبتسـم سـاخرًا: «لقد كففت عـن البكاء.. جيد للغاية.. أنا مشـاعري رقيقة للغاية ولا أحتمل بكاء الرجـال.. والآن يجـب أن تنـصرف مـن هنـا ولا ترينـي وجهك مرة أخرى.. فأنا معجب بك بالفعل ولكن.. بيزنيس ايز بيزنيس.. أعطني مفاتيح المتجر هيـا..».. أخرج سرور مفاتيح المتجر من جيبه وأعطاها لشـعبان الذي ابتسـم له ومد يده إليه مرة أخـرى: «أعطني هيا لعبتك التـي بيدك تلك».. نظر سرور إلى السـلاح الناري بيده قليلًا ثم أعطاه لشـعبان الذي أخذ يتفحصه للحظات وهو يبتسم: «جيد.. جيد.. هيا تفضل وأرني عرض أكتافك».. أخذ سرور يتحرك إلى جهة باب المتجر وهـو مطأطئ الرأس.. وعند اقترابه من جهة الباب اسـتوقفته صرخة قوية من شعبان إليه: «توقف يا سرور»..

وهنا سـقط قلب سرور بين قدميه.. ماذا سيفعل شعبان الآن؟ هل سـيقتله بعـد أن أخذ منه سـلاحه النـاري؟ أخذ سرور ينظـر إلى باب المتجر القريب منه وأخذ يفكر بالهروب للحظات ولكنه تراجع سريعًا خوفًا من أن يلحقه رجال شعبان وينتقموا منه ومن أسرته.. فإذا قتلوه الآن على الأقل سـوف يموت بمفـرده دون أن يدخل زوجته وابنته في هذا الصراع.. التف سرور ببطء جهة شعبان الذي نظر إليه وهو يبتسم ثم قام بإلقاء شيء تجاهه فأمسكه سرور مستغربًا ونظر به فوجده قطعة شـيكولاتة.. تحدث إليه شعبان ضاحكًا: «فلتعطِ هذه لدبتك الصغيرة وأخبرهـا بأنها هدية من عمها شـعبان».. وأخذ يضحـك هو ورجاله بشـدة.. فأخذهـا سرور وتحـرك إلى جهـة بـاب المتجر وفتحـه ووقف أمامه للحظات وشـعبان ورجاله يرمقونه سـاخرين ولكنهم اندهشوا

بشـدة عندما وجدوا سرور يقف أمـام باب المتجر وينظر إليهم، وأخذ يعبث بباب المتجر للحظات فشـعروا بالدهشة من فعله، فتحدث أحد رجال شـعبان إليه: ماذا يفعل هذا الوغد؟ لماذا لم يرحل؟ شـعر شعبان بالارتيـاب مـن فعل سرور فتحـدث إلى أحد رجالـه: «اذهب وراقب هـذا الوغد لترى ماذا فعل.. تحـرك الرجل سريعًا وهو ينظر إلى سرور وهـو خلف الباب الزجاجي فـصرخ بسرور: « فلترحل يا ابن العاهرة من هنا».

ولكن سرور لم يتحرك من مكانه، وظل واقفًا أمام المتجر متحديًا.. فصـاح شـعبان برجله: «افتح البـاب ولتأتِ بابن العاهـرة هذا هنا».. على الفور قام الرجل بفتح الباب لكي يفتك بسرور وينفذ أمر شـعبان ولكنه فوجئ بأن الباب لا يفتح.. حاول مرة ثانية وثالثة ولكن لم يفتح فتحـدث إليـه الرجل بقلق: «البـاب لا يفتح يا شـعبان.. يبدو أن هذا الوغـد قد قام بغلقه من الخارج».. أمسـك شـعبان بالمفاتيح التي بيده وأخـذ ينظـر إليها: «ابـن العاهرة.. لقد أخذ نسـخ المفاتيـح جميعها».. فـصرخ بـه أحد رجالـه: «اللعنـة! سـوف نقتله هـذا الوغـد».. فجأة صدر صوت انفجار ضخم من داخل المتجر.. فشـعر الجميع بالخوف والاضطراب وصرخ شـعبان مضطربًا برجاله: «اذهبوا وشاهدوا ماذا حدث».. فذهب رجلان وعادا سريعًا مرتاعين: «إنه سرور هذا الوغد لقد أشـعل النار بخزان الوقـود.. إن المتجر يشـتعل كالجحيم.. امتقع وجه شـعبان واتجه مسرعًا جهة المخزن وتقهقر مصدومًا عندما شاهد ألسـنة اللهـب تنتـشر بداخل المتجـر والدخان الأسـود يغلـف المكان بسرعة شديدة.. وارتفعت درجة حرارة المتجر بسرعة رهيبة.. فركض

شعبان ورجاله سريعًا جهة الباب الزجاجي للمتجر وأخذوا يحاولون فتحه بكل قوة ولم يستطيعوا بينما أخذ سرور ينظر لهم من خلف الباب الزجاجي وليس على وجهه أي انفعال يذكر.. ظل شعبان ورجاله ينظرون إلى النيران التي كانت تقترب منهم بسرعة شديدة وهي تلتهم مكونات المتجر كالحوت الجائع وأخذوا يطرقون الباب الزجاجي بقوة ويترجون سرور أمامهم تارة ويسبونه تارة وهم يريدون أن يفتح لهم.. أخذوا يسعلون من الدخان المطبق الذي ملأ المكان.. فصرخ شعبان بالجميع أن يبحثوا عن أي شيء يحطمون به الباب.. فذهب رجاله جميعًا وأخذوا يجمعون المقاعد وأي شيء يجدونه أمامهم بيأس شديد ولكن الباب الزجاجي كان يرتطم به كل شيء فيتضرر قليلًا فقط.. أخذ الجميع يضربون الباب الزجاجي بكل يأس والنيران خلفهم والدخان قد ملأ كل شيء وأخذ يخرج من خلف الباب الزجاجي فتراجع سرور قليلًا وهو يسعل ويرقب شعبان ورجاله وهم يسعلون ويضربون الباب.. وفجأة ابتسم شعبان ووضع يده بجيبه فأخرج سلاح سرور الناري وهو يضحك لسرور بهستيريا شديدة.. وقام بالتصويب على سرور وأطلق الرصاص بكل قوة وبعنف شديد، ولكن لم يحدث شيء.. شعر شعبان بالصدمة فحاول مرة ثانية وثالثة ولكن لم يحدث أي شيء.. فقام سرور بإلقاء أربع طلقات من بين يده ببطء شديد أمامه.. فشعر شعبان بقبضة الموت تعانق رقبته وتسحبه بعنف إلى الجحيم.. فأخذ يصرخ بهستيريا شديدة وهو يحطم الباب الزجاجي ويصرخ بسرور أمامه وهو يشاهده يحترق هو ورجاله: «سوف أقتلك.. سوف أمزق جثتك وأطعمها لابنتك.. كح.. اوووح.. كح.. سوف أقتـ....اح..

سـوف أضاجع جثتك.. سـوف.. ااااحح..».. أخذ يسـعل.. ويسعل وهو يمسـك فمه يحاول أن يمنع نفسـه من استنشـاق الدخان الملتهب السـام بين رئتيه فيشـعل الجحيم بداخلهما.. سـقط على الأرض مختفيًا بـين ظلام الدخـان الذي غلـف كل شيء قبل أن يسـتحيل المكان كله إلى نـيران بصفرتهـا الحمراء.. عـلى الرغم من أصـوات المكبرات التي تعمـل بدون كلل أو ملـل.. كان صوت النيران وهـي تمضغ محتويات متجـر عزام أقوى وأشـد.. وأخذت تعلو بزهـو وغرور وهي تتحدى جميـع من حولها بجبروت وقوة تسـتحقها.. وتنفث دخانها بكل مكان فتشـد أنظار المارة إليها وتغوي أعين الرجال والنساء والأطفال.. أخذ سرور ينظـر للمتجر وهو يحترق ويتمنى أن تحترق معه ذكريات الأيام الماضيـة التـي كانت تصاحبـه بذلك المتجـر.. أصـوات الهمس حوله أخـذت تتعالى: «ما الذي حـدث؟ هل احترق المتجر؟ ماذا عن الطعام والشراب؟ كيف سـنأكل بعد ذلك؟ من فعل ذلك؟ ماذا يفعل سرور هنـا؟ هل هو من فعل ذلك؟ اصمت.. سـوف يسـمعك ولن يعطيك طعامًا أبدًا.. هيا ابتعدوا من هنا.. سرور سـوف يأمر شـعبان بقتلنا».. أخـذت تلـك الكلمات تشـعر سرور بفداحة ما فعله.. هـل كان يتلذذ بما يفعله فعلًا؟.. هل كان بالفعل مثل شـعبان ورجاله.. أم كان يفعل ذلـك من أجل أن يحمي زوجته وابنتـه وأهل جهينة؟ لقد كان يريد أن يحمـي جهينـة من أن يظلمها أحد.. ولكن هل تحول هو بدوره إلى ظالم مثلهم؟ كلمات شعبان هزت أعماقه، وكلمات أهل جهينة الهامسة ألقت به من فوق جرف إيمانه.. لم يعلم كيف يصنف نفسه بعد الآن: ظالمًا أم مظلومًا.. كان يريد أن يغتسل من عار ما شاهده.. هل له يد باغتصاب

هـؤلاء الفتيـات؟ هل يقـع ذنب قتل هذين الشـابين عـلى عاتقه؟ هل عندمـا ترك شـعبان يفلـت بفعلتـه بقتل عـزام كان بتلـك اللحظة هو السبب في كل ذلك؟ أخذت تتضارب مشاعره وتلتهمها نيران الأسف كما تلتهم نيران الكيروسين المتجر خلفه.. لم يشعر بنفسه إلا وهو يقف أمام حشـد من الناس يشـاهدون اشـتعال المتجر خلفـه ويصرخ بعلو صوته: «سامحوني.. أنا آسف.. لقد كنت مخطئًا.. لقد كنت مخطئًا.. لقد كنـت أريد الخير لجهينة ولأهلها.. لم أكـن أريد الانتقام من أحد.. لقد أردت أن تخشـوني أنا بدلًا من أن تخشوا شـعبان.. لقد كنت أعتقد بأن ما يحكم هو الخـوف.. الخوف فقط.. ولكن لا.. ليس هذا الصواب.. لقد انتقمت من شعبان ورجاله.. لقد أشعلت به النيران هو والمتجر.. لقد ألقيت بسـلاحي وسـط النيران.. لن يشـعركم أحـد بالخوف بعد الآن.. لـن يتحكـم بكـم أحـد بعـد الآن.. مـازن أو عـزام أو سرور أو شـعبان.. يجـب أن نتكاتف معًـا لكي نقـ....».. قطـع حديثه فجأة شيء يرتطم برأسـه من الخلف.. وضع سرور يده على رأسـه ونظر بها فوجد دماء.. نظر خلفه سريعًا ليجد شـيئًا أسـود كبيرًا ينهال على عينه فيفقؤها بالحال.. ثم وجد نفسـه بالأرض وشخصًا فوقه يصرخ عليه: «الآن تريـد أن نسـامحك؟ هل نسـيت أنـك أطلقت علي النـار من قبل بسـلاحك؟ هل نسـيت عندما جعلتني أعوي كالكلاب أمام زوجتي وأطفالي؟».. لم يفهم سرور شـيئًا ممَّا يحـدث للحظات.. لكنه بدأ يفهم أخـيرًا عندمـا شـاهد الرجل يحطم رأسـه بصخـرة بيده.. لقـد أصبح لا يرى الآن.. لكن كان يشعر بما يحدث.. ها هي الصخرة تحطم رأسه مرة أخرى.. لماذا يحدث هذا؟ ضربة أخرى على جزء آخر من رأسـه..

من الذي فعل هذا؟ جزء آخر من جمجمته يتطاير بعيدًا عن رأسه.. ثم ضربة ثالثة ورابعة.. انسحق بها تفكير سرور مع انسحاق آخر شيء من رأسه الذي سوي بالأرض.. فجأة انهال الجميع على جسد سرور الذي أصبح بدون رأس.. وأخذوا ينغزونه بالعصي الحادة والأسياخ الحديدية.. ولكن لم يشعرهم ذلك بالرضا.. توجهوا إلى أقرب شجرة بالقرب منهم وربطوه بحبل من قدميه وعلقوا بها جسده الذي أصبح بدون رأس وأخذوا يلكمونه ويضربونه لدقائق فلم يشعروا بالراحة أيضًا فألقوه من على الشجرة وأخذ بعضهم يسحله على الأرض بقوة فتنسحل معه أجزاء من جسده وجلده.. أخذ زمرة من أهل جهينة يمثلون بجسد سرور الذي أصبح شيئًا أشبه باللحم المهلهل بدون ملامح دون أن يعلموا لماذا يفعلون به ذلك.. كل ما كانوا يشعرون به أنه وسيلة للتنفيس عمَّا بأنفسهم ممَّا يحدث لهم.. على الرغم من كل هذا السحل والتنكيل لجسد سرور لم يستطع أي شيء من هذا أن يجعله يسقط شيئًا كان يحمله بقبضة يده كل هذا الوقت.. لم يستطع التعذيب والقتل والتمثيل أو الموت أو أي شيء بهذا العالم أن يجعله يسقط من يده قطعة الشيكولاتة الخاصة بابنته..

* * *

خرجت الأمور عن مسارها.. القطار صار مكانه بالمطار.. لا شيء كما كان، ولا بشر أو شجر أو حجر.. جميعهم أصابهم مصاب ممَّا يحدث بداخل المدينة المغلقة.. أصبحت مشاهد النيران لونًا أساسيًّا بلوحة المدينة.. الغربان تنعق وتلتف أصواتها فوق أصوات المكبرات لتنشر

رياح الرعب فوق الخائفين، وتزيد الجنون بمن أصبحوا مختلين.. صارت التيمة الأساسية بأفكار جهينة أصوات الرعب والفزع والصراخ من النساء وعلى الأطفال.. محاولات البعض التشبث بعقله والهرب من وسط ذلك الجنون كانت أشبه بمقاتلة فأر لفيل ضخم.. الحرائق التي التهمت أجزاء كبيرة من المدينة بعضها بفعل الريح ومن قبيل الصدفة العثرة والكثير منها أشعل بوقود الانتقام أو الحسد والغيرة، أو من باب الجنون الذي كان ينتقل بسرعة كما ينتقل البرد بموسم الشتاء.. مهما كان وضعك بجهينة.. مهما كانت شخصيتك، ومهما كان دافعك أو محركك فكانت تلك المشاهد المقبضة تنثر الحزن والقلق من المجهول فوق ملامح الجميع.. الجميع بلا استثناء إلا شخصًا واحدًا فقط: العمدة مازن الذي كان يضحك بهستيريا شديدة وهو يتنقل بأنحاء المدينة يشاهد أهلها وهم يركضون خائفين أو يحاولون إطفاء النيران بشتى الطرق.. ها هو يقهقه بشدة وهو يشير بيده إلى سيدة مسكينة تركض والنيران متعلقة بها وتتلوى على الأرض صارخة.. أخذ بعض الحاضرين يحاول إحاطتها وإطفاء تلك النيران ولكن بلا جدوى.. يصرخون مستنجدين: «ابحثوا عن ماء.. أحضروا ماء.. فلتحضروا ماء».. بعضهم مرتاع يبحث عن الماء ببعض المنازل التي هجرها أهلها خوفًا من الحرائق وبما يحدث بالمدينة.. أما مازن فظل يشير إليهم وهو يضحك شامتًا: «هذا جزاؤكم أيها الخونة.. هذا ما تستحقونه أيها الملاعين.. فلتحترقوا بنار الجحيم.. هههههههههه».. وظل يضحك ضحكات من قلبه تظهر لجميع من يراها حينها بأنه شخص فقد عقله تمامًا.. ظل يردد هذا الحديث لجميع من يراه وهو يركض فرحًا

مهلًا: «فلتحترقوا بالجحيم.. فلتحترقوا بالجحيم.. فلتحترق جهينة.. فلتهلكوا جميعًا أيها الخائنون».. وظل يركض ويركض واختفى وسط الجموع الهاربة جهة مخارج المدينة.. فلقد قرر الكثير من أهل جهينة أن يتركوا منازلهم ويفروا إلى مخارج المدينة التي كانت مغطاة بالضباب.. هم كانوا يعلمون بأنهم لن يستطيعوا الهروب خارج المدينة ولكنهم اكتفوا بأن يجتمعوا بداخل هذا الضباب لعله يختفي فجأة ويكون منفذ الهروب من ذلك الجنون الذي اجتاح المدينة، وكان من بين هؤلاء متولي وبيومي مساعدا مازن السابقان وعائلتاهما.. كانوا من أوائل الفارين من جحيم جهينة التي كانت جنة ينعمون بثمارها كل تلك السنوات الماضية.. وكان وسط كل هؤلاء الجموع يوسف فهمي وهو يقود عائلته وعائلة أخيه الأكبر جهة الضباب بهمة كبيرة، وكان يتفقد أفراد عائلته كل بضع دقائق حرصًا على عدم ضياع أحدهم أثناء تلك الفوضى، ونجح في النهاية في إيصالهم إلى الأمان فوقفوا مع الجميع ببداية الضباب وكلهم حرص حتى لا يتوغلوا هناك أكثر فيعودوا إلى أنحاء متفرقة من المدينة مرة أخرى.. عندما تنفس يوسف الصعداء أخيرًا صرخت به زوجته وهي تلطم خدها: «يا ويلتى.. يا ويلتى!!».. هنا سقط قلب يوسف بقدمه فصرخ بها قلقًا: «ماذا هنالك؟ لماذا تلطمين وجهك هكذا؟» فأجابته بارتياع شديد: «لقد تركت حقيبة نقودنا ومصوغاتي فوق السرير ونسيت أن أحضرها».. صرخ بها يوسف غاضبًا: «اللعنة عليكِ يا امرأة!! لقد خشيت أن يكون حدث شيء لأولادنا».. أجابته بخوف: «يجب أن تحضرها.. إن بها جميع مدخراتنا.. لن نستطيع أن نعيش بدون تلك المدخرات بعد اليوم»..

أجابها يوسف: «أي مدخرات تتحدثين عنها؟! ألا تشاهدين ما يحدث بالمدينـة؟ ادعي الله فقـط أن نخرج من جهينة هذه عـلى خير.. هذا إذا اسـتطعنا الخـروج من تلك المدينة اللعينـة».. أجابته غاضبة: «يجب أن تحضر الحقيبة.. حتى لو خرجنا من المدينـة بدونها لن يكون معنا نقود لكي نأكل حتى.. أنا سوف أحضرها إذا لم تذهب لتحضرها أنت»..

رمقها يوسـف بنظرات مستنكرة، ثم أشـاح لها بيده وهو غاضب: «حسـنًا.. حسـنًا.. سـوف أذهـب أيتهـا اللعينـة.. لا تتحركـوا مـن أماكنكـم تلك حتى أعود.. هـل فهمتم؟».. أخـذت زوجته وأطفالها وزوجـة أخيـه وأطفالهما يهزون له رءوسـهم تأكيدًا عـلى كلامه.. فزفر بضيـق وهـمَّ عائدًا إلى المدينة التي أصبحت أجـزاء كبيرة منها كتلة من النـيران، وأخـذ بعـض الصبية يلقـون العصي والدراجـات وأي شيء يجدونـه أمامهم بالنيران المشـتعلة وهم يهللون فرحين بمشـهد النيران وهي تستعر أكثر فأكثر.. توقفت مكبرات الصوت أخيرًا بما تحمله من أسرار قذرة لجهينة، ولكن لم تنطفئ ثورتها، وظلت المعارك والخلافات قائمة.. أخذ يوسف يشاهد كل تلك المشاهد وهو مصدوم من كم هذا الدمار والحقد الذي ظهر بين ضلوع سكان جهينة.. هل كان كل ذلك الدمار مختبئًا بقلوبهم وهم في غفلة؟ هل كل هؤلاء أثمون؟ وظل يحمد الله أنـه نجا هو وزوجتـه وأسرته من تلك الأسرار القـذرة التي كانت بأرجـاء المدينـة.. وهنا لاح أمامـه فجأة.. ظهر جليًّـا وبكل وضوح.. يتحـرك ببطء من بعيد جهته.. ظهر فجـأة كمن انبثق من نيران العنقاء أو نتـج عن مخـاض الجنون.. ها هو يقترب منـه.. لم يعلمه في البداية..

ولكن شعر أمامه بالألفة.. هذا شخص يعلمه بكل تأكيد.. تسمرت قدماه بالأرض ولم يستطع أن يتحرك.. ملابسه الممزقة المتسخة.. لحيته الشعثاء الكثة.. كلها جعلت ملامحه تختلف قليلًا.. ولكن هيئة جسده الصغير كما هي.. جرح رأسه فوق حاجبه كما هو.. هل يعقل أنه هو؟ هل عاد من الموت حقًّا؟ هل يعقل أن هذا عزت أخي الأكبر؟ ارتعش قلب يوسف واشتعلت الدماء بجسده.. هل بالفعل يشاهد أمامه أخاه الأكبر يوسف الذي رباه مثل والده وضحى بكل شيء من أجله؟! هل بالفعل لم يمت غرقًا؟ أخذ قلبه ينبض بجنون شديد، والمتشرد يقترب جهته أكثر فأكثر.. ها قد أضاءت النيران بجانبه وجهه وظهر جليًّا بوضوح.. إنه وجه عزت بالفعل.. إنه وجه أخي.. ولكن يجب ألا يكون هو.. يجب أن يكون شخصًا آخر.. يجب أن يكون شخصًا آخر.. عزت أخي حبيبي قد مات.. لقد أقمت له عزاء وبكينا عليه أنا وأسرته.. لقد أخبرتني الشرطة أنه مات.. أخبرني عمله بأنه مات.. أخبرتني زوجته وأولاده بأنه مات.. الجميع كان يصرخ بي بأنه قد مات.. الجميع كان يلومني على تمسكي بذكراه.. الجميع قال إنه مات.. لقد صدقت الجميع.. لقد مات أخي الحبيب.. لقد مات أخي الحبيب.. عزت قد مات.. أخذ يوسف يحدث نفسه بذلك عندما اقترب منه المتشرد ووقف أمامه ينظر له.. ثم تحدث بصوت خافت للغاية: «يوسف.. أخي».. هنا لم تتحمل قدما يوسف جسده وجثا على ركبتيه مصدومًا.. حتى لو أخبره الجميع بأن هذا ليس عزت فإنه لن يستطيع أبدًا أن ينسى صوته وهو يناديه باسمه.. إذًا هذا عزت

أخي الأكبر بالفعل.. ابتسم يوسف بشدة وهو يبكي فرحًا ويصرخ بعزت أخيه الأكبر الذي ضحى لأجله بكل شيء: «عزت.. لماذا قد عدت؟».. قالها وهو يبكي بشدة ويصرخ غاضبًا بعزت: «لماذا قد عدت يا أخي؟ لماذا قد عدت؟ أنا الآن أصبحت خائنًا.. خائنًا لعشرتنا.. خائنًا لطفولتنا.. خائنًا لصداقتنا..خائنًا لك.. سمعت كلام الجميع وتقبلت موتك.. لقد أخذت مكانك بالعمل شفقة من أصحابه.. أخذ أولادك أموال معاشك ويعيشون حياة رغدة.. زوجتك تزوجت شخصًا غيرك وأنجبت منه طفلين.. لماذا عدت الآن لكي تدمر حياتنا جميعًا؟ لماذا لم تعد قبل هذا وأنا أتحدى العالم جميعًا لكي أخبرهم بأنك حي.. لقد نعتوني بالمجنون بسبب ذلك.. لقد كرهني أولادك وزوجتك لأني كنت أقف بطريق سعادتهم.. لقد انحنى ظهري وعظامي وأنا أعمل لكي أغطي غيابك.. لماذا لم تعد حينها وعدت الآن؟ لماذا وبالرغم من حبي الشديد لك لم أكن سعيدًا بعودتك من الموت؟ لماذا عدت يا عزت؟ لماذا عدت؟».. قالها يوسف وهو يبكي بحرقة شديدة أمام أخيه الذي ظل ينظر له صامتًا.. ثم تقدم جهته ببطء شديد.. طأطأ يوسف رأسه بالأرض وهو حزين للغاية.. لا يدري ماذا يقول أو يفعل.. ما ذنب أخيه عزت؟ ما الذي اقترفه بحقهم؟ هو لم يفعل أبدًا أي شيء يضيرهم هو وأسرته، فلماذا شعر بالضيق الشديد عندما شاهده مرة أخرى؟! كيف سيبرر له أنه أنكره من قبل؟ كيف سيواجه أخاه بعد ذلك وهو فعل كل شيء من أجله وكان جزاؤه هكذا.. لم يستطع يوسف أن يعبر عن أي شيء إلا ندمه وهو

ينظـر لأخيه عزت وهو يقترب منه ويتمنى من كل قلبه أن يصفعه على وجهه.. أو يضربه بقدمه، أو يلكمه برأسـه.. يبصق عليه.. يمرغ رأسه بالـتراب.. يفعـل أي شيء له لكي يجعله يكفر عـما فعله بحقه.. وقف عزت بالنهاية بالقرب منه فرفع يوسـف رأسه وهو ينظر لأخيه بعيون دامعـة فوجده ينظر أمامـه ولا ينظر إليه، ثم مر بجـواره وهو يتحدث بصـوت خافـت: «يوسـف.. أخـي.. أخي يوسـف».. أخذ يوسـف ينظـر إليه وأخوه عزت ينصرف بجـواره ويتركه مبتعدًا ولا يتردد على لسانه أي شيء إلا اسمه.. أخذ يوسف يرمق أخاه بمرارة شديدة وهو يتجاهلـه ويكمل طريقه، فأخذ يبكي بحرقة شـديدة وهو يحمل قبضة مـن التراب اغترفها بيده ووضعها فوق رأسـه وهو يشـاهد أخاه يردد اسـمه وهـو يبتعد بعيـد ويختفي بهدوء ورزانة وسـط الجمـوع الهائجة المجنونة بجهينة..

تمت بحمد الله

مع تحياتي / إسلام عبدالله

الفهرس

للتواصل مع المؤلفة:

البريد الإلكتروني: eslamthefighter@gmail.com

الصفحة الرسمية: https://www.facebook.com/eslamthefighter